مرضى حكموا العالم

إقتباس

رشاد جميل فيّاض

جروس برس

جروس برس
طرابلس - لبنان

فاكس: ٧٨٢٧٩٠ ٢١٢٤ ٠٠١

المقدّمة

«تعدّدت الأسباب والموت واحد»، فالموت حق يصيب كل كائن على وجه الأرض مهما علا شأنه.

إلّا أنّ موت عظماء هذا العالم له طابعه المميّز، والشيء الملفت للنظر أنّ كثيرًا من هؤلاء العظماء قد لاقوا حتفهم نتيجة خضوعهم لعلاجات شبه متناقضة تعود لكثرة الأطباء المحيطين بهم.

هذا الوضع دفع العديد من المقرّبين من هؤلاء العظام لإلقاء الأضواء على وضعهم الصحيّ وإظهار حقائق كثيرة طالما بقيت طيّ الكتمان ومنها أنّ عدداً لا يستهان به من هؤلاء الرؤساء كانوا يعانون من أمراض خطيرة ومزمنة تترك آثارها السلبيّة الواضحة في طريقة حكمهم، خاصّة أنّ لا أحداً كان يتخلّى بملء إرادته عن الحكم أو حتّى عن جزء بسيط من مسؤوليّاته. ويبقى المواطن الضحيّة الأولى والأخيرة.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو: هل أنّ هذه الأخطار الناجمة عن مثل هذه الأوضاع الصحيّة جديّة وإلى أيّ حدّ؟

الواقع أنّ التاريخ يحمل في طيّاته الجواب الصريح والوافي. ألم يكن تفشّي مرض الطاعون السبب الرئيسي في سقوط الأمبراطوريّة اليونانية وخسارتها لأسطولها وقدرتها وسيطرتها على العالم آنذاك؟ ألم يكن أيضاً مرض الملاريا سبباً في انهيار الأمبراطوريّة الرومانيّة؟ وكذلك مرض الطاعون في القرن الرابع عشر والذي عاد وظهر بحدّة في إنكلترا وأثّر سلبًا ليس على

التجارة في هذا البلد وحسب وإنّما على التجارة في القارّة الأوروبيّة بأكملها؟ وإذا كان التاريخ قد سجّل تأثير الأمراض على الجماعات، إلَّا أنّه أَغْفل عن تسجيل تأثير الأمراض على الرؤساء والعظماء في هذا العالم على الرغم من أهميّة التوازن الفكريّ والجسدّي لدى الحاكم.

ويؤكّد الأميركي «روسك» والذي تسنّى له مراقبة تصرّفات الرئيسين «كيندي» و«جونسون» عن كثب وحضور أهمّ القمم العالميّة أنّ عدداً كبيّرا من القرارات اتّخذت تحت تأثير ارتفاع في الضغط مثلاً أو تشنّج في العضلات والأعصاب أو... وكان من الممكن أن تكون مختلفة ومغايرة لما جاءت عليه.

في الواقع أنّه في مؤتمر «يالطا»، حيث قرّر السوفيات والأميركيّون اقتسام مناطق النفوذ في العالم إثر الحرب العالميّة الثانية، تمكّن «ستالين» من السيطرة على الرئيس الأميركي «روزفلت» الذي كان يشكو يومها من وضع صحيّ متدهور... إلّا أنّ هذا الأخير استطاع أن يثأر لنفسه بعد مرور ١٥٠ يوماً بالضبط في «بوتسدام» بشخص الرئيس تشرشل، إذ أنّ «ستالين» بدا خائفاً على نفسه. قليل الحركة والكلام إثر تعرّضه لنوبة قلبيّة.

وما ابتغيناه في كتابنا هذا إظهار حقائق مخيفة تبين مدى تأثير التدهور الصحّي على قرارات على درجة كبيرة من الخطورة. والأخطر في الأمر يبقى مرتبطاً بوجود السلاح النوويّ والذي يبقى استعماله حكراً على قرارات مثل هؤلاء الرؤساء... المرضى؟

«رونالد ريغن Ronald Reagan»

وُلد ممثّلاً، ونميَ هذه الموهبة حتى البراعة، فامتهن التمثيل، وخاض هذا المضمار بنجاح، حتى درجة النجومية وأصبح عضواً بارزاً في المحافل الفنيّة والسينمائيّة. تخطب ودّه وتتسابق على التعاقد معه كبريات الشركات والستيديوهات. وبالفعل اشترك في تمثيل العديد من الأفلام والمسلسلات التي لاقت استحسان النقاد العالميين، وإقبالاً شعبيّاً كثيفاً، ناهيك، عن المردود الماديّ الناتج عن التزاحم اللافت للأنظار، والانتظار الطويل أمام شبابيك التذاكر، علماً بأن بعض أفلامه كانت تعرض بالوقت نفسه في عشرات الدور السينمائية في أرجاء الولايات الأميركية الشاسعة، كما في عواصم الدول الاوربية والعالمية. والجدير بالذكر، أنةّ كان على البعض أن يشتري بطاقات بتواريخ مؤجلة لا تسمح لهم بالدخول، إلّا بعد مرور أيام عديدة، وهكذا ازدهرت سوق سوداء، لتداول هذه التذاكر، بأثمان تفوق بعشرات الدولارات ثمنها الأصلي.

وممّا ساعد رونالد ريغن على النجاح في الأدوار التي أسندت إليه، بالاضافة إلى قامته الطويله وإطلالته اللافتة للنظر، حسن أدائه للحوار، بحركاته ونبرات صوته المعبّرة التي تساعده كثيراً على إيصال ما يريده من أحاسيس ومشاعر إلى جمهوره. وقد وظّف فيما بعد ميزاته الطبيعية وبراعته التمثيلية والخطابية لخوض غمار السياسة في بلاده، فتبوأ سدة الرئاسة مرتين متتاليتين، وهذا أقصى ما يسمح به الدستور الأميركي.

كما في دخوله إلى البيت الأبيض، كذلك قبل خروجه القسري منه، لم يتمكن ريغن من التخلي عن طبيعته الفطريّة كممثل، فيترك الساحة ببساطة،

متخلياً عن أمجاده وأدواره، بل أقحم نفسه في مستقبل بلاده، واختيار الشخص الذي يعتبره الأنسب لخلافته، وإدارة التركة والإرث من بعده. فرمى بكامل ثقله في الميدان مجيّراً إنجازاته وانتصاراته: الحقيقية منها والمزعومة إلى خليفته العتيد وذلك قبل ثلاثة أشهر من الإنتخابات الرئاسية الأميركية، سنة ١٩٨٨ وبالتالي، قبل اعتزاله وخروجه من البيت الأبيض. وفي نهار الاثنين الواقع في الخامس عشر من آب، أعلن تأييده الكامل، ودون أيّ تحفظ، لترشيح جورج بوش، أمام المؤتمر الجمهوري العام، الذي انعقد في مدينة أورليان ـ الجديده. وهذه الخطوة النادرة من نوعها شكّلت عنصراً أساسياً في نجاح بوش ووصوله إلى الرئاسة. وعلينا أن نرجع ثلاثين سنة إلى الوراء، لنجد تعهداً مماثلاً؛ وتحديداً، سنة ١٩٦٠، عندما تعهد الرئيس الجنرال دوايت ايزنهاور، قبل انتهاء ولايته، وامام المؤتمر الجمهوري عينه مساندة ودعم ريتشارد نيكسون في معركته الانتخابية وخلافته ولكنه في ذلك العهد، كان أيزنهاور يستعد لترك منصبه وتركته بقرف غير آسف، وكأنّه يتحرر من أعمال السخرة، وهكذا دفع نيكسون الثمن، فنال (١١٨٥٥٠) من أصل (٦٨٨٣٨٨٧٩) صوتاً، في وجه منافسه الديمقراطي جون كنيدي.

ريغن، في مجال دعمه لترشيح خليفته بوش، قد استعمل طريقة خاصة به، تختلف إختلافاً جذريّاً عن طريقة ايزنهاور في دعمه لنيكسون. فعلى طريقة نجم مسرحية، يقدّم أفراد فرقته إلى الجمهور قبل الابتداء بالتمثيل، مكرراً تقديره واحتراماته لبوش؛ كما قدّم له الشكر والإعجاب بالأعمال التي شاركه في إنجازها خلال السنوات الثماني التي أمضاها إلى جانبه كنائب للرئيس. وبهذا كان يجيب بصورة غير مباشرة على منتقديّ بوش، إذ كانوا ينعتونه بالرجل الخفيّ، وبأنّه لا يتمكن من اعتلاء منصّته، دون الرّجوع إلى مذكرة قد أعدّها مسبقاً، كذلك بأنه لا يتمكن من الكلام بضع دقائق دون اقتراف عشرات الأخطاء.

من عادة الرئيس ريغن أن لا يتكلم إلاّ عن نفسه، لكن في هذا الاثنين الواقع في الخامس عشر من آب، وخلافاً لعادته، لاحظ الحضور، أنّ ريغن

لجم نفسه كخطيب مفوّه، وحدّ من بلاغته، وذلك دون شك كي لا يسحق أو يغطي بوش، ويظهره بمظهر المحدود. وفي هذه الخطبة قدّم للجمهور تعهدات مهمّة بالنسبة إلى مقدّرات بوش. كذلك، ودّع مؤيديه بطريقة عاطفيّة ذاكراً بأسف شديد السنين الطيّبة التي قضاها في البيت الأبيض في خدمة بلاده والأمّة الأميركية. بعد ذلك كرّس ريغن نفسه خلال خريف ١٩٨٨ كليّاً لمعركة انتخاب بوش، وهكذا ابتعد ومن ثمّ ترك السلطة بهدوء ونعومة. ولكنّه لم يترك فرصة تفوته دون تحيّة جمهوره ومؤيديه، وتذكيرهم بشكل مفصّل عن أحد إنجازاته وانتصاراته أثناء وجوده في الحكم، ممّا يهزّ مشاعر الشعب فيصفقون طويلاً، ويهتفون عالياً. ففي هذه الاجتماعات الحافلة، حيث يختلط الحابل بالنابل، ويجتمع العابث بالدابس، لا يهم سوى الكلمات الموسيقيّة والألفاظ الطنّانة كما عندما يقول: لقد تحررت أفغانستان من السوفياتيين، وحلّ السلام بين إيران والعراق، وخيّم الإسترخاء على إفريقيا الجنوبية. أمّا عندما يصل إلى حبّه لأميركا، فيكاد يذوب من شدّة هذا الحبّ وعلى طريقة الأطفال الأميركيين، يذكر، أنّ في أميركا مئتي طعمة من المثلجات المختلفة. ويقول بنقمة لا تخلو من الأسف، إنّني ذاهب دون شك، ولكن بوش سيخلفني، لأنّه لا يزال يوجد الكثير من الأشواك لتنظيفها، ومن الحواجز لتجاوزها ومن الخيول لامتطائها. وتابع مازحاً، وللضرورة، أترك لكم عنواني ورقم هاتفي... وجدير بالذكر أنّ هذا النوع من المزاح كان يثير اشمئزاز مرغريت تاتشر في كواليس إجتماعات القمة.

كان ريغن يهلع فزعاً عندما يتذكر بأنّه بعد أسابيع معدودة سيسبح في الفراغ والصمت، بعد أن أمضى، ليس شهراً، بل سنوات العسل مع القوّة والسلطة، فيغرق في نفسه حتى يهدأ فيقول لنفسه: «سيكون في إمكاني دائماً، أن أدفع بوابة «دل سيالو» «Del Cielo» إسطبله الفخم الكائن في شمال سانتا برباره في كاليفورنيا حيث استريح». وهنا ينوي تمضية بقيّة حياته. في إحدى جولاته الإنتخابية لدعم وليّ عهده بوش، وذلك بعد ظهر يوم الاربعاء الواقع في ٣ آب ١٩٨٨، وجّه إليه أحد الصحفيين مستفسراً عن رأيه بميكائيل

دوكاكيس الملقب «بالدوق»، فما كان منه إلا أن علت شفتيه ابتسامة ساخرة، ثم نزل تاركاً المنبر وهو يلقي قنبلة، إذ تمتم على مسمع من الصحفيين، دعكم منه، لا أريد أن أغتاب رجلاً معاقاً. وهذه إشارة واضحه ومباشرة إلى الإشاعات التي راجت حول صحة دوكاكيس العقلية اثر مقتل شقيقه بحادث سنة ١٩٧٣، وفشله في إنتخابات حاكم لولاية ماساشوست سنة ١٩٧٨، فأصيب دوكاكيس بهبوط في الأعصاب، وانزوى على نفسه مبتعداً عن المراكز العامة وبقي على هذه الحال، حتى ما قبل الافتتاح الرسمي لمعركة الإنتخابات الرئاسيّة، إذ، بصورة فجائيّة وعجائبية، نفض غبار الزمن عن نفسه، وغاص في غمار المعركة حتى أذنيه، ونال تأييداً لا بأس به، لا بل مشجّعاً، حتى رمى ريغن بقنبلته الموقوتة وتناولتها جميع الصحف والإذاعات، مع ما شاء كلّ صحفيّ ومذيع من الإضافة إليها من «مقبّلات». ولما كانوا في الولايات الأميركية، لا يمزحون، ولا يحابون، ورغم أنّه أقسم أغلظ الأيمان نافياً أنّه كان قد أُخضع لأيّ علاج نفساني أو عصبيّ وتحدى كل من يريد أن يثبت عكس ذلك بتقرير طبيّ أو شهادة طبيب. ولكن يمينه وتحدياته، بقيت دون فائدة، إذ انفضّ من حوله حتى أقرب المقرّبين إليه وأصبح وحيداً في الساحة، ثم أبرز في مؤتمر صحفيّ شهادة من طبيبه الخاص تنفي نفياً قاطعاً الإشاعات التي تلوك سمعته الصحية. كذلك وزّع على الصحف صوراً عن نتائج الفحوصات السنويّة العامة التي أجراها قبيل معركة الإنتخابات على عادة الأميركيين، تؤكد سلامته وتمتعه بصحة عقليّة وجسديّة ممتازة، ممّا حمل رونالد ريغن على التراجع معتذراً معلّلاً ما قاله بأنّه لم يكن سوى مزحة، ولم يكن من المستحسن أن يقول ذلك.

إنها غلطة... حقاً؟ الأقرب إلى الحقيقة، مكر واحتيال. هكذا أصبح رونالد ريغن، معنيّاً بكثير من عناوين العديد من كبريات الصحف، إذ أنّه يعرف جيّداً أكثر من غيره، بأنّ صحة رئيس في السلطة، كذلك صحّة المرشحين لهذا المركز، في أميركا، كما، في جميع الدول الراقية، هي من شؤون الدولة المهمة، خصوصاً أنهّ خطيب مفوّه، يملك قوة الاقناع. ومع

هذه المواهب لا يُسْمَح أن يتجاهل قوة الكلمة، خصوصاً أنّ هذه المزايا، أوصلته إلى أعلى المراتب. لكن، لدى وصوله إلى البيت الأبيض، لم يرَ عظماء العالم القديم في هذا الحدث سوى نجاح ممثل سابق، نشأ وتربى في مدرسة هوليود للجمال وفن الجاذبيّة، إذ لم يكن يهمهم سوى مظهر. وقد كان جميلًا في حينه. وقد قوّم هذا الحدث في أوروبا على أنه اختراق لا يصدق وغير معقول.

لم يندهش لهذا الحدث أحد من الأميركيين. وأقصى ما علّق البعض على ذلك بقوله: إنه راعي بقر سابق، عرف كيف يتسلق الدّرج بمهارة. والكثير من المواطنين المتحدرين من الطبقة البورجوازية، كما من أهالي الريف البعيد، صوّتوا بكثافة لمصلحته سنة ١٩٨٠ ومن ثمّ سنة ١٩٨٤ وما زالوا حتى الآن يتحسرون عليه وعلى اعتكافه وابتعاده عن المسرح السياسيّ، كما أنّ صورته المجسّمة لا تزال تزين صدور الصالونات في العديد من البيوتات من مختلف المستويات مع رسوم لنكولن، وروزفلت وغيرهم من العظماء والأبطال الأميركيين. لا غرابة في ذلك؛ إذ طالما أعجب الأميركيون بالمغامرين وأصحاب الصرعات. وفي المقابل لا يأبهون مطلقاً، لمن يطلقون عليهم تسمية «أنصاف الرابحين» الذين يولدون وفي أفواههم ملاعق من ذهب، على مثال جون كنيدي والذين لا يبذلون الكثير من الجهود للتوصل إلى النجاح والمراكز العالية.

بالنسبة لريغن، فقد بدأ حياته السياسيّة من أسفل الدرج ثم انطلق صعوداً بتؤدة وانتظام، من هضبة إلى هضبة، حتى القمة، حيث تربّع مستريحاً في البيت الأبيض؛ مركز السلطة والقرار في العالم. وهكذا صنّف بين الأبطال الذين أجّجوا مشاعر الأميركيين ودخلوا إلى قلوبهم بأحداث وتصرفات لا تمحى من ذكرياتهم وتاريخهم، وأصبحوا مدعاة اعتزازهم وتفاخرهم.

سنة ١٩٨٠، اختير رونالد ريغن لرئاسة الجمهورية الأميركية وكان قد تعهد بأنه سيمحو الإذلال الذي أصيبت به الولايات المتحدة في عهد (جيمي كارتر) حيث في طهران، «أحرق جنود الله العلم ذا النجوم، العلم الأميركي،

واحتجزوا ممثّل واشنطن وجميع أفراد السفارة الأميركيين كرهائن» فبانتخابهم لريغن، لم ينتخبوا فقط، رجلاً خارقاً (سوبرمان) في ثياب أنيقة، وطلّة مهيبة يوحي بالقوة والرجولة؛ إنّما انتخبوا أيضاً، ابن أحد تجار الأحذية في «تمبيكو» من ولاية «ألينوى»، والتلميذ المرموق المتحدر من أصل أيرلندي، الشعب الذي يحمل في خلاياه ودمائه، العناد وكبر الرأس والتلميذ، الذي يحمل دبلوماً في الإقتصاد والعلاقات العامة، وهو ابن الثانية والعشرين من العمر وقد انتسب إلى جامعة إيريكا Eureka. والسبّاح المنقذ، إلى جانب كونه الأجهر صوتاً، والأكثر صراخاً في المدارج، والصحفيّ الرياضيّ. وختاماً، ممثّل الأربعينات والخمسينات الناجح والناطق بالأعمال باسم شركة جنرال الكتريك. ثم اقتحم حاكمية ولاية كاليفورنيا، وخطيب الحزب الجمهوري، وكاتب إفتتاحيات صحفيّة، وقد نال إعجاب الشعب الأميركي لأسباب عديدة غير ما ذكرنا. منها أنّه يجد لذّة خاصّة بتقطيعه الحطب لمدفأته وفي امتطاء حصانه، وأن يشاهد في منزله، على الفيديو، صورته في الأقطار الأميركية البعيدة. كما لا يجد غضاضة في التصريح بأنّه يكره ركوب الطائرة كالكثير من الشعب الأميركي، وأنه شغوف بأكل المعكرونة بالجبن، وبأنّه يروي الحكايات السخيفة التي لا معنى لها، ولا يمنع بأن تكون، بعض الأحيان، واقعيّة.

رونالد ريغن وصوت الطبل

يتمتع ريغن بصوت جهوري دافيء، له رنّة محببة وهو يعرف كيف يستعمله. فلكل حديث، بل لكل مقطع نغمة معينة وبهذا يتقرب من كل أنواع البشر، ولا سيما الطبقات الشعبيّة. فهو خجول مع الخجولين ومتصلّب مع المتصلبين ومتسلّط مع المتسلّطين. وقد عقد صلات الصداقة مع أصحاب السلطة والمراكز كذلك مع المثقفين الذين تعاقبوا تباعاً على المكتب البيضاوي الشهير. وقد استنبط أخصامه ومنافسوه سخرية يتناقلونها فيما بينهم وهي أنَّ صوته يشبه صوت الطبل، ربّما كان ذلك صحيحاً، بعض الشيء ولكن من القياس الكبير.

كذلك كان ريغن أكبر الرؤساء الأميركيين سنّاً. كان في التاسعة والستين وتسعة أشهر يوم انتخابه، في الرابع من تشرين الثاني سنة ١٩٨٠؛ وكان في الثالثة والسبعين وتسعة أشهر يوم أعيد انتخابه سنة ١٩٨٤.

منذ سنة ١٧٨٩، السنة الأولى من عهد الرئيس جورج واشنطن، تعاقب على سدّة الرئاسة الأميركية ٣٨ رجل دولة، قبل وصول ريغن إليها وتمركزه في البيت الأبيض طيلة ثمانية أعوام. وخمسة عشر من مجموعهم تمكن، مثل ريغن من إعادة انتخابه مرتين. أمّا السادس عشر والذي نال قصب السبق فهو الرئيس فرانكلين روزفلت، الذي انتخب أربع مرات متتالية. أقام منها اكثر بقليل من اثنتي عشر سنة في البيت الأبيض، وفارق الحياة وهو في الثالثة والستين من العمر. أما بقيّة الرؤساء الذين حكموا الولايات الأميركية المتحدة فكان سبعة منهم لم يصلوا بعد إلى سن الخمسين سنة، وثلاثة وعشرون لم يبلغوا الستين سنة؛ وسبعة أقل من خمسة وستين سنة؛ أمّا الجنرال وليام هاريسون، فكان في الثامنة والستين من عمره عند انتخابه سنة ١٨٤١، ولكنّه لم يتمتع طويلاً بهذا المركز، إذ عاجله الموت في الشهر التالي لاستلامه الحكم.

رونالد ريغن «العجوز»

احتلّ رونالد ريغن، البيت الأبيض، واسترخى في المكتب البيضاوي الشهير، في الرابع من تشرين الثاني سنة ١٩٨٠ وله من العمر تسعة وستون سنة وتسعة أشهر تماماً. وفي انتخابه للمرة الثانية سنة ١٩٨٤، كان قد بلغ، الثالثة والسبعين وتسعة أشهر، ممّا يعني، خصوصاً في نظر الشعب الأميركي، أنّه يوم انتخب للمرة الأولى، كان ريغن شيخاً، أمّا عندما انتخب للمرة الثانيّة، فقد أصبح شيخاً عجوزاً، عرفت معه الولايات الأميركية المتحدة، النظام السياسيّ، الذي عانت واشتكت منه بعض الشعوب، والذي كان موضع سخريّة وتهكّم الأميركين، وخصوصاً حكم الاتحاد السوفياتي. فقد كان له القسط الأوفر من النكات والأوصاف القبيحة. حتى الصحف

الأميركية لم تتورع عن نشر الصور الكاريكاتوريّة لرجالات الحكم في الاتحاد السوفياتي، أقلّها، «نيكيتا خروتشوف» بهيئة دب هرم، يدبّ متوكأً على عصاتين. وأقلّ ما قاله الأميركيون في هذا المجال: إنّ الشعب السوفياتي المسكين يرزح تحت حكم الشيوخ. هذا في البلاد ذات الأنظمة الجمهوريّة الديمقراطيّة. أمّا في البلاد الملكيّة، فعلى العكس تماماً، إذْ كلّما تقدم المليك بالعمر، زاد حبّه واحترامه من قبل الشعب، لإيمانهم بأنّ السنين تزيد الرجال حكمةً ورصانة، فتبعدهم عن الرعونة والتهور، فلا يزجّون ببلادهم وشعوبهم في ما لا تحمد عقباه، ولا تعرف نتائجه. وقد أعطى بعض المفكرين والكتّاب أمثالاً صارخة على ذلك لا تقبل الجدل، وأقربها تاريخاً، السعيدا الذكر، هتلر، وموسوليني. فعندما اغتصب هتلر الحكم في المانيا، سنة ١٩٣٣، كان في الرابعة والأربعين من عمره. أمّا زميله وحليفه موسوليني فكان في الثامنة والثلاثين، يوم نصّب نفسه دكتاتوراً على أيطاليا. ومن ثمّ زجّا العالم في أتون حرب ضروس، زلزلت الأرض وأحرقت شعوب العالم وخلّفت من الخراب والدمار ما لايعوّض، ولا يقدّر بثمن. كما أنّها حصدت أكثر من أربعين مليون قتيل. ومثلهم من المعاقين والمشوّهين ومئآت الملايين من البؤساء والمشرّدين: وكلّ ذلك دوّن في حساب الزعيمين الكبيرين. كما أنّ في التاريخ أمثالاً كثيرة، تثبت أنّ العنف، والظلم، والتصدي، لا يصدر إلّا من الرجال في مقتبل أعمارهم وأوْج رجولتهم وليس من الشيوخ والحكماء وأصحاب الرويّة والتبصّر. وأخيراً، فإنّ التاريخ لا ينسى الأمبراطور إيفان الرابع الذي لُقّب فيما بعد بالرهيب إذ جعل الرعب يسيطر على روسيّا وسائر أرجاء امبراطوريته الشاسعة وهو في الواحد والثلاثين من عمره.

لم ينفرد هتلر وموسوليني وإيفان الرهيب وغيرهم ممّن مرّ ذكرهم معنا، في إشعال الحروب، مقتحمين بلاد العالم، مدفوعين بشهواتهم الهستيريّة في التوسّع، والتسلّط على البلاد والشعوب، والإستئثار بخيراتها وإنجازاتها، غير آبهين بالخراب والدمار، اللذين يتسببون بهما، والبؤس والشقاء اللذين يخلّفونهما وراء جحافلهم ناهيك، عن ألوف القتلى والجرحى والمشرّدين، إن

في صفوفهم أو في صفوف البلاد التي يقتحمونها. فإنّ كتب التاريخ تضيق بذكرهم، وسرد نتائج غزواتهم وفتوحاتهم. وجميع هؤلاء القادة كانوا بين الثلاثينات والاربعينات من عمرهم.

ريغن وتاثير العمر على تصرفاته

في المقابل، ثمّة قاعدة ثابتة، لا تقبل الجدل، وتعنينا جميعاً دون أي استثناء ولا مهرب منها لأحد: «عندما يكبر الإنسان في العمر يضعف» فإنّ مرور السنين، وهروب الزمن، يُسْهِمَانِ اسهاماً سلبياً حتميًّا، على تركيبة الجسم البشري، إذ يتآكل هذا الجسم، وينال منه الوهن، بجميع أعضائه وأجهزته ومنها الدماغ. وهذه الظاهرة تصيب عظماء العالم، كما تصيب صعاليكه. فتصيب في من تصيبه، ممّن توصلوا إلى القناعة وابتلاع ما يردده على مسامعهم بعض الأطباء المراهنين الذين يحيطون بهم، ويلعقون من صحونهم، بأنّ رحيق العظمة يحصّنهم، ويغمسهم، كما يغمس الفولاذ، فيزيدهم قوّة وصلابة ويمنع عنهم الصدأ والتآكل «إذا صحّ التعبير».

إنّ تسلّم رونالد ريغن السلطة العليا، وبالتالي، زمام البلاد والعباد، وهو في خريف العمر، مخاطرة بحدّ ذاتها تتعرّض لها الولايات المتحدة، وإنّ الشعب الأميركي يشترك في المسؤوليّة والنتائج المحتملة من جرّاء الخلل السياسيّ والإداري، الناتج عن المتاعب الصحيّة التي يعاني منها الرئيس، خصوصاً إذا تفاقمت، وهذا، أمر طبيعيّ بالنسبة، إلى المسنين.

خلال الحملة الانتخابية التي أوصلت ريغن إلى البيت الأبيض للمرّة الأولى، سنة ١٩٨٠، لاحظ بعض المراقبين، الذين لا يؤخذون بالعاطفة، ولا يتأثرون، بهالة البطولة والتحدي، التي ينسجها جماعة ريغن من حوله، تصلّباً في رأيه وغطرسة في تصرفاته تجاه المنتخبين، عكس ما هو مفترض، في مثل هذا الظرف، من اللطف والليونة؛ وبعد أن ربح المعركة واستقرّ في البيت، ودون الرجوع إلى الملفات، ودراسة الوثائق، اقترف خطيئة لا تغتفر، إذ أنّها تمسّ مباشرة سياسة أميركا الخارجيّة، المتعلّقة، بالعلاقات الأميركية مع الصين

الشيوعيّة، والتي كان سلفه، الرئيس نيكسون، قد قام بجهود مضنية، وحوارات طويلة حتى رسّخ جذورها وأذاب الجليد المتراكم بين الدولتين منذ عشرات السنين. لقد اقترح ريغن، دونما سبب أو مناسبة، بصورة علنيّة، إعادة العلاقات، بأسرع ما يمكن، بين الولايات المتحدة، والصين الوطنية، ممّا جعل سلطات الصين الشيوعية تحتج بشدّة وغضب. وفي صباح اليوم التالي، بعد إطّلاعه على العناوين الكبيرة، في الصفحات الأولى من الجرائد، رجع إلى رشده، وفي محاولة يائسة لإصلاح ما أفسد، لم يجد من وسيلة، سوى توجيه اللّوم إلى الصحفيين والمعلّقين مدّعياً، بأنّهم أساءوا فهم وترجمة أقواله، وهذه التمثيليات شائعة الحصول في المجالات السياسيّة؛ لكنّ المستغرب أنّ ريغن وبين مساعديه الشاهدين على غلطه، رفض بشكل قاطع إمكان وقوعه في الخطأ. وليست هذه الحادثة، وحيدة من نوعها بل كانت تتكرر بشكل كثيف. وقد عزا بعض المراقبين هذه الحالة، إلى اختلال في المزاج، يصاب به المسنّون من وقت لآخر.

الشلّة الكاليفورنية المسنّة

«قديماً قيل: الناس على دين ملوكهم» ممّا لفت أنظار المراقبين، أنّ الفريق المحيط بالرئيس ريغن، والذي سميّ في حينه «بالشلّة الكاليفورنية» وكان قد لحق به إلى البيت الأبيض، يتألف في أكثريته، من رجال مسنين يجايلون رئيسهم. فوليام كيسي، المحامي النيويوركي الثريّ، الذي يعتبره ريغن «أخاه في السلاح» رغم أنّه لا ينتمي إلى «العائلة الغربية» كان في السابعة والستين من عمره، عندما قاد المعركة الانتخابية الرئاسية «بفعالية» لمصلحة ريغن. ثم اعتنق بشكل تام أفكاره، وتبنّى طريقته في كل ما يتعلق بالدفاع، والأمن القومي والاقتصاد. وعلى سبيل المكافأة، أسند إليه ريغن، مديرية وكالة الاستخبارات الأميركية C.I.A. وبهذا، أصبح من أقوى رجالات الولايات المتحدة، ممّا سمح له باستعماله لهذه المؤسسة الهائلة على هواه، أن ينتهج سياسة خارجيّة خاصّة به. ومن طريف الصدف أنّ كاسي يعاني كرئيسه

نفس الهموم والمصاعب الصحيّة. فقد أصيب الإثنان في نفس الوقت بالسرطان، أصيب ريغن اولاً بسرطان بسيط في البروستات، أمّا كاسي فكانت إصابته أخطر، إذ أصيب بتورم سرطاني في الدماغ. ولا بدّ لهذا الخبيث، في نموه وتمدّده الصامت، من أن يولّد لدى المريض همّاً وغمّاً وشعوراً بالإحباط، ممّا يؤثر سلباً على تصرفاته وقراراته، دون أدنى شك.

إنّ معركة ريغن الانتخابيّة الأُولى، ولّدت ردات فعل معتدلة ومختلفة، باختلاف الفئآت والمصالح. فالموظفون أعلنوا العداوة علناً، إذ أنّ ريغن، كان قد أعلنَ في برنامجه الانتخابي، تخفيض مصاريف الدولة بنسبة كبيرة، ممّا يعني الاستغناء عن خدمات الألوف من الموظفين. أمّا تصريحاته باعتماد الليبراليّة التامة والغير المشروطة لكل ما يتعلّق بالاقتصاد والاستثمار، فقد ولّدت شعوراً بالحذر. لكنّ الشعور بالراحة والسعادة، قد عَمّ الأكثرية الساحقة من الشعب الأميركي، عندما أعلن عن تعهده بتخفيض الضرائب عن كاهل الشعب، وخصوصاً الطبقات المتوسطة وما دونها، والسير على خطى الرئيس الأسبق فرنكلين روزفلت، وإجراء تغيير جذريّ في الحكم. وكثيراً ما كان يردّد في خطبه صفة كان قد اعتنقها وسيطرت عليه حتى الوسواس: «العائلة، العمل، الحرية، السلام، احترام القريب» ممّا أثار سخرية الديمقراطيين. إلا أنّها أعطت ثمارها، وفاز ريغن في الإنتخابات.

عظمة الاحتفال بتنصيب ريغن

خلافاً للبساطة والوضاعة للحفل الذي تمّ به تنصيب الرئيس جيمي كارتر، فإنّ افتتاح عهد ريغن، كان الأضخم والأبهى، والأكثر كلفة، في التاريخ الأميركي في هذا المجال، إذ دعي إليه، كل من هبّ ودبّ من المغنين والفرق الموسيقية، كما ضمّ، رجال السياسة، والمال والأعمال وحشداً ضخماً من الملوك والرؤساء، مما حوّله إلى عيد كبير.

لكن البهرجة والسخاء تحوّلا إلى جوّ من الذهول والوجوم، إثر حادث مريع، وذلك بعد أسابيع قليلة من حفل التنصيب، تعرّض له الرئيس كاد

يودي بحياته، وكان له تأثيرٌ سيّئ على الهالة التي أحيط بها العهد والرئيس الجديد. وفي ما يلي تفصيل الحادث، كما رواه «دنيز ماك أرثي» أحد الحرس الملحقين بالبيت الأبيض: في يوم الاثنين الواقع في الثلاثين من آذار سنة ١٩٨١، ولدى خروجه من «الهيلتون» في واشنطن، بعد إلقائه إحدى خطبه الطّنانة، وفيما هو يحي الجماهير الغفيرة المتراصة على الأرصفة وقد تهيّأ للصعود، إلى سيارة الكاديلاك الليموزين، المصفّحة، المتوقّفة بالقرب من المدخل، والتي، خلافاً للعادة، تفتح أبوابها إلى الخلف، وهي فريدة من نوعها بين سيّارات الرئاسة، وهذه الخاصّة الفريدة، باعتقاد، المحققين، هي التي أنقذت حياة الرئيس عندما أطلق باتجاهه أحد المهووسين، خلال ثلاث ثوانٍ ستة عيارات ناريّة أصابته إحداها بصدره إصابة طفيفة، قبل أن يقذف به أحد الحرّاس إلى داخل السيارة، فارتطمت بقية القذائف بأبواب السيارة التي كانت بمثابة درع واقية، بعد أن حصدت إحداها جيمس برادي، المتكلم الرسمي باسم البيت الأبيض وقد أصيب إصابة مباشرة في رأسه.

عندما انتهره «ماك آرثي» لم يبدِ القاتل، أيّ مقاومة أو محاولة للهرب. إذْ ألقى بسلاحه إلى الأرض بهدوء كما طلب منه، وارتسمت على محيّاه ابتسامة بلهاء. فألقي القبض عليه ببساطة مستسلماً كشاة قرعاء، وسيق إلى التحقيق. فإذا به شاب في مقتبل العمر، يتمتع بصحّة جيّدة حسن الهندام، جميل الصورة يضع نظّارات طبية، يتّسم وجهة بالطيبة والبراءة، ويدعى «جوّن هانكلي». وقد أصيب المحققون بالدهشة والحيرة، إذ أن سجلّه العدلي نظيف لا يحتوي على أيّة سابقة أو جنحة، ولم يسبق له أن اعتقل أو حُقّق معه. كما أنّ اسمه غير مدرج في لوائح الشرطة، التي تحتوي على أربعين ألف من المهووسين والمصابين بالانفصام، ومختلف أنواع الأمراض النفسية، الذين ربّما شكّلوا خطراً على سلامة الآخرين الموضوعين تحت المراقبة المكثّفة، من قبل مختلف الدوائر الأمنية بسبب ميولهم العدائيّة والاجراميّة. وعندما أُخضع للفحوصات الدقيقة، تبيّن أن «هانكلي» هذا مثالٌ صارخٌ لعدم الاتزان. وبفعلته هذه دخل هذا العالم «عالم الإجرام» من أوسع الأبواب وأعلاها.

ولدى سؤاله عن الأسباب التي دفعته إلى إغتيال الرئيس، أفاد ببساطة وصراحة، أنّه أقدم على جريمته، تقليداً لبطل فيلم، «سائق التكسي» للممثّل «مارتن سكورسس» الذي عُرض سنة ١٩٧٦، وقد وقع اختيار الرئيس، بالذات هدفاً له، ليضمن لنفسه التفوّق في البطولة على ما قام به الممثّل في عمله السينمائيّ، وبهذا يحظى بالممثّلة الجميلة «جودي فوستر».

بعد إخضاع جون هانكلي، لفحوصات دقيقة مكثّفة والتأكد من حالته المرضيّة العقليّة المتقدمة، واعتباره من أخطر المصابين عقلياً، زجّ به، حيث يجب أن يكون منذ أمد بعيد: في مستشفى القديسة أليزابت، بواشنطن، حيث لم يجد لنفسه، سلوى يمضي بها أوقاته، سوى مكاتبة أمثاله، من المختلين المجرمين، بمثابرة وإلحاح تلفت الأنظار. ومن هؤلاء «شارل مانسن» الذي قتل الممثلة الشهيرة «شارون تات» وستة أشخاص غيرها. كذلك وجّه العديد من الرسائل، إلى «لينيت فروم» الذي حاول اغتيال الرئيس «جيرالد فورد» سنة ١٩٧٥. ولم يفوته مكاتبة، المجرم الشهير «تيودور بوندي» الذي نال قصب السبق في عدد الضحايا إذ حَفِلَ سجلّه بستة وثلاثين جريمة قتل (فقط لا غير) في فلوريدا.

أمّا من جهة «جيمس برادي» الناطق باسم البيت الأبيض والذي أصيب يوم محاولة قتل الرئيس ريغن، فقد بقي معاقاً، مدى الحياة بالرغم من العناية الفائقة التي بذلها أشهر الاخصائيين والجرّاحين الذين احتشدوا حوله، ولم يتمكن من استعادة قواه الجسديّة والعقليّة إذ كان قد أُصيب بجرح بليغ في رئته اليسرى ونزيف داخلي غزير في القفص الصدريّ، كما أنّ رئيسه ريغن يحمل أثر جرح كبير في صدره، ممّا يشكل ذكرى أليمة لا تُنسى لذلك الحادث الأليم، الذي يشهد ببراعة الجرّاحين الأميركيين وتدخّلهم الفعّال.

عندما تماثل ريغن سريعاً للشفاء، وأثناء نقاهته تلقّى عشرات الآلاف من البرقيّات، ومئآت ألوف الرسائل تستنكر الاعتداء وتتمنى له الشفاء العاجل، ممّا يدل على تعاظم شعبيّته وتعلّق الجماهير بشخصه إثر الحادث، والجدير بالذكر أنّ ذلك انعكس إيجابيّاً على الاقتصاد الأميركي بشكل مدهش،

ممّا جعل الدولار يقفز قفزات كبيرة في أسواق البورصة العالميّة، وقد كافأ الأميركيون رئيسهم على طريقتهم، فزعموا، أنهّ يتمتع «بالبركة» والفال الحسن.

رغم نجاته وريغن، يحمل آثارها النفسيّة:

من المعروف جيّداً، والمتفق عليه بين الأطباء، وعلماء النفس أنهّ، ولو نجا الإنسان من حادث مريع، كمحاولة اغتيال أو سقوط طائرة، أو بعد احتجازه كرهينة، فمن المستحيل أن يخرج كما كان تماماً قبل تعرّضه لتجربة كهذه، كما لا يمكن أحدٌ أن يدخل إلى المطحنة دون أن يعلق بثيابه بعض الغبار، هكذا لا بدّ أن يحمل من ينجو من حادث مريع، آثاره طويلاً مهما حاول تناسيه، ومن المؤكّد أنّه يحتاج لمساعدة نفسية ولمدّة طويلة لكي يتمكّن من تخطي هواجسه واستعادة توازنه وإعطاء معنى لحياته والرصانة لتصرفاته، علماً، بأنّه لم ينل أحد الرؤساء ممن مرّوا في تجارب مماثلة، أيّة مساعدة، وأنّها غير معروفة في أوروبا. فتأكيداً لهذا المبدأ المعروف؛ صرّح رجل الأمن الذي ساهم بفعاليّة، في نجاة ريغن من محاولة الاغتيال التي تعرّض لها، «دنيز ماك كارثي» قائلاً بأنّ ريغن ومنذ تاريخ محاولة اغتياله أمام فندق «الهيلتون» سنة ١٩٨١ حتى نهاية أيّامه في البيت الأبيض، لم يجرؤ على القيام بخطوة واحدة في الشارع بحريّة كسابق عهده. وتحوّل فجأة، وخلال سَبع سنوات، إلى شخص يستحيل الوصول إليه، ولم يعد يشاهد إطلاقاً في واشنطن أو على مقربة من الاستراحات الرئاسيّة العديدة، إلاّ على شاشات التلفزيون، أو خلال تنقلاته الرسميّة، محمياً بحائط من مئات الأجسام البشرية تحجبه حتى عن الأنظار، وقد توصّل به الحذر والحيطة إلى ارتداء معطف مدرّع في أكثر الأحيان، ممّا يعني أنّه ما زال متأثراً بالحادث الذي تعرّض له رغم أنّه يبذل جهداً للتظاهر بعدم المبالاة كما أنّه أصبح أكثر رؤساء العالم إصغاءً، إلى جهاز أمنه، ناهيك عن زوجته نانسي، التي لم يعد لها من مطلب، سوى زيادة جهاز حمايته.

رونالد ريغن يمرض منذ السنة الأولى من عهده:

إنّ النشرات الطبيّة الدورية، الصادرة عن البيت الأبيض، التي كانت تعلن أنّ الرئيس يتمتّع بصحة ممتازة وهو في أحسن حالاته، كانت من وقت لآخر مزوّرة، تخفي عن الشعب الأميركي بعض الحقائق ممّا يكون قد أصيب أو ما هو مصاب به ساعة نشر البلاغ، الذي ينوّه، بسلامة وحيويّة الرئيس، وبالحقيقة كانت إصابات بسيطه يصاب بها، من وقت إلى آخر كل من تجاوز سناً معينّة.

لكنّه سنة ١٩٨٢، أصيب بالتهاب حادّ في المجاري البوليّة، ممّا استدعى دخوله إلى المستشفى، ولم يكن من الممكن إخفاء ذلك، وقد عولج حينئذ بالمضادّات الحيويّة، فخفّت حدّته لبعض الوقت، ثم عاد إلى حدّته، فتكثّفت المعالجة، حتى شفي الرئيس تماماً، بعدئذ أجريت له فحوصات متقدمة مخبرية، وإشعاعيّة، فتأكّد للفريق الطبيّ المعالج، سلامة الكليتين، والمبولة، ومن ثمّ، بعد برهة من الزمن، ليست بطويلة، أصيب ريغن، بحساسية مزعجة مقلقة للراحة، ممّا فرض استعمال مواد مضادّة للتحسس وتعاطيه عيارات قويّة بصورة شبه دائمة، مسبّبة للنعاس، ممّا يفسر إغفاءَه الغير المنتظر والمتكرر، حيثما كان وفي أيّ وقت من الأوقات، ليلاً أو نهاراً، وخصوصاً، أثناء المناقشات التي تجرى بينه وبين عدد قليل من كبار رجالات إدارته، كما أنّه في وقت لاحق، فقد حاسة السمع، أو على الأقل، بنسبة كبيرة، ممّا كان يزعجه ويعكّر مزاجه. هذا، إلى جانب العديد من المشاكل والعوارض الصحيّة، التي تعزى عادة إلى التقدم في العمر.

وفي أوائل الربيع سنة ١٩٨٤، لم يلفت أنظار أحد من الناس دخول السيد نيل ريغن، وهو الشقيق الأكبر بسنتين للرئيس رونالد ريغن، والبالغ خمسة وسبعون سنة، في حينه؛ في الواقع، لم تكن مدة إستشفائه طويلة، إذ كان يشكو من بعض الآلام والإزعاجات في أمعائه، ولدى إجراء الفحوصات اللاّزمة، تبينّ للأطباء وجود العديد من البؤر الصغيرة، التي على وشك

التحوّل إلى تقرّحات هذا، ما عدا واحدة منها كانت، فعلاً، قد تحوّلت إلى خلايا سرطانية خبيثة متقدمة، وفي هذه الحالة، كان لا بدّ من إستئصال النصف الأيمن من المصران الغليظ، ولّما كان شقيقاً للرئيس، فقد نال الكثير من العناية والانتباه، ولّما كان هذا المرض يعتبر خطيراً جدّاً فقد أجريت حوله دراسات عميقة، فاعتبره العديد من أطباء الأمراض الداخلية، إلى جانب علماء الأمراض السرطانية، «مرضاً عائلياً» يصيب العديد من أفراد العائلة الواحدة، ممّا أيقظ الحذر عند الرئيس والمحيطين به، وفي هذا المجال ما يدعو إلى الشك والتساؤل، لماذا؟ في الثامن عشر من أيار سنة ١٩٨٤ : أعلن رسميّاً من البيت الأبيض للشعب الأميركي، بأنّ الرئيس رونالد ريغن، قد أجرى الفحوصات الصحيّة السنويّة المعتادة «فوجد متمتّعاً بصحّة جسديّة ممتازة، وفريدة من نوعها» كذبة معلّبة برمّتها!

وممّا يثبت بالفعل، أنّها، كذبة، سرعان ما افتضح أمرها، أنَّ في نفس الشهر، أيار، وعوضاً عن القيام بالجولة التفقديّة لأرجاء البلاد والولايات الأميركية، التي كان قد أعلن عنها مسبقاً، فقد كانت جولته قصيرة جدّاً، إذ أنّها لم تتعدَّ المستشفى العسكري حيث أخضع لعمليّة جراحية، قيل عنها في حينه أنّها بسيطة، ولكنّها في الحقيقة كانت نفس الجراحة التي أجريت لشقيقه، من قبله بمدّة قصيرة، فاستئصل للرئيس، ورم بقطر أربع ميليمترات، متواجد في الطرف السفلي من المصران الغليظ ممّا لفت الأنظار إلى حالة الرئيس فاستدعى إجراء ما يلزم من الفحوصات الجديّة ومن ثمّ إجراء الجراحة، وجود بعض الدماء في خروجه.

بعد خمسة عشر شهراً من ذلك... كنّا نعرف في حينه عن وجود عارضين بسيطين، لكنّ النزف الدموي الصغير كان قد توقف، وهذا ما أدهش الأطباء. أمّا، بالنسبة لي، فأعتقد بأنّ سببه حساسية خارجية، «وأنتم تفهمون ما أعني» وهنا كان يوحي لهم بأنّ الأمر يتعلّق (بالبواسير) وعلى كل، ومهما كان الأمر، فقد استأصلوا ورماً صغيراً جدّاً، واستدرج قائلاً: وقد ثبت أنّه سليم جدّاً بعد فحصه الميكروسوكبي. أمّا الأمر الثاني فهي جراحة

صغيرة لا معنى لها. كل ما قاله ريغن، لا يتعدى كونه نوعاً من التمويه الساذج. هذا على الأقل بنظر العارفين بخفايا الأمور إذ، أن يخلط الرئيس بين نزيف البواسير المعروف بآلامه، ومشوحات دموية خفيفة في الخروج، أمر لا يصدّق، فمن الممكن أن يكون الأطباء، قد نصحوه بنظام غذائي معيّن، وذلك، لإبعاد أي إمكانية للوقوع في خطأ ترجمة الفحوصات المخبرية المزمعين على إجرائها. أمّا اعترافه باستئصال ورم صغير واحد وترك الثاني للتأكد من نوعيته بعد الفحص، خصوصاً بعد أن استئصل لأخيه، وقبله ببضعة أيام ورماً مماثلاً تبيّن بأنّه سرطاني خبيث، فهذا الأمر، لا يعقل، وبعيد عن التصديق. إذ من المعروف والمفروض أن يُستأصل الجرّاح كل ما يراه ويشك بأمره، بعد أن يفتح جوف المريض وذلك على سبيل الوقاية وإستباق تفاقم الأمور، وخصوصاً إذا كان تورّماً، وبناء على الوقائع المتعلّقة بريغن.

وفي هذا المجال، صرّح أحد علماء التنظير الباطني النيويوركيين، المطّلعين على الحقيقة، مؤكّداً، بأنّ فحصاً راديوغرافياً قد أُجري لريغن وبأنّه من غير المعقول، أن يغيب عن الأنظار، ورمٌ موجودٌ في الأمعاء ومنذ أمد بعيد وتساءل قائلاً: ألم تُجْرَ له عمليّة جراحيّة خلال تموز سنة ١٩٨٥؟

من المؤكد أنّ ريغن قد أصدر أمره بالتزام الصمت وتأخير إجراء العملية وبالتأكيد بعد استشارة وتقدير العديد من الأخصائيين، إذ يترتب على هذا التأخير ترتيب أمور خطيرة ومهمة جدّاً بالنسبة للرئيس، ولم يكن أمامه خيارٌ ثانٍ، حتى لو كان في هذا التأخير خطر على حياته إذ ربمّا كان إعلان الأمر، وأجراء العمليّة في حينه يسبّب فشله في الانتخابات لولايته الثانية.

لإتمام هذه الرواية، كان لا بدّ من طبيب، له من الشجاعة ما يكفي لموافقة الرئيس على تأخير العلاج إلى ما بعد اجراء الانتخابات الرئاسية التي كان يحضّرها لولايته الثانية، كما كان على هذا إقناع زملائه، متحملاً وحده المسؤوليّة، فلم يكن سوى الدكتور «دانيال روج» صديق العائلة وطبيب الرئيس الخاص، الذي اختارته السيدة نانسي.

علاقة الزوجين المميزة:

تجمع بين رونالد ونانسي علاقة، لا بل تعلّقاً مميّزاً ومؤثّراً، إذ كانت نانسي لا تدعوه سوى حبيبي «روني». أمّا هي فكانت بالنسبة له أمّه العزيزة، كما أنّ العطف والحنان الذي يجمعهما منذ سنة ١٩٥٢، لم يفتر إطلاقاً، وما زال الرئيس يردّد قائلاً: إنّ الزواج هو غرفة دافئة جدّاً، يدخلها الإنسان عندما يشعر ببرد قارس. كما أنّه لا يتورّع عن التصريح، بأنّه يشعر بالهلع والقلق عندما لا تكون نانسي إلى جانبه! فهي محور حياته. ومن جهتها تقول نانسي، : «إن حياتي لم تبدأ فعلاً، إلّا بعد لقائه». وليس من المهم بالنسبة إليهما، فتور علاقتهما بولديهما باتريسيا ورونالد جونير (الصغير) اللذين يعيشان حياة غير مستقرة وينعتان والديهما «بالبرودة والمحاسبه» وممّا لا شك به أنّ المركز المرموق الذي يتبوأه رونالد، والامتيازات التي يحصلان عليها رسّخت علاقة الزوجين. وقد حصّنت المصاعب الجسديّة التي أصيب بها الرئيس هذه العلاقه، فهي تسهر عليه بيقظة وحنان كما يسهر الذئب على صغاره. وهذه المخلوقة الهشة النحيلة، تتحول إلى لبوة كاسرة، لا تتورع عن شيء إذا شعرت بأنّ ثمّة خطر يحيق بحبيبها. وبشهادة الكثيرين فإنّ الرئيس يتصرف بليونة وإنكسار عندما تكون نانسي إلى جانبه ويترك لها مهمة الصدّ والتحدي. وهذا ما يجهله الرأي العام الأميركي! فهي التي تعيد نفخه عند اللزوم. وقد لاحظ الصحفيّون وفي مناسبات عديدة أنّها كانت تسر إليه بالجواب المناسب، إذا لاحظت إرتباكه في مواجهة سؤال محرج. من البديهي، أن تجعل من نفسها المرجع المسؤول عن سلامته وصحته، فهي التي تختار الأطباء وتباحث في العلاج، وتعوّل كثيراً على قيافته ومظهره فتنتقي ألبسته وتولي عناية فائقة عقدة الرقبة والحذاء. إذ كثيراً ما ردّدت أن الحذاء الجيّد وربطة الرقبة الجميلة تنمّ عن شخصية الرجل وأهميّته.

منذ بعض الوقت، أسندت مراقبة صحّة الزعماء إلى أطباء عسكريين، وذلك بناءً على طلب الكونغرس، حيث أعادوا إلى الذاكرة، موت الرئيس فرانكلين روزفلت وهو في الحكم. كما عدّد بعض الأعضاء المشاكل التي

حدثت من جرّاء مرض بعض الرؤساء أو موتهم؛ كما أنّ الأطباء العسكريين عادة لا يتأثرون كغيرهم بمن يحيط بالرئيس من أهل وأصدقاء، ويسايرونهم في إخفاء أو تخفيف خطورة الإصابة أو العلّة، إنّما يرفعون تقاريرهم إلى لجنة مراقبة عليا، يشرحون فيها حالة الرئيس الحاكم دون محاباة أو تستّر.

أمّا بالنسبة إلى الرئيسة السيّدة نانسي، فلم تأبه لهذا الأمر، ولم تتقيّد به ولو لمرّة واحدة. فكانت تستدعي إلى البيت الأبيض، طبيباً مدنيّاً عند الحاجة، شرط أن يكون من الذين يدورون في فلك عمّها زوج أمها الدكتور «لويال ديفيس». وهو جرّاح كبير، واسع الثراء، من شيكاغو كان قد تزوج من أمّها «المهجورة من زوجها الأول» في اليوم التالي لولادة نانسي، فتربّت في كنفه محاطة بعطفه وحنانه جنباً إلى جنب مع ابنه ريشار، وهو أيضاً من زواج سابق. ومن هنا كانت على علاقة وديّة مع العديد من زملاء عمّها، وتلامذته ومعاونيه الذين أصبح بعضهم من مشاهير أطباء الولايات المتحدة. وفي سنة ١٩٨١ اختارت نانسي من بينهم الدكتور «دانيال روج» وهو جرّاح أعصاب واسع الصيت، عريض الشهرة.

كلّ الدلائل، تشير بوضوح، وتحمل على الاعتقاد بأنّ الدكتور «روج» على تفاهم ممتاز مع الرئيس ريغن. وممّا يشهد على ذلك تصرفاته في البيت الأبيض وتنقلاته العلنيّة مع الرئيس؛ فهو لا يلتزم حدود مهمتّه الطبيّة التي تقضي بمراقبته، والسهر على صحّة الزعيم الكبير. فهو بتأثير السيّدة النشيطه نانسي يراقب بانتباه شديد، تصرفات الرئيس وقراراته. ولكن اهتمامه كان ينصبّ على تغطية الرئيس، أكثر منه، على مصلحة البلاد.

كان الدكتور «روج» على علم، منذ أمد بعيد، أنّ ريغن مقتنع تماماً، بانتزاع ولاية ثانية، وبالتالي ترشيح نفسه لانتخابات تشرين الثاني سنة ١٩٨٤. ولهذا السبب، لم يكن على عجلة من أمره في أيار تلك السنة، عندما اكتشف ما يعاني منه الرئيس في احشائه، بل على العكس، لم يكتفِ بالسكوت، بل بذل جهداً كبيراً لإقناع زملائه الأطباء بتجاهل الأمر، والتزام الصمت المطبق، والانتظار حتى مطلع السنة التالية (١٩٨٥). ممّا يعني انتظار نتائج

الانتخابات، وعملية التسلّم الرسميّة وبهذا يكون كلّ شيء قد انتهى، ولم يعد أيّ مجال للازعاج في ما يتعلّق بصحّة الرئيس، ومعالجة امعائه. وبانتظار ذلك شدّدت الرقابة الصحيّة في البيت الأبيض، ولكن بشكل سريّ جدّاً. إذ أنّ أيّ إشاعة تتعلق باحتمال وجود مصاعب في أحشاء الرئيس المرشّح، فكيف لو أعلن صراحة باكتشاف ورم خبيث؟ فلو حصل ذلك لتبخرت بسرعة، أحلام البيت الأبيض، بالتالي أحلام نانسي وزوجها والبطانة.

وفي هذا المجال أوضح المؤرخون أنّ، نصائح وتوصيات أهم وأشهر الأخصائيين، الذين يدعون لمعاينة الرئيس، غير ملزمة، وليس لها أيّ تأثير على قرارات طبيب الرئيس الخاص. خصوصاً، إذا كان هذا الطبيب، مقتنعاً بأنّ عمله هذا للمحافظة على إتمام ونجاح مهمة سياسيّة لمصلحة البلد. وقد جرى ذلك للعديد من الرؤساء الأميركيين، وبقي ذلك سرّاً مغلقاً ضمن مخادعهم: فالرئيس ويلسون، أصيب بفالج نصفي، أمّا الرئيس هاردنغ، فقد أصيب بذبحة قلبية كما أنّ روزفلت أصيب بانسداد جزئيّ بالوريد الدماغيّ. وكندي كان يخفي ما يدعى بمرض أديسون. وقد استئصلت له بعض الخلايا السرطانية من حباله الصوتية. وللتمويه تمّ ذلك، في الوقت نفسه، الذي أجريت له عملية بسيطة في المرارة، كان قد أعلن عن موعد إجرائها مسبقاً.

•

على مدى المعركة الانتخابيّة الرئاسيّة سنة ١٩٨٤، والمواجهة الشرسة بين الرئيس ريغن، وخصمه الديمقراطي العنيد «ولتر مانديل»، الذي يبلغ الستة والخمسين من العمر، لم يتمكن ريغن على الرغم من مساعدة الدكتور «روج» له، من إخفاء تعبه، عن عيون الشعب الأميركي، وكان هذا التعب الشديد، بنظر الجميع، يعود إلى تقدمه بالعمر والشيخوخة إذ أنّه قد أكمل الثالثة والسبعين، وكان الدكتور روج والعديد من الأطباء يدركون أنّ القلق والهمّ باتا يسيطران على العجوز الرابح.

فخلال المواجهة الأولى المتلفزة، بين الخصمين التي جرت خلال تشرين الأول، خيّب ريغن آمال مؤيديه، وأفزعهم بما بدا عليه من انحطاط في الهمّة والنشاط، وفي بعض اللحظات كان يبدو زائغ البصر فارغ النظرات، عدا عن

الأخاديد العميقه التي تكسو وجهه المترهل. وكانت محاضرته، مبهمة خالية من الحماس والمثالية، اذْ خلط في تقويم الانجازات وأرقامها مكرّراً الكلام. ومن حسن حظه لم تدم لأكثر من ساعه ونصف، كانت بالنسبة لريغن عذاباً أليماً. كما أنّ خصمه مونديل، لم يكن أحسن حالاً منه إذ إنّه من النوع المسحوق، الذي يخسر المعركة سلفاً قبل بدايتها. وهكذا غرق.

لدى سؤال مونديل، عن سير وقائع المواجهة مع ريغن أجاب بما أيّده فيه العديد من علماء النفس: «لم يزعجني ريغن بجهله لبعض الأمور؛ لكن ما أزعجني وأثار سخطي أنّه على استعداد للتأكيد على ما يدَّعي معرفته رغم عدم صحته». إلى جانب ذلك، فقد لاحظ علماء النفس فقدان الذاكرة عند ريغن واختلاط الأمر عليه فيما يتعلّق بالتواريخ والأرقام. وبالنسبة لهؤلاء العلماء، فإنّ ذلك من علامات الكبر والشيخوخة.

خلال المبارزة العلنيّة الثانية بين المرشحين، التي جرت بعد عشرة أيّام من الأولى، استعاد ريغن بعض ملاطفة الشعب الأميركي له، إذ قال لمونديل وابتسامة ساخرة تعلو شفتيه: «يتكلمون كثيراً عن أعمارنا لذلك، عليّ أن أطمئنك وأعدك بأنّني لن أستغلّ حداثتك وعدم خبرتك فأحرجك أمام الجماهير بأمور سياسيّة تجهلها ولم يسبق لك فيها أيّة تجربة لا من قريب ولا من بعيد». ممّا جعل مؤيديه ينفجرون من الضحك.

أمّا الدكتور «روج»، فقد أصبح موضع انتقاد وملامة الكثيرين من خبراء السياسة وحتى زملائه الأطباء. وتحت هذا الضغط الكثيف، ترك «روج» ريغن وغادر البيت الأبيض في أوائل ١٩٨٥ ممّا جعل «نانسي» تستدعي أخصائيّاً بالمجاري البولية، على وشك التقاعد، وهو الدكتور «ت. بورتون سميث» الذي كان قد عالج زوجها، يوم كان حاكماً لولاية كاليفورنيا. فأصبح على عاتق الطبيب الجديد التقرير واعتماد التاريخ لإجراء جراحة الكولون، التي أصبحت ملحّة، قبل أن تنتقل الخلايا الخبيثه إلى أماكن أخرى من جسم الرئيس. وقد اختير لإجراء الجراحة، فريق الدكتور «روزنبرج» في الثالث عشر من تموز ١٩٨٥ . وقد أجريت العملية، في

مستشفى «بتسدا» التابع للبحريّة الأميركيّة، القريبة من واشنطن.

وقبل المباشرة بالعمليّة كان لا بدّ من القيام بالتحضيرات الضرورية التي تقتضي إفراغ الكولون وتعقيمه وحقنه بالمضادات الحيويّة. وذلك على سبيل الوقاية المبدئية، خوفاً من التلويث. ولدى وصولهم إلى الورم، وجدوا أنّه قد تمدد وأصبح بطول سبعة سنتمترات ومن الدرجة. ب. أي الدرجة الثانية حسب تقويم الدكتور كيلبرت ديوك، رئيس مستشفى الأمراض السرطانيّة في لندن. وقد طالت العمليّة لمدّة أربع ساعات كاملة استئصل خلالها عدا عن الورم المطلوب، والكولون اليمني كلّه وستين سنتمتراً من الأمعاء الغليظه.

وفيما بعد، أكّد كبير الأطباء، أنّ الخلايا السرطانية لم تطاول الأنسجة القريبة من الإصابه. وأنّ الكبد والرئتين نظيفة وبعيدة عن أيّ شبهات.

لكن مراقبة ضحايا السرطان واجب مبدئيّ وأساسيّ. ولا يسمح بالتهاون والإهمال. ولم يتأخر الوقت طويلاً، حتى سمعنا أنّ الرئيس ريغن، الذي عانى من تدخل جراحي طويل وخطر تعينّ عليه الدخول إلى المستشفى مرتين متتاليتين. ولكن لمدد قصيرة: الأولى في ٣٠ تموز ١٩٨٥، والثانية في العاشر من تشرين الأول، إذ اكتشفت لديه خلايا سرطانية على أنفه، فاقتلعت بسرعه وقد عُزي ذلك، إلى كثرة تعرّضه للشمس، مما أستُدعى منعه عن ذلك نهائيّاً.

ريغن تحت المراقبة الصحيّة:

بعد أن كان على الرئيس ريغن أن يخضع لثلاث جراحات لاستئصال أورام سرطانية خبيثة وجدت في أماكن مختلفه من جسده، وضع تحت الرقابة الصحيّة الدائمة. واستدعي اجراء فحوصات دقيقة مرّة كل ستة أشهر على الأقل. وقد أجري له هذا الفحص للمرة الأولى في السادس عشر من كانون الثاني ١٩٨٦ . فاكتشف لديه، ثلاثة أورام سرطانية في الأمعاء. فاقتلعت فوراً. والفحص الثاني أجري في أيار سنة ١٩٨٦ . فاكتشف له كما في المرّة

الأولى ورمين خبيثين، استئصلا بسرعة. من هنا يبدو جليّاً، أنّ الأورام السرطانيّة في الامعاء، تبقى الهم الأكبر، والشغل الشاغل عند الناجين من الإصابة الأولى كأنّه، سيف القدر المسلّط على أعناقهم.

بعد برهة من الزمن، سرت إشاعة مفادها أنّ حرباً غير معلنة، وعرض عضلات، بدأت فصوله بين الكونغرس والزوجين الرئاسيين فيما يتعلّق بطبيب ريغن الشخصيّ الجديد، وأنَّ الطبيب الجديد، المقرّب جدّاً من الرئيس يطمس المعلومات، ويخفي الحقائق المتعلّقه بصحته، كما فعل سلفه الدكتور «روج». وعندها، لم يتردد الدكتور «بورتون سميث» فتحدى، بشكل علني، الكونغرس، وهي السلطة العليا في البلاد، وقد دامت هذه المواجهة ردحاً غير قصير من الزمن وجد الطبيب نفسه في نهايتها، مجبراً، على إخلاء الساحة في شتاء ١٩٨٦ مدعيّاً «انقاذا لماء الوجه» بأنّ ثمّة أموراً عائلية مهمّة، تستدعيه، فولّى الأدبار، عائداً إلى كاليفورنيا.

بالعودة إلى السيدة نانسي، وقد قلّمت أظافرها، كظمت غيظها، وابتلعت هزيمتها، مستسلمة للقاعدة التي تقضي بانتداب الطبيب من قبل الكونغرس وإلحاقه بخدمة الرئيس. فوقع الاختيار، على الطبيب، الكولونيل «جون. ا. هوتون ج. ر» في السادسة والخمسين من العمر. وهو جرّاح مجرّب، اختير من بين نخبة الأطباء العسكريين ولم يكد يلتحق بوظيفته الجديدة، حتى أخضع الرئيس للفحص الروتيني الشامل المعتاد، في مستشفى «بتسدا» حيث اكتشف أربعة أورام جديده في أحشاء ريغن. وعند الانتهاء من اقتلاعها، أجريت له عمليّة جراحيّة في البروستات، وذلك استناداً إلى فحوصات تعود إلى شهر آب ١٩٨٦ . وقد تمّ ذلك في الرابع من كانون الثاني ١٩٨٧ . وهذا النوع من الأورام التي بأكثرها غير خبيثه، تنمو، وتتضخّم عند المسنين، وتعرقل عملية البول، ممّا يقتضي استعمال مشرط الجرّاح.

نانسي تستنجد بشقيقها:

بعد أن استقال الدكتور سميث، أو عمليّا، أجبر على الاستقالة، وجدت الأميركية الأولى، نانسي ريغن، نفسها وحيدة في الساحة، فاستنجدت بالدكتور ريشار ديفيس نصف شقيقها ورجته بأن ينتخب (لروني) فريقاً طبيّاً مدنياً ممتازاً، فوقع اختياره على الدكتور ديفير أوتز، السويسري الأصل وهو رئيس فرع الجهاز البولي في «مايو كلنيك» clinique الشهيرة في روشستر. وهكذا في الرابع من كانون الثاني، بادر فريق الهجوم العائد إلى هذه المؤسسة الطبيّة الشهيرة منتقلاً إلى مستشفى «بتسيدا» لمعالجة الرئيس ريغن. وكان الفريق يتألف، عدا عن الدكتور «ديفيد اوتز» من الدكتور، «جورج فارو» كبير عهده في علم الأمراض، «وبول ديديه» و «ر. س رتك» نجمي علم التبنيج، والدكتور الجراح «اوليفر بهرس» ذي الأصابع العجائبية. «ورندلف بهرس»، رئيس قسم المجاري البوليّة في مستشفى القديس بولس.

كذلك حفاظاً، على شرف، جهاز طبّ البحرية الأميركية استنفر الدكتور «هيتون» من جهته، أكبر ما عنده من العلماء والأطباء، فوضع نفسه على رأسهم في غمار المعركة، معركة إستئصال «أهم بروستات في العالم» أو ليس هو بروستات اكبر رجل في العالم؟ وفي هذه الغرفة، غرفة العمليات المزدحمة، كازدحام، حافلات المترو النيويوركي، في الساعات الصباحيّة، تمّ استئصال بروستات ريغن، وتحت تأثير بنج موضعيّ بطريقة شبه عجائبيّة.

ولم تنتهِ هموم ومصاعب الرئيس ريغن، فصولاً مع المرض والطبّ. ففي الواحد والثلاثين من تموز ١٩٨٦ عاد إلى مستشفى «بتسيدا» كما في المرّات السابقه، اكتشف، على أنفه خلايا سرطانية خبيثه ممّا استدعي اقتلاعها على يد الدكتور الجرّاح الجلديّ «فيليب بريبولو»، في مستشفى «كورنل» في نيويورك.

وفي السابع عشر من تشرين الأول، السنة ذاتها، (رفعاً للعتب) دخلت السيدة نانسي، بدورها، إلى قسم الجراحة في مستشفى «بتسيدا» تشكو من سرطان غددي، اكتشف، أثناء فحص روتيني، يوم الخميس في ٢٢ تشرين

الأول ١٩٨٧، ممّا أوجب استئصال ثديها الأيسر.

وفي هذا المجال. لا بد لنا من القول، بأنّه لو تعرّض أيّ رجل، غير ريغن، لأقل بكثير ممّا تعرض له الرئيس البالغ السادسة والسبعين من العمر، لترك عمله مفضّلاً التقاعد والبعد عن المسؤولية علماً بأنّ ريغن، ليس من ذوي الأعصاب الفولاذية، فعلى الرغم من كل ذلك بقي متشبثاً بالمكتب البيضاويّ ومقعده الوثير «تاركاً الشقا على من بقى» غير آبه، سوى بما يتعلّق به مباشرة أو «بالماما» السيدة نانسي. ويظهر أنّه من الممكن تحمّل الكثير للبقاء في قمّة الهرم وقد حدث ذلك مع العديد من أسلافه.

في أوائل آذار ١٩٨٧، وقد ظهر على ريغن الانكسار والتمزق النفساني، متأثراً بهمومه الصحيّة، وأصبح هدفاً للانتقاد والاغتياب، بسبب الفضائح السياسيّة المتلاحقة التي اتسمت بها ولايته الثانية. وهنا، لم يكن من أخيه «نيل»، ومن المفروض، أن يكون أعرف الناس بأخيه الرئيس، إلا أنْ أعطى معلومات لافتة للأنظار، عن طبيعة أخيه، لصحيفة «المواطن» التي تصدر بمدينة سان دييكو في كاليفورنيا فقال: «إنّ رونالد لا ينسى مطلقاً، إلّا ما يريد أنْ ينساه» وذلك عكس ما يؤكّده أخصامه، فهو ما زال يمسك بقوّة أعنة حكومته، فإذا ترك بعض الأمور تجري، فمن المؤكّد أنّ هذا ما يريده وإنّني اؤكّد لكم، أنّني منذ الآن، قلقاً بما سيتعينّ عليّ مستقبلاً دفعه من الفواتير، من جرّاء عدم اهتمام رونالد بما يجري في واشنطن، ممّا يوجب عليه قضم أظافره وخصوصاً بما يتعلّق بالقضية الإيرانيّة.

بالعودة إلى هذه القضيّة التي أطلق عليها في حينها، «الإيران كات» أي الفضيحة الإيرانية «L'Irangate» فإنّ هذه الفضيحة، ستبقى ملتصقه ومرادفة لإسم هذا الرئيس. كما أنّ، فضيحة «وتركايت» «Watergate» ما زالت مسجّلة في خانة الرئيس نيكسون. فإذا راجعنا تاريخ العالم عن قرب لوجدنا، أن القليل من الرؤساء يتركون وراءهم تركة تلفت الأنظار وتستدعي التوقف عندها. فخلال خمسة وعشرين سنة من التاريخ الأميركي قد ينسى الاميركيون كلّ ما يتعلق بحكم نيكسون، وريغن، ما عدا، «الوتركايت» «والإيران

كايت». فالأولى أي «الوتركايت» كانت برأي المعلّقين والمراقبين، فضيحة أخلاقية لا تغتفر. ولا يهضمها الأميركيون بسهولة. وهكذا كان. فأجبر نيكسون على التنحي عن الحكم وإخلاء الساحة. وإنّ استنكاره لما قام به أنصاره والذين ضبطوا متلبّسين بالجريمه، وأيديهم مدسوسة في «جراب» غيرهم، يعبثون بأرشيف القيادة العليا للحزب الديمقراطي المنافس لهم، على العكس قد أغرقه.

أمّا «الايران كايت» فتتعلّق بمسائل أخلاقية من نوع آخر. وقد أدانها الرأي العام الأميركيّ بشدّة معتبراً أنّها لا تقل بشاعة عن سابقتها. فثلاثة من أنظف وأشرف المحققين المعلّقين: جون توور، برانت شاوكروفت وادمون موسكي، قالوا إنّه تصرّف بازاري استفاد منه ثلاثة من الجواسيس الأغبياء. وقد اكتشف أمرهم، ورفعت الأقنعة عن وجوههم، وفيما يختص بالرئيس ريغن صرّحوا أنّ ذلك تقصير في الواجب المهني، من قبل هذا الرئيس المطفي الذي لا يعرف شيئاً ولا يتذكر شيئاً ولا يحكم احداً الغائب. ففي الولايات المتحدة، ليس الرئيس من يحمل العلم الوطني فقط، بل يحمل مهام رئاسة الدولة، ورئاسة الوزارة. ممّا يعني، أنّ عليه أن يحكم ويدير شؤون البلاد، ويقبض لقاء ذلك، علماً بأنّه في هذا الجزء من العالم الحرّ، لا يتورعون عن التعبير عن مشاعرهم عندما يغضبون، ولا يمضغون كلماتهم خصوصاً عندما يوجّهون الكلام إلى الكبار.

«غولدا مائير Golda Meir»

غولدا في واشنطن:

كان الرئيس الأميركي، ريتشار نيكسون، دائماً، من المعجبين، بجرأة الكيان الإسرائيلي. وأكثر مَنْ كان يلفت أنظاره، ويستحوذ على ثنائه وتقديره بشكل خاص، غولدا مائير، تلك الصهيونية المتعصبة، التي تتبوأ مركز الصدارة، بين شلّة الحاكمين في ذلك الكيان العنصريّ.

وتعبيراً عن تقديره، وإظهاراً لعطفه على إسرائيل، وخصوصاً أنّ الشرق الأوسط كان يمرّ، بأوقات عصيبة؛ دعا نيكسون غولدا مائير، لزيارة واشنطن، فلبّت الدعوة في الواحد والثلاثين من تشرين الأول ١٩٧٣، ولدى استقبالها، في المكتب البيضاوي الشهير، وترطيباً للجوّ الجدّي الضاغط، توجّه نيكسون نحوها، وقال مازحاً: أتعرفين يا غولدا أنّه لدينا، نحن الاثنين قضية مشتركة؟ فوزير خارجيتي، كما، وزير خارجيتك يهودي ـ فأجابت: «نعم». ودون تردّد، تابعت: «لكن وزير خارجيتي يتكلم الإنكليزية بطلاقة، ودون أيّة لكنة أجنبية»! فهل كانت تقصد الغمز من قناة وزير الخارجية الأميركية في حينه هنري كيسنجر؟

هنري كيسنجر، وزير الخارجية الأميركية، مخترع الدبلوماسية الجويّة، يقفز كراقص من عاصمة إلى عاصمة، على متن طائرته الالكترونية البوينغ، المجهزة بأحدث وسائل الاتصال التي تمكنّه من البقاء على اتصال دائم بالبيت الأبيض، لتقديم تقاريره أولاً بأول عن حسن سير مؤآمراته؛ فهو مهندس

الحروب في العالم، وصانع الثورات والانقلابات، ومصمّم المذابح والفتن الداخلية! أليس هو من هندس، وصمّم، وأخرج وأشعل نار الفتنة في لبنان،؟ الفتنة التي احرقت البشر والحجر، مضيفاً بذلك على مآثرة ما لن يُنسى أبداً وعلى سجلّه العامر مئات الألوف من القتلى والجرحى، ومليارات الدولارات من الدمار والخراب، هذا عدا عن الحزن والمرارة والمآسي التي عانى ويعاني منها الشعب اللبنانيّ منذ ثماني عشرة سنة حتى اليوم.

وبالعودة، إلى «غولدا مائير» فمن الأرجح، أنّها كانت تلتزم الحيطة والحذر من (العزيز هنري) حسب تعبيرها. أمّا كيسنجر، فمن جهته، كان يعتقد دائماً أنّ إسرائيل، النقطة الستراتيجية الأهم في المواجهة الأميركية مع الاتحاد السوفياتي. لذلك، كان يحافظ على حدوده، تاركاً مسافة معيّنة بينه وبين غولدا، وذلك بحضورها. أمّا في غيابها، فلم تكن اخلاقه «العالية» تمنعه من تناولها، واغتيابها، ونعتها بأبشع النعوت والتسميات. أقلّها «عجوز إسرائيل الجميلة». ولا غرابة في ذلك، إذ من السهل، على طاغيتين، أن يتبادلا الاعجاب. أمّا أن يحبّ أحدهما الآخر، فهذا مستحيل. ومن جملة ما كان يتندّر به بخصوص «العزيزة غولدا» «أنّها تعاني من امراض وآلام مختلفة، فإذا أسعف الحظ أحد تلامذة الحظّ، وفحصها، فإنّه، سينال دبلومه أوتوماتيكياً! والجدير بالذكر، أنّه إذا استرسل في الكلام وكان بين شلّة من المقرّبين إليه، كان يشرح ما يقصد بذلك «أيّ أنّ تلميذ الطبّ السعيد، سينال منه القرف والاشمئزاز، بعد الكشف، وتكحيل ناظريه بمحاسن غولدا ومفاتنها، لدرجة تجعله يترك الطبّ نهائياً».

في الحقيقة، لم يكن كيسنجر يفتري على عزيزته غولدا عندما يقول أنّها تشكو من أمراض وآلام مختلفة، إذ أنّها بالحقيقة، تعدّ بين، الحكّام المرضى، الذين يقودون العالم. فملفّها الصحيّ، من أضخم الملفات، واغزرها مواداً. إنّه يضيق بما يحتويه من الإصابات الغامضة. فهي لا تكفّ عن الشكوى من آلام في ساقها ، أصيبت بها عندما تعرضت لهجوم بالقنابل اليدوية سنة ١٩٥٧ . كما أنّها لا تحاول إخفاء إصابتها المزمنة بنزلة صدرية، لا تتوقف عن

تغذيتها بالتدخين المتواصل. وبما يشبه التفاخر، تروي، للقاصي والداني، بأنّها مصابة بداء الفليبيت «نزيف الوريد». كما أنّها تتعذب كثيراً من مرض الزونا Zona (مرض جلدي يظهر بشكل بثور حول الخصر) الذي يعاودها بشكل منتظم، كذلك لا تكاد تخفي، ضعف ظاهر، في إداء القلب.

ليس هذا فقط. فقد كانت، خلال خمسة عشر سنة، في صراع مرير، مع إصابة بالغة، بسرطان الدم، وتليّف سرطاني خبيث في أحشائها، ولم يكن النصر حليفها في هذه المعركة الطويلة. فصرعها؛ صرعها، المرض الوحيد، من أمراضها، التي حاولت بحزم إخفاءه، وإخفاء العلاجات المتنوعة، والمكثّفة التي كانت تخضع لها، لكن دون جدوى.

عدد قليل من زعماء العالم، توصّل إلى الحدّ الذي بلغته، رئيسة وزراء إسرائيل، غولدا مائير، من اجتذاب الأنظار، والإعجاب في العالم، حتى درجة المبالغه والمداهنة؛ هذا على الأقل، حتى حرب «يوم الغفران» سنة ١٩٧٣. إذ أنّ هذه الحرب، كانت موضع انتقاد وإدانة المؤرخين والمراقبين، لقرارها في حينه وحتى في إسرائيل نفسها.

من المعترف به، أنّ هذه المرأة، عرفت، دون شك، كيف تنتزع إعجاب العالم، وأصبحت لمدة طويلة، رمز ديناميكية وإقدام الدولة العبرية الفتيّة. إلّا أنّ هذا السرّ الثقيل، التي كانت، غولدا، تجهد نفسها باخفائه وكتمانه، حتى عن أقرب الناس إليها، لم يكن عاملاً إيجابياً بالنسبة إليها، وهو، إصابتها السرطانية المزمنة. رغم أنّ ذلك، دليل لا ريب فيه على شجاعتها، كما أنّه يشهد على طموحها السياسيّ الذي لا حد له، والذي يستحوذ على شعورها وتفكيرها، ويشغل كلّ وقتها لدرجة نكران الذات والتستر على أحكامها. ومن هنا كانت ترتكب الأغلاط في ممارستها لأعبائها ومهامّها. ولهذه الأسباب، وفي إحدى اللحظات المصيرية، تبنّت الفكرة. ثمّ فجّرت حرب «يوم الغفران» الشهيرة التي كان، من الأجدى والأجدر بإسرائيل، أن تتحاشاها والتي تسبّبت بها تشوّش الرأي، وسوء تقدير رئيسة الوزراء غولدا مائير المريضة، إذْ أساءت إلى الحقل العسكري الإسرائيلي علماً

أنّ سوء طالع إسرائيل، هذه الدولة الوحيدة، والمعرّضة بصورة خطيرة إذ أنّها محاطة بالأعداء من جميع الجهات، وأنّ قدرها، أن تعيش دائماً، في حالة إستنفار قصوى. وأنّ عدم كفاءة غولدا وسوء أدائها بسبب مرضها، كان وراء كلّ ذلك، وقد تفاقم هذا المرض حتى طاولت نتائجه، موشي ديان. فتخلى عن مهامه ممّا أضعف وأساء إلى المؤسسة العسكرية «على الأقل» نفسانياً. وقد قيل: «على من بيته من زجاج، أن لا يرشق الناس بالحجارة».

«غولدا مائير» من هي؟

«غولدا مائير ـ مابو ڤيتذ»، سليلة فقر، وربيبة ذلّ. كان والدها نجّاراً مغموراً، وكانت الاسرة تسكن في أحد أحياء مدينة «كييف» في أوكرانيا في أيّام الأباطرة. ولدت غولدا وترعرعت في تلك المدينة الجميلة التي كانت تنافس مدينة القسطنطينية، وتعتبر، عاصمة أوروبا الثانية من حيث الجمال والمدنية. وقد أبصرت النور في الثالث من أيار ١٨٩٨ . ولكنّ غولدا لم تعرف في هذه المدينة، سوى الهول والفزع، من جرّاء المذابح المنظّمة التي كانت تحصد الصفوف اليهودية بتغاضٍ، لا بل، بتشجيع من السلطات الامبراطورية، وهي في عمر كان أترابها يلعبون بالدمى.

وفي المدرسة، عانت الكثير من المهانة والتفرقة وانعدام العدالة، ممّا طبعها منذ حداثتها على الحقد والشراسة. ومن جرّاء الاضطهاد وسوء المعاملة، قرّرت العائلة، الهرب من هذا الجحيم، والهجرة إلى الولايات الأميركية وذلك في أواخر ١٩٠٦ . وكانت غولدا تحمل بذور العصيان والثورة، ولم يخف ذلك على أهلها، بعد أن استقروا في مدينة «ميلوكي» من مقاطعة ويسكوتسن. هناك كانت غولدا تساعد والدتها، وهي عابسة الوجه، في دكان صغير، اشتراها والدها، في أحد الأحياء الشعبّية الفقيرة. وكانت المواجهة الأولى بينها وبين والدها، إذ رفضت الانصياع لأمره بالتعليم في إحدى مدارس المهاجرين اليهود، متذرّعة بأنّ هذه مهنة العوانس المسنّات. وفي المواجهة الثانية كانت القطيعة، إذ هجرت بيت أهلها، وهي في الخامسة

عشر من عمرها وفي سبيل العيش: عملت «غسّالة» في مدينة «دنفر»، حيث كانت تقيم جالية يهوديّة كبيرة نسبيّاً. وفي السابعة عشر من عمرها، بدأت تحرّكها، فالتحقت بإحدى المنظمات اليهوديّة، حيث التقت موريس مائيرستون فتزوجته بعد أربع سنوات، وقد سيطرت عليه، هذه المقاتلة الاشتراكيّة الصغيرة منذ الوهلة الأولى.

في سنة ١٩٢١، قرّر الزوجان الشابّان الهجرة إلى فلسطين، أرض الميعاد بالنسبة لكلّ يهوديّ.

وفي إحدى المستوطنات اليهوديّة، انسجمت حياة غولدا بطبيعتها التي تضج نشاطاً وحيوية، فكانت بعد اعتنائها بدجاجها والانتهاء من الحراثة المقررة، تعقد حلقات التوعيّة الطائفيّة والصهيونيّة، ممّا نغّص حياة زوجها، وهو أقلّ التزاماً منها بالأمور العرقيّة والشؤون العنصريّة، وهدّد بالعودة إلى الولايات المتحدة. وفي مبادرة إنقاذاً لزواجها، ضحّت غولداً بتربية الدواجن والزراعة الجماعية، فانتقلت مع زوجها للإقامة في تل ـ أبيب، حيث عادت إلى مهنتها الأولى تغسل ثياب الميسورين من بني جنسها لمساعدة زوجها في تكاليف الحياة، إذْ كان يعمل محاسباً بأجر زهيد.

انتسبت غولداً، إلى منظمة العمل اليهوديّ «الهيستادروت» وتسلّقت مسرعة، درجات هذه المنظمة، حتى انتخبت سكرتيرة لمجلس الوصاية العماليّة النسائيّة، ثمّ قائدة التنظيم الصهيونيّ للنساء الرائدات، ثم استدعيت إلى «الهيستادروت» حيث أصبحت رئيسة مكتبه السياسيّ، فأدارت شؤونه بحكمة وفعاليّة، ووحّدت كلمة العمّال، عبر محاضرات صهيونيّة عنصريّة، كانت تلقيها فيهم بحماس وكثافة ممّا لفت إليها أنظار كبار رجال العصابات الصهيونية. فكانت تُدعى إلى مجالسهم السريّة فتشترك بحواراتهم وتخطيطاتهم الإرهابية.

باختصار، فإنّ الانطباع السائد، لدى من يعرفونها عن قرب ويتتبعون تحركاتها ونشاطاتها بأنّ ما من عقبات تستعصي عليها، فهدفها الوحيد ليس

أقلّ، من الوصول إلى القمّة، ولن ترضى عن ذلك بديلاً، أمّا المسكين موريس، زوجها، فلم يكن عليه، سوى الطاعة ومحاولة اللّحاق، بهذه الكهرمانة، ولو بشقّ النفس. وقد تأكّد أخيراً، بأنّه لم يتزوج من امرأة ككلّ النساء، بل أنّه تزوج منصّة خطابية، طاغيّة متعطّشة إلى القوّة والسلطة، لا تكلّ ولا يتعبها الجدل والمناقشة. وقد وصل بها، حدّ الاستبداد بزوجها والاستهتار به مبلغاً لا مثيل له، حتى طاول اسمه. إذ رأت أنَّ «موئيرسون» طويلٌ، وغير جميل، فحذفت ما طاب لها من الأحرف محتفظة بكلمة مائير فقط، فلم يعترض على إجرائها مفضّلاً الاستسلام.

غولدا، تقاوم البريطانيين:

تعبت السلطات البريطانيّة، وعيل صبرها، من جرّاء التحركات والغليان الصهيونيّ، وعندما طفح كيلها، ألقت القبض على زعماء الوكالة اليهودية سنة ١٩٦٤، كذلك على بعض الزعماء السرّيين للحركات البركانيّة الإرهابية، فكانت بهذه الإعتقالات، كالمستجير من الرمضاء بالنار، إذ خلفت غولدا مائير، «موشي شارت» «موقتاً» في الرئاسة السياسيّة للوكالة اليهودية، فذاق البريطانيون الأمرّين إذْ لم توفّر أحداً من نشاطها وشرورها، عربيّاً كان أو بريطانياً. فكانت كتلة من الأعصاب والنشاط.

غولدا مائير في موسكو:

بعد أن نالت اسرائيل استقلالها، كُلّفت غولدا، بتمثيل بلادها في موسكو. ولدى وصولها، أقامت في الفندق الوطني المجاور لقصر الكرملين، حيث يقيم العديد من السفراء والوزراء الأجانب، ممّا سمح لها، بالتجوّل في الأسواق القريبة إن للنزهة، أو للقيام ببعض المشتريات. وكانت في كلّ مرّة تخرج من الفندق، وخصوصاً في المرّة الأولى تصاب بالدهشة والتعجّب، إذ فوجئت بالعديد من الناس نساءً ورجالاً، يحيونها باسمها، والبهجة ترتسم على وجوههم. وقد تكرّرت هذه الظاهرة وازداد عدد محبيها ولم تمسك نفسها، عن

سؤال كهلين في منتصف العمر التصقا بجانب الرصيف، مفسحين لها الطريق، وقد رفع الرجل قبّعته احتراماً، وشاركته زوجته الانحناء والتحيّة، فيما إذا كانا يعرفانها. فأجابا، بما معناه، أنّ صورتها منقوشة في قلوبهم، وأنّها أمل اليهود ومحور اعتزازهم وأنّ وجودها في الاتحاد السوفياتي رفع من معنوياتهم وأدخل الفرحة والأمل بالعودة إلى أرض ميعادهم. . . فلسطين.

لم تقف الأمور عند هذا الحدّ، وعلى الأرجح، إنّه استناداً، إلى استقصاءات وتحرّيات، عن كل يهودي وحيثما كان، وخصوصاً، المهمّين منهم، توصّلت غولدا، إلى معرفة أنّ السيدة «مولوتوف» من أصل يهودي. فلم تتورّع عن الاتصال بها. فأصبحتا صديقتين بعد برهة وجيزة، ممّا سهّل الطريق أمامها، للتعرّف، على العديد من الجالية اليهوديّة السوفياتيّة. وكانت حيثما ذهبت في هذا المجال، تجد الأبواب مشرّعة أمامها والأذرع مفتوحة لاستقبالها. وفي جميع هذه اللقاءات، كان اليهود السوفيات، يؤكّدون لغولدا، تأييدهم المطلق للكيان الصهيونيّ الجديد.

إثر انتخابها نائبة في أول «كنيست»، سنة ١٩٤٩، عادت غولدا مائير، إلى بلادها، حيث لم تمسك لسانها، عن القدح والذمّ بالنظام السوفياتي. وأعربت عن خيبة أملها، بالمجتمع الاشتراكي، الذي كانت تعتقده مثاليّاً في الاتحاد السوفياتي.

خلال سبع سنوات، حافظت غولدا، على مركزها كوزيرة للعمل والأمن الاجتماعي، بالرغم من أنّ اشتراكها في الحكومة لاقى معارضة شديدة، من قبل الوزراء، الأعضاء في الأحزاب الدينية، رافضين الانضمام إلى مجلس يضم امرأة بين أعضائه.

بينما يسير النظام الصهيوني، بخطى حثيثة، على طريق الرأسماليّة الغربية، كانت غولدا مائير، لا تزال وفيّة لمبدئها، تحلم دائماً بنظام إشتراكي. وتعبيراً عن أحلامها، بمناسبة الاحتفالات التي جرت في الأول من أيار «عيد العمل» سنة ١٩٥٠ أَوْرَدَتْ غولدا في خطابها عمّا يجيش في خاطرها، فقرة،

تقول فيها «وقريباً في السنة القادمة، في إسرائيل الاشتراكية» سنفعل «كذا وكذا».

غولدا مائير تفوز بالانتخابات البلدية:

بعد خمس سنوات، أي سنة ١٩٥٥، فازت، غولدا مائير، بالانتخابات البلدية لمدينة القدس، بالتعاون مع حزب العمّال. لكنّ الأحزاب الدينية المتعصّبة، كانت لها بالمرصاد، فقطعت عليها الطريق، ومنعتها من استلام رئاسة بلدية القدس، على الرغم من فوزها الساحق في الانتخابات. ولكن «رُبّ ضارّة نافعة» إذ بتصديهم لها، أسدوا إليها خدمة كبيرة عن غير قصد؛ إذْ أنّه لدى تشكيل الحكومة الجديدة، استدعاها، «بن غوريون»، لتولي، وزارة الشؤون الخارجية حيث بقيت، خلال عشر سنوات، مهندسةً، للدبلوماسيّة الإسرائيلية.

غولدا، عنيدة متعصّبة، مستبدة في آرائها وقناعاتها، لا تحيد عن هدفها قيد أنملة. وقد قال الصينيون في هذا الصدد «من الأسهل تغيير مجرى نهر كبير، من تغيير طباع غولدا مائير». وكانت تعرف نفسها، وتفاخر بما يدور حولها من أحاديث بهذا المجال. كما أنّ بن غوريون، كان يشاركها نفس الصفات والأهداف. ومن هنا كانا يعملان كفريق متجانس متكامل، خصوصاً أنّ وضع البلاد، في طور التأسيس، والأحداث الخطيرة تتلاحق، لكن، مع عودة السلم، ولو هشّاً، إلى البلاد، دبّ الخلاف بين الحليفين، وعلى حد قول بن غوريون لم تعد البلاد، بحاجة إلى مغامرين، بل إنّها بحاجة إلى إداريين لإدارة شؤونها بتعقل وروية. قال ذلك، وقد نال منه التعب من الحكم، ومن طموحات المحيطين به. أمّا، بالنسبة إلى غولدا، المهوسة برغبتها في تسلّق سلّم الحياة والمراكز، حتى القمّة، ثابرت على طريقتها في العمل للتوصّل إلى الهدف الذي يستحوذ على أفكارها ومشاعرها كما أنّه إذ لم يعد لهما من منافسين يحسب لهم بعض الحساب، انفرط تحالفهما وذهب إلى غير رجعة، عهد الغرام بينهما ولا سيما سنة ١٩٣٢، يوم استقبل بن غوريون

غولدا العائدة من جولة «استعطاء» في الولايات الأميركية المتحدة، وقد جمعت مبلغ خمسين مليون دولار، من اليهود المنتشرين في تلك البلاد، ممّا جعل بن غوريون يصرخ بأعلى صوته قائلاً لا بدّ للتاريخ من أن يسطّر بأحرف من ذهب «أنّ غولدا مائير، امرأة يهودية سمحت للدولة العبرية أن ترى النور».

غولدا مائير وسرطانها الخبيث:

سنة ١٩٦٣ كانت سنة تعيسة، للثنائي الصهيوني: بن غوريون وغولدا مائير. فبن غورين ترك الحكم، واعتكف في منزله مبتعداً عن السياسة والخدمة العامة، ممّا شكّل بالنسبة إلى غولدا جرحاً بليغاً وتأثيراً سيّئاً على نفسيتها.

وفي نفس السنة، اكتشف الأطباء ورماً خبيثاً بطيء النمو لدى غولدا مائير. لكنها فرضت عليهم التزام الصمت المطبق، فلم تُلكْهُ الألسن، ولم يُشَعْ خبره.

خلف «لافي أشكول» العجوز بن غوريون في رئاسة الوزارة. وبوجوده زادت سلطتها وتعاظمت غطرستها، حتى بعد الانتخابات التشريعيّة سنة ١٩٦٥ . فتركت الحكومة، وأصبحت السكرتيرة العامة لحزب العمّال. وغداة حرب الأيام الستة، مانعت في تعيين الجنرال موشي ديان وزيراً للدفاع، وقد بقي على ولائه «لبن غوريون». وبعد ولادة الحزب الموحّد في إسرائيل سنة ١٩٦٨، أصبحت أول سكرتيرة عامّة له. لكنّها استقالت من هذا المركز بعد عدّة أشهر فقط بحجّة تقدّمها في العمر، إذ بلغت السبعين. ولكن في الحقيقة كان عليها علاج الورم الخبيث الذي تفاقم أمره، وأصبح يشكّل خطراً جديّاً على حياتها.

بعد موت «لافي أشكول»، رئيس الوزراء، سنة ١٩٦٩، وعلى الرغم من الاستفتاء الذي أُجري حول رئاسة مجلس النواب والذي لم تنل فيه سوى (٢٪) «اثنين بالمئة» من الأصوات، ونزولاً عند رغبة وإلحاح أصدقائها، أصبحت غولدا رئيسة للحكومة. ولكنّ وضعها كان هشّاً هزيلاً، خصوصاً أنّها كانت غارقة حتى أذنيها في الهمّ الملحّ من جهة مرضها المزمن، إذْ كادت

تحترق من غيظها. وتعبيراً عن حالتها كانت توزّع حنقها وتأنيبها على مساعديها وكلّ من يحيط بها دون سبب موجب، ممّا جعل الجميع يحاول تجنّبها والابتعاد عن طريقها. ولأنّه ما من خفي إلا سيظهر، كثرت حولها الإشاعات والوشوشات. وممّا زاد الطين بلّة، أنّ أحد رفاقها في حزب العمّال، نقل إلى الأميركيين خبر إصابتها بالسرطان الخبيث.

اتخذت غولدا مائير، سياسة جديدة، في التعامل مع العالم العربي. فاختارت طريقة التآمر والمراوغة، ورفضت كل الاتفاقات المعقودة فيما يتعلّق بقضيّة النزاع القائم في الأراضي العربية المحتلة، منذ حرب الأيام الستة. ولم تنفّذ أيّاً من وصايا الرئيس الأميركي ريتشار نيكسون أو اخيها في الصهيونية، هنري كيسنجر. هذه التوصيات، التي كانت تقضي بتليين الطرق المعتمدة في إدارة هذه المناطق ممّا يساعد على إحلال الهدوء وتخفيف حدّة العنف السائد بين الطرفين. كما رفضت المبادلة بين هذه الأراضي المحتلة، ومعاهدة سلام. وفي نفس السياق، رفضت العرض المباشر، الذي وجّهه إليها، الرئيس أنور السادات، في شباط ١٩٧١ . ولّما كانت عنيده بطبعها، وشرسة الأخلاق وقد زاد شراستها المرض الخطير الذي تعاني منه وأعمى بصيرتها، فلم تعد تتقبّل النصح من أحد، وابتعدت عن الجيش، الذي طالما تغنّت به، زاعمة أنّه أفضل جيوش العالم. فلم تعد تشجّعه وترفع من معنوياته كعادتها. وقد برهنت الأحداث فيما بعد أنّها كانت على خطأ وفتحت لها أعينها، ولكن بعد فوات الأوان.

إنّ عذاب غولدا المرير قد بدأ في السادس من تشرين الأول سنة ١٩٧٣، مع حرب يوم الغفران. «لقد أغمضنا عيوننا، وتغاضينا بكثير من السذاجة عمّا كان يحضّر لنا». وبذلك كانت تحاول توجيه اللّوم، إلى الجنرال موشي ديان، والتقليل من شأنه. وفي مذكراتها، حاولت أن تبعد عن نفسها تهمة التقصير وإلصاقها بسواها. ولكن دون كبير جدوى. إنّها منذ أيار ١٩٧٣، كانت تعلم علم اليقين وتؤكّد للجميع، أنّ المصريين والسوريين يحشدون الجيوش الجرّارة على الحدود مع إسرائيل، وبعد حوار طويل مع

مستشاريها العسكريين، أقتنعت بأنّ الجيش على أهبة الاستعداد لكافة الطوارىء، وبمقدوره خوض حرب على أعلى المستويات؛ ممّا جعلها في راحة تامّة، إذ أنّها أنذرت الجيش بوقت مبكر. ولكن بعد مدّة وجيزة، استرخت الأعصاب، ونام الإسرائيليون على حرير، حتى استفاقوا مذعورين، على أصوات المدافع ودويّ الصواريخ. وذلك في السادس من تشرين الاول، إذ اجتاحتهم الجحافل من كل حدب وصوب، مخترقة الحدود الإسرائيلية من جميع الجهات.

اثر الهزيمة دايان يستقيل:

إثر الهزيمة النكراء، التي أصيب بها الجيش الإسرائيلي المتغطرس التي ما فتئت غولدا مائير تردّد، بأنّه من أفضل جيوش العالم، وذلك على يد الجيوش العربية، السورية والمصرية التي اخترقت حدوده من جميع الجهات. ممّا كان له أثرٌ سلبيٌّ فعّالٌ على معنويات هذا الجيش وقائده موشي دايان، الذي سبق أن جعلت منه إسرائيل والصهيونية العالمية إسطورة عسكرية، قالوا إنّه يفوق المارشال مونتغمري البريطاني، وايزنهاور الأميركي. فهذا القائد الفذّ، أصيب بالارتباك والإحباط، فأمر جيوشه بالتراجع إلى الوراء، نحو خطوط جديدة، ومن ثمّ تحت ضغط الرأي العام الصهيوني، لم يجد بدّاً من الاستقالة والانزواء جانباً، تاركاً المجال أمام الجنرال شارون.

أعقب ذلك، تدخّل الولايات الأميركية المتحدة، والاتحاد السوڤياتي. فاجبرت الجميع على التوقّف عن القتال، والمباشرة ببزار التسوية.

لم تقف الأمور عند حدّ، باستقالة موشي دايان والتدخل الأميركو - سوفياتي. ولم تهدأ خواطر اليهود إن في إسرائيل، أو في بلاد العالم، مستغربين ومندّدين، بالهزيمة أمام الجيوش العربية. وتحت هذه الضغوط، ولاسيّما الأحزاب الدينية المتطرفة، والمموّلين الصهاينة الأميركيين وغيرهم، كان لا بدّ من تشكيل لجنة للتحقيق في أسباب الهزيمة وملابساتها. وعهد بها إلى رئيس المحكمة العليا، «شيمون أكرانات»، ممّا جعل غولدا مائير توجس خيفة، من

نتائج هذه التحقيقات، بعد أن قرأت في الصحف، وتناهى إلى سمعها، كل ما نشر، وما قيل بهذا الخصوص. فالشعب الإسرائيلي يكيل التهم الجسام، والقدح والذمّ لكل من له علاقة بالشؤون العامة، سياسيّة كانت أم عسكريّة، لا فرق، ومن القمّة إلى القاعدة. فالجميع «بنظرهم» مقصّرون وفاشلون.

وفي أول اجتماع لهذه اللجنة، سارع المحققون، إلى التمييز بين المتهمين ودرجات الاتهام، ممّا سمح بتبرئة غولدا مائير، كذلك موشي ديان، ولكن ببعض الصعوبة، وقد حمّلت اللجنة، المسؤولية لمستشاريهم. أمّا بقيّة العسكريين، فقد حوكموا، بموازين ومكاييل مختلفة، ولم ينجُ بعضهم بكامل ريشه.

أمّا في القسم الذي لم ينشر، من تقرير لجنة التحقيق، فقد أنّب «أكرانات» غولدا مائير، بقساوة، إذ أنّها لم تعِ بشكل كافٍ، خطر الحرب الوشيك، المتمثل، بالتجهيزات المتعاظمة للجيوش العربية، كما وُجّه إليها اللّوم لعدم وضع أعضاء وزارتها بالجوّ، وعدم شرح الموقف والصورة لهم.

ولا بدّ لنا هنا، من التذكير، بكلّ ما يعرفه، ممّن اقترب منها خلال حياتها السياسيّة، وكيف كانت تتعاطى مع أصدقائها من الوزراء ومن المتملّقين والمدّاحين، فتجمعهم في مطبخها، وأثناء تحضيرها لهم إحدى الوجبات، التي كانت ترعب كيسنجر بسوء نوعيتها، كانت تحاضر، وتحاضر حتى يجفّ حلقها، ثم تتخذ بعض القرارات الهمايونيّة التي كانت تفرضها فيما بعد على البلاد والعباد.

غولدا، تتشبث بالحكم رغم مرضها الخبيث:

بدل أن تستقيل فوراً، وهذا ما كانت تنتظره البلاد، تشبّثت غولدا مائير الثائرة بالحكم، حتى نيسان ١٩٧٤ في محاولة لتبيّض صورتها، دون أمل. وكان قد سوّدها تقرير لجنة التحقيق ورئيسها، كبير القضاة «أكرانات». كما أنّ حرب يوم الغفران كان يمثّل، أهم فشل، في تاريخ الدولة العنصرية الصهيونية. ولكنّ غولدا، في خريف حياتها السياسية الناجحة، لم تعرف كيف

تنسحب بالوقت المناسب، دون تلطيخ سمعتها وماضيها. وكانت دائماً تتّهم مستشاريها العسكريين، الذين نصحوا بتكليف موشي ديان، الذي بدوره، لم يعرف كيف يهرب من المسؤوليّة في الوقت المناسب أمّا بالنسبة إليها، فكانت تخترع الأعذار، إذ لا يمكن لها أن تنسى أنّها سنة ١٩٦٩ عندما بذلت كلّ جهودها للحصول على مركز رئاسة الوزراء، بالرغم من أنّها تعلم علم اليقين، أنّ حالتها الجسدية والنفسية لا تسمح لها بتحمّل مسؤولية على هذا القدر من الأهمية. كما أنّها على علم، بأنّها رغم خبرتها السياسية، تجهل، كل ما يمتّ بصلة إلى الشؤون العسكرية. وبالرغم من أنّها أحاطت نفسها بمستشارين ذوي ماضٍ مشرّف في هذا المضمار. ثمّ أنّها تجاهلت السر الذي تحتفظ به ويحزّ في قلبها متناسية، أنّ حاكماً مريضاً، يعرّض بلاده لأبشع الأخطار وأفدح النتائج.

خلال خمسة عشر سنة، احتفظت غولدا وأطباؤها بالصمت المطبق، حتى عن وزرائها، وأقرب المقرّبين إليها، إلى يوم مماتها في الثامن من كانون الأول سنة ١٩٧٨ . فخلال مؤتمر صحفيّ بخصوصها، عرف العالم رسميّاً بمرضها وبشدّة معاناتها وطولها. كما أنّه بعد موتها حُلّت عقدة لسان، كل من كان على معرفة بمرضها. وفي هذا السياق، صرّح الأستاذ «كالمان مان»، مدير مؤسسة «حدّاثة» الطبيّة، كاشفاً النقاب عن التقرير الذي اعتمد عن نتائج الفحوصات التي أجريت لغولدا سنة ١٩٦٣، إذ تأكد، في حينه، مِنْ إصابتها بسرطان خبيث غير متقدم كما أرسلت نماذج تشريحية، إلى اكبر المراكز الطبية العالميّة للمقارنة، فجاءت النتائج، تؤكد صحّة اكتشاف أساتذة الطبّ في تل ابيب، وهم «موشي رشميلفيتش» «وكبريال اسحق». وقد أُخْضِعَت غولدا مائير، لعلاجات كيمائية واشعاعية عديدة. وكانت تدخل المستشفى بصورة دورية منتظمة. وقد أشرف على معالجتها البروفسور «ذقي فوكس»، مدير مؤسسة «حدّاثه شارت» الطبيّة. وفي تشرين الأول ١٩٦٧ خضعت غولدا مائير لعملية جراحية فاستئصل طحالها، وقد كانت في حالة صحيّة يرثى لها. وقد شعرت في حينه. أنّ شمسها على وشك الغروب. وترجمة لهذا الشعور،

كتبت وصيّتها. وبحسب الفريق الطبيّ، خلال أيلول ١٩٧٨، أي قبل موتها بأربعة أشهر، اشتكت غولدا للمرة الأولى، من وهن وضعف في عظامها وخصوصاً في ساقيها، وقد نسب ذلك إلى انتقال للمرض. وفي انتقال لاحق غزا المرض كبدها، ممّا عقّد الأمور فقبل موتها باسبوعين فقط، أصيبت بريقان حادّ، نتج عن انسداد في مجاري المرارة، ممّا سبّب لها عسر هضم حاد. والجدير بالذكر، أنّ الأطباء أكّدوا، أنّ غولدا، لم تكن على اطّلاع على حقيقة مرضها، إلّا منذ بضع سنوات فقط. وهذا التأكيد برسم الشّارع والجمهور الإسرائيلي، الذي كان يتساءل،عن إمكانية غولدا العجوز، في إدارة شؤون البلاد بشكل سليم، إثر تكاثر الأحداث والنكسات بعد حرب يوم الغفران.

خلافاً لمزاعم الأطباء الإسرائيليين، فأثناء المؤتمر الصحفيّ الذي انعقد في الثامن من كانون الأول ١٩٧٨، أي بعد موتها، تأكد أنّ غولدا، كانت على علم بمرضها، منذ البداية، وبالتفصيل. إذ كثيراً ما كانت تناقش طبيعته، وتطوّره، ونتائجه بأدق التفاصيل مع أطبائها. وهي التي فرضت السريّة المطلقة، إذْ خافت بحق أن يشكّك، السياسيون المحيطون بها في قدرتها على القيام بأعباء مهمّتها الرئاسيّة وقد فعل ذلك من قبل رئيس الوزراء البريطاني «أنتوني إيدن». فكانت تعتقد، أنّ تشخيص السرطان لديها، لا يجب أن يمنعها من القيام بواجبها طالما تشعر أنّها بحالة جيّدة.

كغطاء للحقيقة، وتعليلاً لزياراتها المتكررة للمستشفيات كانت تزعم أنّها مصابة بالبرونشيت، تارة، وتزعم طوراً انّها تجري فحوصات مخبرية للبول، أو للطفيليات، وغيرها من الحجج الوهميّة المضلّلة. ولكنّها كانت تغفل (دون شك) ذكر الإغماء الذي تصاب به من حين لآخر فيطرحها أرضاً، ويشلّ حركتها ويعيق تنفسها لبرهة غير وجيزة، ويصيب قواها بالهبوط لدرجة عدم المقدرة على الكلام. وقد حاول أحد أطبائها أن يثنيها عن نشاطاتها الوزارية، لكنها بالتأكيد، رفضت الاستماع إليه.

عندما لفظ رئيس الوزراء أشكول، أنفاسه الأخيرة سنة ١٩٦٩، لم تكن غولدا متمتعة بكامل صحتها. إلّا أنّها، بعد عشرة أيام فقط، وعندما علمت،

بأنها ستخلفه في رئاسة مجلس الوزراء دبّت فيها الحياة من جديد فبدت مليئة بالنشاط والحيوية وبدت كأنها أصغر سنّاً ممّا هي عليه، بعشرات السنين، وجواباً على دهشة الصحفيّة «داني بلوش»، قالت، إنّ الحقيقة أمر بسيط: إنّ ما يسمونه مرضاً بالنسبة إليّ، ليس سوى رغبتي في أن اصبح رئيسة للوزراء. أمّا الآن، فقد انتهت كل مشاكلي الصحيّة، وهذا تقويم شخصيّ، ذاتي، فريد من نوعه.

ولكن هذا التألّق وهذه «الفرحة لم تصل إلى القرعاء» إذ بعد أيّام معدودة، رجعت غولدا إلى مستشفى «حدّاثه»، محمولة. وكالعادة اعطيت التعليمات المشدّدة للأطباء والممرضات، بإشاعة خبر إصابة رئيسة الوزراء «بالكريب». وهذا للمرّة العاشرة، خلال بضعة أشهر، وقبل حرب يوم الغفران ببضعة أيام، أصيبت بنوبة سرطانية جديدة، مصحوبة بآلام حادة وتفاقم في التعب ممّا استدعى نقلها على عجل، إلى المستشفى، حيث بقيت لمدة ثمانٍ وأربعين ساعة، خضعت خلالها، لجلسات إشعاعية مكثّفة. ثمّ عادت إلى منزلها، «وذلك أيضاً لتمويه الأمور» إذ كان عليها، زيارة المستشفى ثلاث مرّات اسبوعياً لإجراء المزيد من الجلسات الإشعاعية، التي كانت تتم ليلاً وبسريّة تامة، وفي سيناريو من «إخراجها» وبالإتفاق مع أولادها، ومع سكريترتها المخلصة (لو كادار) ومع «جاليلي» أحد أصدقائها المقرّبين من حزب العمّال. ومن المفروض «بالسيناريو» أن تصاب «لو كادار» بمصاعب في قلبها، فكان ذلك، سبباً وجيهاً وكافياً، لزيارات غولدا المتكررة إلى المستشفى، وقد قال أحد موظفي مستشفى «حدّاثه»، بأنّ هذه المؤسسة، لم ترَ مريضة تدخل المستشفى وتلازم الفراش طويلاً لأسباب تافهة.

لكن على الرغم من الجلسات العلاجية، المضنية التي تنهك الجسد، حافظت غولدا العجوز المريضه، على القيام بمسؤولياتها في الحكم بدقة وانتظام. ومهما كانت عليه من الشجاعة، فثمّة مجال للتساؤل عن جودة ونوعيّة العمل التي تقوم به خلال هذه المرحلة من حياتها.

خلال حزيران ١٩٧٣، قام المستشار الألماني «ويلي برانت» بزيارة

إسرائيل، فلاحظ أنّ غولدا متعبة جدّاً، دون أن يعرف السبب ورغم تعبها وآلامها وخصوصاً بعد خضوعها لإحدى الجلسات العلاجيّة، لم تتغيّب عن حضور الحفلة التكريميّة التي أقيمت على شرف الضيف الكبير.

قليلٌ جدّاً من الناس، يعرف ما تعانيه، هذه الجبّارة العجوز. وقد صرّحت سكرتيرتها الخاصّة «لو كادار» بعد موتها، قائلة: «كان بيننا الكثير من الأسرار، لكن أهمّها ما يتعلّق بصحّتها. فكانت مريضة جدّاً خلال خمس عشرة سنة، إذْ كنّا نذهب سويّة إلى المستشفى وعادة خلال الليل، لإجراء جلسة علاجية، وذلك طيلة شهور طويلة. وكان ذلك مؤلماً، ومتعباً بشكل فظيع، وإنّني أشك بوجود شخص يتحمّل ما تحملته من أوجاع وآلام. ولكنّها كانت مصممة على الاحتفاظ بالسرّ مهما كلّفها من تضحية وألم. وبعد كلّ جلسة، كنت أوقظها في الساعة السابعة على عادتها، وبناء لتعليماتها، وإنيّ متأكدة منذ الآن، بأنّه في يوم من الأيّام سيروي الأطباء كلّ ذلك».

في نهاية شهر حزيران ١٩٧٣، وقد تجاوبت بعض الشيء، مع العلاج، ولو مرحلياً، قرّرت غولدا مائير، ترشيح نفسها للانتخابات العامّة، المقررة في تشرين الأول ١٩٧٣ . فكتبت مذكّرة إلى السكرتير العام لحزب العمّال تقول فيها: «لقد قرّرت عدم إنهاء حياتي العامة ضد رغبة زملائي، الذين يتحملون إلى جانبي ثقل المسؤوليات». ولكنّ ذلك، حتى بنظر أقرب المقرّبين، لم يكن أحسن قراراتها. فلو أنّها استقالت وأخلت الساحة لسواها، ربما كانت سمحت لخلفها بأن يأخذ بعين الاعتبار، ما يجري على حدود البلاد، من حشود واستعداد، ممّا يوحي لكل ذي عينين، بأنّ ثمة حرباً على وشك الاندلاع. أو ربّما استمع بشكل أفضل إلى الرئيس المصري أنور السادات الذي، ما انفك عن التصريح بأنّه، سيهاجم، وربّما كان يعني هجوم يوم الغفران. ولكنّ التاريخ لا يصنع بكلمة (لو. أو ليت) ولكن تسطّره الأحداث.

غولدا اسوا جدة:

بالفعل كانت غولدا... شخصيّة مهمّة جدّاً بالنسبة إلى بلادها وبني قومها. ولكن بالمقابل كانت عتّية، قاسية لا تعرف معنى الرحمة أو الشفقة، ولا يعرف، الحبّ أو الحنان إلى قلبها الأسود سبيلاً، بالرغم من أنّها أشهر جدّة يهودية في العالم. ولكنّ ذلك ليس سوى مجرّد كلام ودعاية، وصورة رمزيّة ومداهنة لا أساس لها ولا صحّة. فهي في الحقيقة ليست كسائر الناس الذين لهم حسناتهم إلى جانب سيئاتهم هذا على الأقل فيما يتعلّق بالعاطفة الانسانية، فهي على هذا الصعيد، ليس لها سوى الصغائر والمخازي.

ففي صبيحة موتها، نشرت جميع الصحف الإسرائيلية صورة فتاة في الثانية والعشرين، مصابة بالمنغولية وتعليقاً مفاده، : أنّ هذه المعاقة الحزينة، المصابة منذ ولادتها بعاهة فطريّة وراثيّة، هي حفيدة غولدا مائير. وكما فعلت غولدا بخصوص صحّتها فرضت السريّة التامة على هذه الفتاة منذ الساعة الأولى ولم تشاهدها سوى مرّة واحدة يوم ولادتها. ثم انّها طردتها من عقلها وحياتها ولم تتعهدها مطلقاً، لا ماديّاً، ولا عاطفيّاً.

«موشي ديّان Moshé Dayan»

«ديجانيا» كلمة عبريّة تعني، أهراء القمح. وتشير إلى الاهراء التي أُنشِئَتْ في جنوب بحيرة طبريا، حيث يصب نهر الأردن، الذي بعد رحلته الكسولة خلال هذه البحيرة الواسعة الأرجاء من المياه الحلوة، يعرّج في طريقه نزولاً ليصب في البحر الميت.

وسط الجنائن الغنّاء، والهضاب التي تكسوها أشجار الصبر، والبساتين المثمرة «أقيمت قرية تستحق الزيارة» هذا ما يقوله دليل السياحة الإسرائيلي. كما أنّ المؤرخين الإسرائيليّين، ينصحون أيضاً بذلك، ملحّين ومشوّقين السيّاح للقيام بهذه الجولة. ولكنّ لهذا الالحاح، غاية في نفس يعقوب. وهم، يطلقون، اسماً ثانياً على هذه القرية، فيدعونها، أم «الكيبوتزيم». «والكيبوتزيم» هي فئة من الفئات اليهودية. وهذه القرية، تشكّل المستعمرة الزراعيّة الاشتراكيّة الأولى التي غرست في الأرض الفلسطينيّة المحتلة. وقد جعل منها الصهاينة، نموذجاً، ومثالاً يحتذى إذْ أنشأها البنّاؤون القادمون من روسيا سنة ١٩٠٩، وكانوا بأكثريتهم من الأوكرانيين الذين نجوا من المذابح في أيّام القياصرة، فاتجهوا إلى أرض الميعاد، وذلك بمساعدة «الأخوية اليهودية». وهي حركة يهودية، مستوحاة، من كتابات الفيلسوف اليهودي الألماني، «موسى هيس» وهو من روّاد الحركة الصهيونية.

لدى وصول المستعمرين اليهود، طهّروا هذا الوادي الخصيب من وباء الملاريا المستوطن فيه، ثم باشروا أعمال الفلاحة فبذروا، وغرسوا دون أن يهملوا أيّ صنف من القمح، والخضروات والأشجار المثمرة. ومن أوائل

الواصلين إلى المنطقة عائلة دايان ومن بينهم «صموئيل» «ودقورا». تزوجا سنة ١٩١٤، وفي عجلة من أمرهما، أنجبا في سنتهما الأولى من الزواج طفلهما «موشي» الذي أصبح فيما بعد، موضع شكّ وجدال بين الإسرائيليين، من حيث البطولة والإنجازات التي قام بها، وقد أطلقت عليه ألقاب وتسميات عديدة، : قاهر الصحاري، المحارب العنيد، المزارع الجندي. ولكن مهما قيل عنه وٱخْتُلِفَ في تقويمه فموشي دايان حلقة أساسية من الرجال الذين بنوا دولة إسرائيل.

في ثلاث مراحل، وخلال ثلاثٍ من الحروب التي خاضها، أسهم بكفاءته العسكريّة المعترف بها، في إنقاذ الجيش الإسرائيلي من هزيمة مؤكّدة. وقد اشترك، كوزير، في العديد من الحكومات، وكان لدبلوماسيته، الأثر الفعّال، في إيصال بلاده، إلى معاهدة السلام الوحيدة التي وقّعتها إسرائيل مع العرب، حتى الآن؛ المعاهدة التي أنهت حالة الحرب، مع مصر، اكبر وأقوى البلاد العربية المعادية، التي تحيط بها من جميع الجهات منذ سنة ١٩٧٩.

موشي ديّان لم تُعْفِهِ الأمراض:

كان، موشي دايان، دون أدنى شك، الخليفة البديهي الأكثر كفاءة للرئيس بن غورين إلّا أنّ الأمراض التي أصيب بها، والتي شاع صيتها في البلاد شوّهت صورته وخفّفت من وهج إسطورته، حيث، كل شيء يرى، ويسمع، ويؤخذ بعين الاعتبار، وخصوصاً على صعيد أصحاب السلطة والمجد، ممّا جعل مجلس النواب والحكم، يتجاوزه ويسقطه من حسابه.

وبالمناسبة، لا بدّ لنا من القول، أنّ كل من عرف، أو اختلط عن قرب بال ديان لاحظ أنّ أفراد هذه العائلة، لهم عقليّة خاصة بهم فهم يحبون الاستقلالية، ولهم شخصيات قويّة ويفضّلون العزلة والإنفراد. وقد اعترف موشي دايان، بهذه الصفات في مذكراته: «لكي أفكر، لست بحاجة إلى الكلام، ولا إلى السمع؛ وأشعر من وقت لآخر بحاجة إلى الإنفراد».

وهذا النوع من الحياة والسلوك، هو صفة مشتركة، بين سكان

المستوطنات الاشتراكية. فالحياة في هذه المستوطنات التي أصبحت فيما بعد إسرائيل كانت تفرض عليهم هذا النوع من الحياة الإنعزاليّة. إذْ يكون خلال النهار، الجميع في عملهم، رجالاً ونساءً، في الحقول، أو المصانع. ويشكّلون أثناء عملهم جماعات، ليتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم بصورة أفضل، ضد هجمات العربان الذين يتربصون بهم الدوائر. وكان كلّ منهم، يضع بالقرب منه أثناء العمل، وفي متناول يده سلاحه الفرديّ. أمّا في أثناء الليل فكانوا يتناوبون على حراسة مخابئهم. فلم يكونوا يشاهدون أولادهم، إلا لوقت قصير قبل العشاء. فكان الأطفال والأولاد مجتمعين دائماً في مكان واحد، تحت حراسة مشدّدة، خوفاً من الاعتداءات، ولا يعرفون سوى المعلّمات اللّواتي يتولين جميع أمورهم. فهذا النمط من الحياة، ولمدّة طويلة، يطبع من يمارسه بطابع الاستقلالية، والإنعزالية.

بقي آل دايان على هذا النمط من الحياة، حتى ضاقوا ذرعاً فولّوا الأدبار هرباً من هذا الجحيم. وغادروا «دجانيا» سنة ١٩٢١، مشياً على الأقدام، حتى وصلوا إلى وادي «جزرل» فنصبوا خيمتهم بين غيرها من الخيام، في موقع يدعى «نهالا»، التي أصبحت فيما بعد، نموذجاً جديداً في إسرائيل، إذ أصبحت قرية تعاونية. وقد أنشئت بشكل مستدير، يلفت الأنظار. ففي الوسط، أقيمت المنازل والمدارس، والبيوت الزراعيّة. أمّا الأراضي فقد قسّمت بالتساوي ووزّعت بطريقة القرعة. فكان من نصيب آل دايان، الحصة رقم (٥٣) التي اصبحت فيما بعد مزرعة العائلة. وهكذا كان سكان القرية؛ تسكن كل عائلة بالقرب من الاخرى، محافظة على استقلاليتها وملكيتها للحصّة التي كانت من نصيبها، تتصرف بها على الشكل الذي تريده. فكان المنزل ملجأً، أو عشّاً يلجأون إليه. أمّا «دفورا» والدة موشي، فكانت متعلّقة بالأرض. تجدها في الحقول دائماً، تعمل بيديها ورجليها، ولا تعود إلى المنزل إلّا ليلاً، لتأوي إلى فراشها. ولم تغادر أرضها، إلّا إلى مأواها الأخير، إثر إصابتها، بسرطان الكبد الذي أمتد إلى الرئتين ونال منها سنة ١٩٥٦. أمّا صغارها فكانوا يتنقلون متسكعين من مكان إلى آخر، ويعودون إلى العش في

أوقات متفاوتة، حتى تركوه وطاروا، إلى غير رجعة. أمّا الوالد «صموئيل» وهو «مناضل عمّالي ـ صهيوني» فأخذ يتجوّل في البلاد الأوروبية وفي العالم الجديد، يجمع الأموال لتغذية صناديق التنظيمات الصهيونيّة السريّة التي تخطط للاستيلاء على فلسطين. وبالعودة إلى «زوريك» «وأقيقا» أشقّاء موشي فقد انتقلا إلى لندن لإتمام دراستهما، خلافاً لأخيهما الأكبر «موشي» الذي ترك المدرسة، وهو في الرابعة عشر من عمره، منتسباً إلى عصابة «الهاغانا» الإرهابيّة السريّة، مدفوعاً بحبّه للعنف والمغامرة. وكانت البلاد تغرق في مرحلة رهيبة لا تنتسى، ممّا حدا بالأحداث والمراهقين إلى الاشتراك بلعبة البالغين من الرجال، كالقتل، والذبح، والنسف وغيرها من الأعمال البربرية. كلّ ذلك بالرغم من الوجود البريطاني، إذ أنّ فلسطين كانت قد وضعت تحت الانتداب كغيرها من البلاد العربية ضمن حصّة التاج البريطاني، إثر الهزيمة التي منيت بها السلطنة العثمانية، وتمزّق أمبراطوريتها الشاسعة في الحرب العالمية الأولى. كما نالت فرنسا الانتداب على سوريا ولبنان سنة ١٩٢٠ . وكان سكان فلسطين ينقسمون إلى مجموعتين: عربية، ويهودية. وكان كل فريق، ينظر إلى الفريق الآخر شزراً. وكثيراً ما كانوا يتناحرون ويختلفون على ملكية بعض الأراضي. والويل ثم الويل لمن يغامر بنفسه فيدخل، بطريقة الخطأ وخصوصاً إذا كان ليلاً، فيكون كمن سعى إلى حتفه بظلفه، إذ غالباً ما يضيع وتختفي آثاره؛ وخصوصاً عند اقتراب إندلاع الحرب العالمية. فكانت كلما اقتربت ازدادت العداوة والكراهية حدة بين الطرفين اللدودين أصلاً. فالعرب، تحيّزوا للمحور المؤلّف من المانيا، وإيطاليا، واليابان، وذلك ليس فقط اسوة بزعيمهم الكبير سماحة المفتي محمد أمين الحسيني الذي لجأ، إلى برلين ١٩٤٢، بل كرهاً ببريطانيا وجنودها الذين يساعدون الصهاينة ويناصرونهم على العرب، ويسرّبون السلاح والذخيرة إلى الهاغانا، ويدرّبون بعض أفرادها. وفي هذا السياق، لا بدّ لنا انسجاماً مع «ذكر كلّ ذي فضل بفضله» أنْ نخصّ بالذكر ضابطاً بريطانياً برتبة نقيب يدعى «شارل اوردر وينقيت». ومن المؤكّد أنهّ صهيونيّ قلباً وقالباً، وكان قد نال

سابقاً في «برمانيا» شهرة كبيرة، في تدريب جنود صاحب الجلالة، على القتال ليلاً. أمّا في فلسطين، فقد كلّف نفسه بتدريب شباب «الهاغانا» على القتال والدفاع الذاتي، وبشكل خاص تدريب الفتى موشي دايان وإعداده ليكون ذا شأن في الميدان العسكري. أمّا التدريبات، فكانت تجري، في مستعمرة «عين هارود» المشرفة على مدخل وادي «بيت شان» الذي كان يشكل البؤرة المناسبة لخبرات رجال الهاغانا، جيش اسرائيل السريّ. كما أنّه، في العديد من المعارك، التي كان النصر فيها على وشك. أن يكون إلى جانب العرب، كان جنود صاحب الجلالة يهبّون لنجدة حلفائهم «الهاغانيين».

وفي تلك الحقبة، في تموز ١٩٣٨، كان النقيب «وينڤيت»، يدرّب النخبة من «البالماش»، قوّة الصدم الصهيونية؛ وفي حينه تمكنت «الهاغانا»، من دسّ موشي دايان، برتبة رقيب أول، في صفوف رجال الشرطة المحليّة، المتعاونه مع البريطانيين. وهكذا، خلال سنة واحدة، وبموجب برامج مكثّفة تدريبيّة جعل منه البريطانيون، ضابط كومندوس فعّالاً. وقد أطلقت القيادة البريطانية على النقيب الإنكليزي «وينقيت» لقب «لورنس فلسطين».

وخلافاً لكل توقّع، ما كاد ينتهي دايان من تدريباته على يد النقيب «وينقيت» حتى اعتقل من قبل المخابرات البريطانية بتهمة القيام بنشاطات شبه عسكرية منافية للقانون. فحكم عليه بالسجن عشر سنوات، وذلك في ٥ تشرين أول ١٩٣٩، بدأ بتنفيذها في سجن «مار ـ حنا دارك»، لكنّه أخلي سبيله بعد سنتين.

سنة ١٩٤١، لم تكن بريطانيا، وجيوشها، في وضع مريح، (فقد كفاها ما تعرّضت له من الضغط المريع، من جرّاء الغارات الجويّة الرهيبة التي كانت تشنّها طائرات السلاح الجويّ الألماني على أراضيها ليلياً، وقد استهدفت العاصمة لندن، بشكل خاص).

ففي الشرق الأوسط، والبحر الأبيض المتوسط، كانت بريطانيا في صراع مع جيوش الشرق الفرنسية، بإمرة الجنرال «هنري ـ فرناند دانز»،

الموالي لحكومة «المارشال فيليب بيتان» المسماة: حكومة فيشي ـ وكانوا، بنفس الوقت، يخشون من عملية إنزال في لبنان وسوريا تقوم بها جيوش المحور، من إلمانية وإيطالية. وفي سباق مع هذه القوّات ومنعاً لمثل هذه العمليّة، التي فيما لو تمّت بنجاح، لمهّدت الطريق أمام النازيين، إلى العراق والخليج العربي، وبالتالي منابع البترول. كما أنّه، من البديهي حينئذ، انضمام تركيا إلى المحور؛ تركيا، التي تنتظر، على أحرّ من الجمر للاشتراك بحرب رابحة ضد الغرب، لتثأر لنفسها من الدول التي أذاقتها، مرارة الهزيمة النكراء في الحرب العالمية الأولى، والتي ما زال طعمها العلقميّ تحت لسانها حتى اليوم. ووجدت بريطانيا لزاماً عليها، أن تحتل هذه المواقع في لبنان وسوريا وطرد الجنرال دانز وقوّاته منها: ولم يكن لديها، سوى الاعتماد على نفسها، مستعينة في ذلك ببعض قوات التاج البريطاني من استراليا، وسكوتلندا، ونيوزيلندا. كذلك بعض الهنود والإفريقيين. كما هبّ لنجدتها الجنرال «شارل ديغول» بالقوّات الفرنسية الحرّة وبعض المتطوعين من الشرق الأوسط. أمّا موشي دايان، فلم يدع الفرصة تفوته، في محاولة لتلميع صورته في نظر البريطانيين. فالتحق بصفوفهم على رأس خمسين من إرهابييه. فاشترك في إحدى المعارك، حيث فقد إحدى عينيه إذ كان يستكشف بمنظاره، موقع مدفع رشاش معادٍ، فأصيب بطلقة، حطّمت المنظار وتناثرت شظاياه المعدنيّة والزجاجيّة في كلّ جهة. فاقتلعت إحداها عينه اليسرى وبعضاً من قاعدة أنفه. كما دخل العديد من هذه الشظايا إلى جمجمته. لكنه نجا بأعجوبة، وقضى بقيّة حياته معصوب العين. ومن هنا لقّبه العرب بالأعور الدجّال. أما مواطنوه الصهاينة فقد جعلوا منه إسطورة بطولية، فعظّموا من صفاته، وضخّموا إنجازاته، فذاع صيته، مخترقاً الحدود إذ أنّه عرف كيف يكسب ودّ الصحافة الوطنيّة والخارجيّة. فتمكن من شقلبة التراتبية العسكريّة والتسلّق بسرعة إلى المراتب العالية. ولكن من الأرجح أنّه لم يكن ليتوصّل إلى هذا النجاح المبكّر دون رعاية «بن غوريون»، الذي جعل منه فتاه المدلّل. وفي لفتة خاصة، طلب منه شخصيّاً، الانتساب إلى حزب «ماباي» سنة ١٩٤٦ . ومن ذلك الحين، لم يدع

فرصة، إلّا استغلّها لدفعه قدماً إلى الأمام. فأرسله لتمثيل حزب العمّال، في المؤتمر الصهيوني الذي انعقد في مدينة «بال» ومن ثم كلّفه بتنظيم الجهاز السرّي لمنظمة «الهاغانا». ثم ألحقه بخدمته كمستشار خاص له للشؤون العسكرية. وفي سنة ١٩٥٢ أرسل بن غوريون، محظيه لتحسين ثقافته العسكريّة في مدرسة الضبّاط البريطانيين العليا. ولدى عودته، في السنة التالية، رُقّي إلى رتبة جنرال ثم جعل منه رئيساً للأركان في الجيش الإسرائيلي، ولمّا يكمل الثامنة والثلاثين من عمره. ومركزه الجديد، سمح له، بإعادة تنظيم الجيش وتحديثه. ومنها إنقاص عمر التقاعد بالنسبة للقادة ذوي الرتب العالية وذلك إفساحاً في المجال للعناصر الشابة. كما أجبر كافّة الضباط على الخضوع لدورة تدريبية مظليّة حتى الحصول على شهادة في هذا المجال. وأحدث مناقلة واسعة بين العسكريين، ولا سيّما الضباط منهم، وغيرّ وبدّل في توزيع الألوية والفرق بموجب استراتيجية حديثة ونشرها على الحدود بحسب خطورتها وأهميتها.

في ٢٨ تموز ١٩٥٦ انتقلت «دقورا» والدة موشي دايان إلى الآخرة متأثرة، بورم سرطاني، تحمله في أحشائها منذ زمن بعيد، ممّا كان له وقع أليم جدّاً في نفس ولدها موشي. ولكنّه لم يشترك في تقاليد «الشيقا»؛ التي هي عبارة عن مجلس حزن، حيث يجتمع الأهل في مكان واحد لمدة سبعة أيام، ويتوافد الأقارب والأصدقاء، للتعزية. لكنّه، خوفاً من الظهور، حزيناً، كسير الخاطر، فيبدي ضعفاً لا يليق ببطل قومي مثله، آثر الانزواء، مختفياً عن الأنظار، كما أوضحت «يآل» ابنته، التي تعرفه جيّداً. ولم تكن هذه، هي المرّة الأولى. فكثيراً ما كان، يعتزل منطوياً على نفسه، خصوصاً، عندما كان يدور في خلده، ما يشغل باله ويقلقه. وفي عزلته الأخيرة أمضى وقته، في وضع اللمسات الأخيرة، للدور الذي أسند إلى الجيش الإسرائيلي، بالاشتراك، مع بريطانيا وفرنسا، في الإعتداء الثلاثي الشهير على قناة السويس، بعد تأميمها، من قبل الزعيم العربي الكبير المرحوم جمال عبد الناصر.

خروتشوف يهزم زعماء الغرب المرضى:

من المفيد، أن نشرح في هذه العجالة، الظروف التي ساعدت على تراجع حكّام الغرب عن غيّهم، وانسحاب جيوشهم من الأراضي المصرّية على عجل. ففي تشرين الثاني سنة ١٩٥٦، خلال الجلسة العاصفة التي وضعت الشرق في مواجهة عنيفة مع الغرب بخصوص، الأعمال الحربيّة، التي جرت فصولها في مصر. وفي تلك الأثناء كان «الرفيق» «نيكيتا خروتشوف»، يتربّع سعيداً، في قصر الكرملين، على رأس السلطة في الاتحاد السوفياتي أيّام عزّه. ورئيسه يتمتّع بكامل قواه العقليّة والجسديّة، محتقن الوجه، منتفخ الأوداج، يكاد يتفجر حنقاً وغيظاً، موزّعاً زئيره وزمجرته في كل اتجاه، متوعداً مهدّداً باستعمال القنبلة الذرّية، وكان ينظر شزراً في وجوه الحضور بعيون تكاد تقدح شرراً. وقد خصّ، «أنتوني إيدن» بالقسط الأوفر من لفتاته الكريمة، فانهار تماماً، عندما علا هدير موسكو. وبدا متهدّماً متقوقعاً، مهزوماً، مسلوب الإرادة. وكانت هذه الظاهرة مستغربة عند رئيس وزراء بريطانيا، الذي خطّط وكان له الدور الأول في اجتياح الأراضي المصرية. إنّما فيما بعد، أوضح الأمر اللورد إيفن، طبيب الرئيس إيدن الخاص، الذي أعلن أنّه خلال هذه الحقبة، كان إيدن مريضاً، يتعاطى مادة «البنزدرين» ليتمكن من التحامل على نفسه، ويحافظ على مظهره، كرجل كبير، في محاولة فاشلة لتقليد معلّمه «ونستون تشرشل» لكنّه طقطق، في اللحظة الحاسمة مقتنعاً من الغنيمة بالهزيمة.

أمّا الرئيس الأميركي، فمن جهته، لم يكن في وضع أفضل. فحالته الصحيّة لم تكن تسمح له بالمحافظة على رباطة جأشه، ومواجهة السوفياتي العنيف، إذ كان بدوره مريضاً، يشكو من صعوبات قلبية حادّة. كما أنّه، منذ برهة وجيزة، أخضع لجراحة كبيرة، لإستئصال قرحة معوية متقدمة. كما أنّ وزير خارجيته، المؤهل، والأكثر جدارة بمساعدة رئيسه: جون فوستر دالس، مريض بدوره، يشكو من ورم سرطاني خبيث في مؤخرته؛ وإذ كان على معرفة تامّة بحالته الصحيّة وباقتراب نهايته، انفتح لخلفه «دين رسك» سنة

١٩٥٩، الذي أصبح وزير الخارجية في عهد كندي، وجونسون «فقال هل تعرف، لو كنت بكامل صحتي، ولم أكن في تنازع بقاء مع سرطاني، لكنت عالجت أمر قناة السويس، بشكل مختلف تماماً».

موشي دايان يمارس السياسة:

سنة ١٩٥٧ انتهى الاحتلال الصهيوني، وانسحبت جيوشه من سيناء. فانسحب موشي دايان من الجيش، واضعاً حدّاً لحياته العسكرية، كغيره، من كبار الضباط الذين أحيلوا إلى التقاعد. فاقتحم المعترك السياسيّ، موظّفاً إنجازاته، وشهرته، في ميدانه الجديد. فدخل «الكنيست» من بابه الواسع، كنائب عن حزب بن غوريون «الماباي». واشترك في وزارته كوزير للزراعة سنة ١٩٥٩ . ولدى استقالة «العجوز» حافظ على وزارته، في حكومة «لافي أشكول». وكانت مرحلة ذهبيّة بالنسبة إليه كما كتب مترجمو سيرته. في الحقيقة بدأ يفتتي، إذ ظهرت عليه معالم الفضفضة، والرحرحة وأصبح يتصرف بطريقة أهل الجاه والثروة. وفي نزوة ملحّة لا عهد له بها، أخذ يجمع الأثريات، بشكل أو بآخر، وبطرق ملتوية في بعض الأحيان، فيكدسّها في فيلته الجميلة، وحديقته المنسّقة، في ناحية «زحالا» إحدى ضواحي «تل أبيب».

وعلى سبيل التسلية وانسجاماً مع نفسه كمزارع، كان يلجأ إلى زراعة الزهور والخضروات في أوقات فراغه، أمّا... المغامرات النسائية فكانت تجري بشكل هادىء ودون ضوضاء، كثعبان ينسلّ تحت التبن. وعلى كل حال، فثمة مثل في هذا المجال يقول: «موت الفقير، ومغامرات الكبار لا يدري، ولا يتكلم بها أحد».

عشيّة الحرب الإسرائيلية ـ العربية، استُدعي موشي دايان إلى وزارة الدفاع، في حزيران ١٩٦٧ . فأقراص الشهد، التي تذوّقها ثمن شهرته، كانت من النوع الذي لا ينسى. لذا، هرول مسرعاً ملبيّاً الطلب؛ فإذا بالسبب، هو تسلّم رئاسة الأركان، عوضاً عن اسحق رابين، المصاب بتسمّم

من كثرة التدخين. فقام بمهامه الجديدة بكفاءة ونجاح. فضمّ القسم الشرقي من القدس، الذي كان تحت السلطة العربية، وأصبحت المدينة بأَسْرها ترزح تحت الاحتلال الصهيوني البغيض.

إثر انتصاره، وموت «لافي أشكول» وقد سكر دايان، بنشوة النصر، وتوصّل إلى القمة، وذاع صيته وتعاظمت شهرته، ظنّ أنّه، سيكلف بتشكيل الوزارة. وقد غاب عنه، أنّ ذلك يزعج العمال ويرعبهم، فخاب ظنّه، إذْ فضّلوا غولدا مئير عليه على الرغم من مرضها الخطير. ولكن هذه الأخيرة، لم يفتها تكريمه، فوضعته، في مكانه الأنسب، إذ كلّفته بوزارة الدفاع، ربّما على سبيل التعويض. لكنّه، وعلى الرغم من قبوله المركز الجديد، رأى، أنّ ذلك التعويض جزئيّ، لا يتناسب ومؤهلاته، وإنجازاته، في خدمة الكيان العبري. فقبع في منزله حزيناً، يجرّ خيبة الأمل المريرة.

دايان في بداية النهاية:

في صيف ١٩٦٧، بعد انتصاره في حرب الأيام الستة، تعرض دايان لحادث كاد يودي بحياته. ففي إحدى تنقيباته الجنونية، عن الكنوز والأشياء الأثرية، داخل إحدى المغاور القديمة بالقرب من خرائب «أشكلون» الكنعانية، فوجىء بانهيار كبير، دفن تحته، وبعد كفاح أليم تمكن من إنقاذ نفسه بعد ساعات طويلة بمساعدة رعاةٍ، ساقهم القدر إليه. نقلوه إلى المستشفى، حيث بقي ثلاثة أسابيع عاجزاً عن النطق، ولدى عودته إلى منزله، كان متمنطقاً بحزام من الجص، لازمه لمدّة طويلة. وفي حديث صحفيّ، لا يخلو، من المرارة والحنان خصّت به ابنته «يآل» جريدة ستوك الباريسية، سنة ١٩٨٥، عبرّت فيه عن قناعتها، بأنّ الحادث الذي تعرض له والدها، كان بداية انحطاط جسدي، يتفاقم مع الأيام، ولن يتمكن إطلاقاً من العودة إلى سابق عهده من الصحة والنشاط. وفي حالته الراهنة، قبع دايان في منزله منعزلاً. وقد اختار السجن الإختياري حيث لا يكفّ عن الشكوى والتظلّم، وكان لا يكاد يستفيق من ضربة على رأسه حتى يصاب بأشد منها؛ ممّا أنهكه

وحوّل أيامه إلى جحيم. فبعد انتحار شقيقته «أقيقا» بالسم، سنة ١٩٦٩، وقد كانت مصابة بنوبات عصبية، تعاودها، من حين إلى آخر منذ أمد بعيد، بلغه خبر موت صموئيل والده، ممّا هدَّ كيانه، فلجأ إلى العقاقير المهدئة، من جميع الأنواع والعيارات، ففقد صوته، ولكنه حافظ على وعيه كاملاً. وتابعت يآل ابنته تقول «ممّا أقلق والدتي كثيراً، فطلبت من الأطباء منعه عن تناول العقاقير وابتلاع المسكنات، فاقترب كثيراً من الإدمان. وما كاد يتماثل للشفاء حتى حلّت المصيبة العظمى، التي كانت تنتظره منذ بعض الوقت. فكانت بمثابة رصاصة رحمة سددت إلى قلبه. فزوجته «روث» طلبت الطلاق. طلبت الطلاق من الرجل الذي خبا نجمه وأصبح، شبه معاق، يقبع شاكياً متحسراً على نفسه وماضيه، والذي أصبح مختلفاً تماماً عن موشي إله الحرب، موشي المتغطرس، الذي عرفته منذ خمسٍ وثلاثين سنة فربطت حياتها بحياته.

بناءً على أقوال، حاشية البطل المتعب، فإنّ حالته تفاقمت، حتى انعكست سلباً على واجباته، كوزير للدفاع. فكانت نصائحه وتوصياته لرئيسة الوزراء غولدا مائير، المنهكة القوى، من التقدّم بالعمر، والمرض، تسير من سيّء إلى أسوأ، حتى أغرقها بمواقف سياسية راديكالية متطرفة وأصبحت شديدة التصلّب في تعاطيها مع العالم العربي، فرفضت كل حوار ورمت كل النصائح وراء ظهرها فيما يتعلّق بالأراضي المحتلة، ممّا عرّض إسرائيل لهجمات وتعدّيات مبررة من قبل الرأي العام العالمي.

دايان، من جهته، أهمل إعادة تطوير وتجديد القدرات والتقنيات الحربية لدى جيشه، إذ كان باعتقاده، أحسن جيوش العالم.

وفي هذا المجال، كتب دايان سنة ١٩٦٧ قائلاً: «لقد جئنا إلى بلاد مأهولة من أعراق وطوائف معادية، وبنينا دولة يهودية؛ ممّا لم يعجب العرب، فحكم علينا، أن نعيش حياة عدائية حربية أبدية». وفي مرحلة استرخاء وحنين، تزوج للمرّة الثانية في حزيران ١٩٧٣. ومن الطبيعي، أن يتلهى بوضعه الجديد متناسياً واجباته ومهامه الدفاعية وما يدور، وما يقال من حوله. إذ كان الرئيس أنور السادات، قد صرّح بأنّه سينهض من كبوته

وينفض عن بلاده غبار الإستكانة، والقبول بالوضع الراهن. وقد اشترى من الولايات المتحدة قاذفات مياه قويّة ومتطورة جدّاً، تستعمل لإطفاء الحرائق. ولكن، كان للمصريين فيها مآرب أخرى، إذ استعملوها لهدم الحائط الرملي المقام، على طول ضفّة قناة السويس حيث تحصّن خلفه الجنود الإسرائيليون.

وبعد شهور أربعة، وفي يوم الغفران، العيد الديني المقدس عند اليهود. وهو عطلة رسمية، يسيطر على البلاد في أثنائها، جوّ من التراخي والكسل، كما أنّ ربع عديد الجيش يكون في مأذونية، ومؤسسة الاستخبارات السرّيّة الشهيرة، التي لم تفشل في يوم من الأيام، كانت نائمة، اقتحم الجيش السوري مراكز وتجمعات الصهاينة في الجولان، فشرذمها ومزّقها، وقتل من قتل، وأسر من أسر، محرّراً جزءاً حبيباً من الأراضي السورية المقدسة. أما الفصائل المصرية فقد زرعت الضفة الشرقية، من القناة، بباصقات اللهب الممهوة، والمدافع البعيدة المدى، ومختلف أنواع الأسلحة. فهدمت الحائط الفاصل بينهم وبين الإسرائيليين، ودكّتهم دكّاً، وأصلتهم ناراً، ولا نار الجحيم.

بالعودة إلى بطل صهيون، وفتى إسرائيل المدلل، موشي دايان، كان يُحتمل أن يكون مالكاً كل شيء، ما عدا البطولة والإقدام. فقد جلس قبالة غولدا مائير، مشدوهاً، وقد تدلى فكّه الأسفل، لا يدري ماذا يفعل وقد خانه النطق. في ذلك السبت الواقع في السادس من تشرين الأول ١٩٧٣، بينما المدافع العربية بهديرها الذي يصمّ الآذان، تدكّ المراكز العسكرية الصهيونية فتتطاير أشلاؤهم في كل اتجاه، كانت عجوز إسرائيل غولدا تزرع أرض غرفتها ذهاباً وإياباً، وهي تصرخ بصوت مبحوح من وقت لآخر: مستحيل يجب أن نعمل شيئاً، أي شيء، أليس من علاجٍ؟! وبعد أن كرّرت ذلك، عشرات المرات، نطق دايان بذلٍّ وانكسار، قائلاً: «ليس أمامنا، سوى ترك ضفة القناة، والتراجع إلى الوراء للتمركز في خط قتالي ثانٍ»، فنظرت إليه غولدا، نظرة لا تخلو من الاحتقار والاشمئزاز، ثم ارتمت على كتف «لو كادار» سكرتيرتها الوفية باكية. فتمتم دايان: «أريد أن انتحر». وذهب إلى مكتبه ثم عاد يحمل كتاب استقالته متعثّراً. إلّا أنّ غولدا، التي ما زالت تجهش

بالبكاء، أشارت إليه بالخروج. ثم صفقت الباب وراءه فأحدث صوتاً يحاكي صوت أحد المدافع.

ما أن عادت غولدا مائير إلى نفسها، حتى استدعت، الجنرال ألعازر، رئيس اركان الجيش الإسرائيلي. فامسكت بتلابيبه، بكلتا يديها قائلة: «إنّني أمنحك السلطة المطلقة، إفعل شيئاً، أيّ شيء»! فدخل دايان، وليس لديه، سوى أن يعرض استقالته مجدداً، عوضاً عن القيام بأحد عروض القوّة والعضلات، التي جعلت منه بطلاً قومياً، في يوم من الأيام. ممّا جعل حتى «يآل»، ابنته، التي تحب والدها حتى العبادة، تذهل أمام تصرّف والدها. فقالت: «إنّ حرب يوم الغفران فاجأتنا دون دفاع. بينما كبار رجالنا، أبطال ١٩٦٧، عراة، غارقين في بحر من الملذات» (ومن المعتقد أنها كانت هنا تعني والدها المتزوج حديثاً). وهكذا، لم تكن إسرائيل مستعدة لمقاومة الإعصار الذي زعزع الأرض تحت أقدامها. في هذا المجال، وبالنظر لكثافة النيران العربية التي تنصب على إسرائيل، قال كبير الحاخامات، في حينه: «لا يبدو هذا النهار كيوم الغفران، بل يبدو كأنّه يوم الدينونة، وقد فتحت جهنّم أبوابها على مصراعيها». ولكن وللأسف الشديد، لم تكتمل الفرحة، إذ هلعت الولايات الأميركية المتحدة على لقيطتها، فعلا صراخ رئيسها نيكسون وحكومته. وجنّد مئات طائرات الكلاكسي العملاقة، المحملة بالسلاح والذخائر، في رحلات مكوكية إلى إسرائيل. كما أنّه حرّك جيوشه في جميع أقطار العالم، وجعلها في أقصى درجات الاستنفار. وأعطى أوامره للاسطول بالتوجه إلى الشرق الأوسط. كلّ ذلك، في إشارة واضحة لمنع الاتحاد السوفياتي من التدخل، ولإجبار الجيوش العربية على التوقف عن توغلها المظفّر، في عمق الأراضي العربية المحتلة وتحريرها من رجس الاحتلال الغاشم.

بقرار من مجلس الأمن، الذي التَأَمَ على عجلة، ليتلو القرار «الذي أعدّته الولايات المتحدة مسبقاً» كتلميذ، يتلو أمثولته أمام أستاذه المتسلّط. توقّف العرب عن هجومهم مكرهين. ذلك الهجوم، الذي أعدّه بدقة، بطل

العرب التاريخي الرئيس حافظ الأسد بالتنسيق مع الرئيس الداهية، انور السادات والأسى يحزّ في القلوب، وقد ذهبت آمالهم الكبيرة.

أمّا في إسرائيل، فقد هالتهم الهزيمة النكراء، واندحار جيشهم «الذي طالما ردّدوا، أنهّ أفضل جيوش العالم». وإنقاذاً لماء الوجه، شكّل الصهاينة لجنة تحقيق (لجنة أغرانات) لدرس أسباب الفشل، وتحديد المسؤولية. ولكنّ هذه اللجنة، حرصت على عدم تسويد صفحة، عجوز إسرائيل غولدا مائير وبطلها القومي، موشي دايان. فلم يعلنوا رسمياً، فشلهما، ومسؤولياتهما. بينما طالت سواهما، عقوبات تفاوتت بين توجيه لوم، أو المناقلات التأديبية والوضع في الإستيداع، وحتى الإعفاء من المسؤولية. فأربعة من كبار ضباط المخابرات ورئيسهم الجنرال صموئيل كونن، أُحيلوا إلى الاستيداع في تشرين الثاني ١٩٧٣، ثم أعيد إلى مركزه بعد سنة؛ ولكن ليس لمدة طويلة إذ عاد، دايان، فأعفاه من مهماته، بحجة التقصير في واجباته.

عاد صموئيل كونن إلى أفريقيا الوسطى، حيث كان سابقاً يستخرج الماس. وقد صرّح في هذا المجال: «كان عليَّ أن أقتل دايان، فهو الذي لم يستدعِ الاحتياط في حينه، فإذا كان ثمّة تقصير، فدايان هو المخطىء والمقصّر الوحيد، وقد حمّلني نتائج تقصيره، والأكثرية الساحقة من الإسرائيليين، تشاركني الرأي، وبرهاني على ذلك، التهجمات والاستنكارات اللّاذعة التي طاولته، حتى بلغت حد المظاهرات الشعبيّة العارمة التي طالبت بمعاقبته، ممّا شوّه صورته، ومرّغ سمعته بالوحول. وكانت الجماهير الغاضبة، تنعته بأقبح النعوت». لقد نفّس دايان. «لقد أفلس». إنّه مجرم بحق الوطن. ولكن من جهته، كان يبتلع هذه التهجمات اللاذعة، بغطرسة واشمئزاز، دون أن يعيرها أيّ اهتمام؛ هذا على الأقل ظاهرياً، ولكنه لم يحاول تفسير سلوكه. كما أنّه، في مذكراته أغفل ذكر أي شيء عن تلك المرحلة المشينة، لا من قريب، ولا من بعيد، ممّا يوضح جليّاً، أنه جبّار متكبر، يعبد نفسه، غير مكترث بآراء الآخرين.

دايان المريض وزيراً للخارجية:

بعد أربع سنوات، أثار دايان، موجة جديدة، من الإستنكار والإستهجان، عندما قبل بأن يصبح وزيراً للأعمال الخارجية، في الحكومة الأكثر وطنية، التي شكّلها مناحيم بيغن بعد انتصاره الساحق في الانتخابات التشريعية. ففي هذه المرّة، قام حزب العمّال، ونادى بالويل صارخاً: «يا للخيانة»! ولم يكتفِ البعض، بهذا الحد من التجريح، إذ قال أحدهم: إنّ أباه وأخاه، كذلك، بن غوريون، يرتجفون في قبورهم». ولكن على عادته لم يكترث للأمر، بل كانت تعلو شفتيه ابتسامة ساخرة.

ماذا يبغي دايان من وراء هذه المغامرة؟ أهي محاولة للهروب إلى الأمام؟ أم لإسدال ستار النسيان على المأساة العسكرية التي جرت فصولها في ١٩٧٣؟ أو ربّما اعتقد أنه سينجح في الدبلوماسية فيعوّض عمّا فاته سابقاً، وذلك لمعرفته التامة بالعرب، وتمكّنه من اللغة العربية، ومعرفته التامة، بأدق تعابيرها. ولا عجب في ذلك فقد ترعرع منذ طفولته مع صغار العرب يلعبون ويمرحون سنين طويلة حتى بلوغه سن المراهقة. ممّا يشكل بنظره، عاملاً إيجابياً مهمّاً، يساعده، في أداء مهماته في وزارة الخارجية، وفي بسط جوّ السلام والتفاهم مع جيرانه.

لكنّه كان من الناحية العملية مهندساً يبزّ بيغن. كان مهندساً للتقارب الذي حصل بين مصر والكيان العبري. فقد أسهم، بشكل واضح في هذا الاتجاه، برحلته التاريخية إلى القدس في تشرين الثاني سنة ١٩٧٧، وكرّس كامل جهوده، ودون حساب لإنجاح المحادثات، التي جرت، بضيافة الرئيس كارتر في مخيم داوود خلال سنتين، والتي لاحظ المراقبون في أثنائها على دايان تدهور حالته الصحية وإنحطاط قواه الجسدية، ممّا جعله يستقيل من حكومة بيغن، بعد التوقيع على معاهدة السلام في واشنطن، سيّما وأنّه قد أجريت له جراحة لإستئصال ورم سرطاني خبيث في الأمعاء.

يآل دايان تكتب عن امراض والدها:

كتبت يآل في مذكراتها عن والدها، فقالت: «لقد بدأت الأعراض المرضية، تظهر بوضوح على وجهه وتصرفاته، إثر الإنهيار، الذي تعرّض له في إحدى المغاور، خلال تنقيبه عن الكنوز والآثار التاريخية. فعلى أثر أحداث ١٩٧٣، حرب يوم الغفران، وحملة التشهير التي استهدفته، أصيب بقرحة معوية حادة كانت ضريبة الغيظ المكبوت. وابتداءً من ١٩٧٥، أصبح عضواً في نادي الأمراض القلبيه. فقد أصيب بذبحة قلبية صغيرة، غابت عن أطبائه في حينها، لكن آثارها اكتشفت من قبل الأطباء النمساويين في ڤينّا، حيث أجرى فحوصات إشعاعية، خلال إحدى رحلاته الإستجمامية. ومن ذلك الحين، أصبحت الآلام التي نتجت عن تلك الإصابتين تعاوده بصورة روتينية ومتزامنة، فآلام مبرّحة، في الجهاز الهضمي، بعد ساعات قليلة، من كلّ وجبة، من وجبات الطعام، وضيق وآلام في الصدر عند قيامه بأي مجهود جسماني، حتى لو مشى لدقائق معدودة وكثيراً ما كان يستيقظ ليلاً، متألماً وينال منه الأرق، وكان دايان، على معرفة تامة بهذه النوبات، ويحسب لها ألف حساب، ومن باب الحيطة امتنع عن تناول القهوة، أو الاقتراب من الكحول، إنّما كان يلجأ إلى تخفيف آلام قرحته، بمادة السيميتادين. وهي مادّة فعّالة، اعتمدت في معالجة القرح المعوية في ال ١٩٧٥ . ولكن عكس ذلك، ورغم عذابه المرير، في كثير مَن الأحيان، من الآلام القلبية، لم يكن يتعاطى أيّاً من العلاجات التي وصفت له، أو، يراعي أيّاً من توصيات أطباء القلب وكبيرهم البروفسور «مرفن غوستمان»، الذي كان يعالج في الوقت نفسه «مناحيم بيغن».

عندما كان يتعرض لآلام نوبة قلبية حادّة - تضيف ابنته - كان يحبس نفسه في الحمّام، فيتكيء على يديه، وقد أبعد ما بينهما على الحائط، منتظراً الفرج وانحسار النوبة، وفي حالات نادرة جدّاً، وعلى سبيل المفاخرة، لا الشكوى، كان يفصح عمّا يصاب به، وكأنّه يروي إحدى بطولاته، وقوّة احتماله وكان يعلن دوماً عن ثقته التامة، بأنّ الطبيب لا يزال عاجزاً، عن

شفاء الانحطاط في الأوعية الدموية من جرّاء التقدّم في العمر، وكل ما يصفه هو علاج سطحّي، لا يقدّم ولا يؤخّر. فكان يطرح الأدوية والعقاقير جانباً بصورة مبدئية، حتّى عندما يشرحون له، بأنّ هذه العقاقير تريحه وربّما لعدة سنوات. وكان هذا الامتناع عن تعاطي العلاج بنظر الأطباء نوعاً من الانتحار، وكان يجيب على ذلك: «إنّكم جميعاً، لا تفكرون سوى بالموت، فمن جهتي أنا أسخر بالموت ولا أخافه، فقد واجهته مراراً في ميادين القتال، لست أكثر شجاعة من الآخرين، ولكنني منذ طفولتي وحتى الآن، لم أعرف معنى الفزع والخوف».

وتابعت ابنته، روايتها، عن تاريخ والدها الصحيّ، فقالت: لدى عودته، في حزيران ١٩٧٩، من إحدى رحلاته الرسمية إلى الشرق الأقصى، قرر موشي دايان، أن يجري فحوصات متقدمة لجهازه الهضمي. بعدما أصبحت تنتابه أوجاع، لا عهد له بها كما أنّه أصبح يلاحظ، منذ سنة، بعض المشوحات الدموية في خروجه فتبين للأطباء، أنّه مصاب بورم معوي خبيث. لم يفاجأ بذلك، إنّما، تساءل: متى يمكنكم إجراء الجراحة؟ وبعد ثلاثة أيام قام أطباء مستشفى «تل ـ هاشوفير» بإستئصال قطعة كبيرة من معيه (مصرانه) الغليظ وبقي في المستشفى لمدة عشرين يوم عاد بعدها إلى قبيلته في «زاهالا». ثم استقال من حكومة «بيغن» في تشرين الثاني، بمرارة وخيبة أمل وقد ظنّت خاصته، بأنّه قد وضع حدّاً لحياته السياسية، وسيكرّس نفسه للبحث عن الآثار ولكنّه لم يكن ليكتفي بدور المراقب، فقرر العودة إلى الحياة العامة، ليُسمع صوته في الكنيست، وبالتالي ليرشّح نفسه للانتخابات المقررة في ١٩٨١ ممّا يسمح له بثمانية عشر شهراً للاستعداد لها. وكان على يقين تام، من أنّه سيعود إلى مركزه في لائحة مرشحي حزب العمّال، لكنّ رفاقه القدامى، صفقوا الباب في وجهه، فلم يكن منه، وهو الذي يحمل في دمائه بذور المقاومة، إلّا أن قرّر تأليف حزب خاص به، هو حزب «تالم». فكان نصيبه الفشل إذ لم ينل حزبه سوى مقعدين فقط في البرلمان. أمّا العامل الرئيسي في فشله، فكان كناية عن وريقات، وزّعت على المواطنين تشرح حالته الصحية

بشكل مفصل (مع قليل من المبالغة دون شك) وقد بلغت الوقاحة بأحدهم حدّاً جعلته يقول: «عن أيّ برنامج ومستقبل تحدثنا وأنت لم يبقَ لك من الحياة سوى أيّام معدودة».

خلافاً لما اعتقده الأطباء، فلم يتركه السرطان، بل أخذ يتمدد، وأخذت أعضاؤه تتداعى الواحد تلو الآخرْ. ثم أجريت له جراحة فتاق ألَمَّ به، ولكنه لم يتحملها، بسبب تفاقم حالة وريده التاجي، فشحَّ نظره بشكل مريع. وقد ارتأى أخصائي النظر، أنّه سينتهي إلى العمى. وقد أفادت يآل، بأنّ والدها قد عاش أربعة وستين عاماً فقط، وبأن السنتين الأخيرتين، أي الخامسة والسادسة والستين كان يحتضر فيهما. في الحادي عشر من تشرين الأول، أصيب بذبحة قلبية حادة، وخلال ثلاثة أيام كان يرفض الأطباء والانتقال إلى المستشفى، ولكن في الخامس عشر منه استدعيت عربة إسعاف، وفي منتصف الليل، رفض الحمّالة، فقام ومشى على قدميه عابراً حديقته الجميلة، التي طالما تغنى بها. واستلقى في العربة وحيداً. وفي السادس عشر من تشرين الأول ١٩٨١، أصيب، وهو في قاعة العناية الفائقة، بذبحة قاتلة أودت به.

في اليوم التالي، وكان قد أوصى بأن تكون جنازته بسيطة، لم تطلق المدافع، إنّما حمل نعشه ستة من جنرالات الجيش العبري إلى مثواه الأخير. والجدير بالذكر، أنّ آلاف المواطنين تراكضوا واحتلوا جوانب الطرق، وكان معظمهم، من العرب، وخصوصاً من الدروز. ووري التربة السوداء المحروقة التي تشبه تماماً التربة التي غمرته في أحد الأيام أثناء تنقيبه عن الكنوز الأثرية في أحد مغاور «عازور». وقد مدّد بالقرب من شقيقه وشقيقته. وأنهت «يآل» حديثها قائلة: «إن أنْسَ فلن أنسى، التعبير عن الغضب الشديد الذي ارتسم على وجهه، وهو يسلّم الروح».

«مناحيم بيغن: Menahem Begin»

تابعت الولايات الأميركية المتحدة حياتها، بطريقة أو بأخرى، في عهد رئيسها رونالد ريغن، خلال حقبتين. لقد عايش الأميركيون الكثير من الرؤساء غيره، ومن المحتمل، أنّ بعضهم كان أسوأ منه، لكنّهم، أصبحوا في عالم النسيان، منذ أمد بعيد، هكذا كان الرئيس «أوليس سمبسون غرانت» فهو ابن مزارع من ولاية أوهايو، أصبح جنرالاً، إنهّ «الجنرال المنتصر في حرب الانفصال، أي الحرب الأهلية المدمّرة». كان مُدمناً للخمرة، يعاقرها منفرداً، بعيداً عن الناس، بصورة شبه متواصلة، حتى أصبح مصاباً بالتسمم من جرّائها، وكثيراً، ما كان يُشاهد مخموراً، كئيباً مقطّب الجبين، متبرّماً يخرج عن طوره في ثورة غضب، غير مبررة. رغم كلّ ذلك، انتخب رئيساً للبلاد، مُستفيداً من الهياج الكبير، والاحباط، الذي سيطر على أميركا، إثر مقتل الرئيس، «ابراهام لنكلون».

استعاض بخمرة السلطة والحكم، عن الخمرة المقطّرة من الحبوب، التي كان يفضّلها، فيغبّها بنهم، في محاولة للسيطرة، على سأمه وتبرّمه بأحوال البلاد. ولكن ذلك كان مرحلة عابرة باعتقاد المحيطين به، والعارفين بأمره. كما أنّ هذا الزهد بالخمرة، لم يساعده للتوصل إلى الحسّ السياسيّ المطلوب، والتفكير السليم، فأحاط نفسه بشلّة من المستشارين الجهلة، يأخذ بآرائهم المرتجلة وينفّذ توصياتهم المسلوقة، دون درس أو تمحيص، وكثيراً ما كانت لمصالح شخصيّة ضيّقة. وفي خطوة ناقصة غير مسؤولة، قام بها، تنكّر لحزبه، الحزب الذي حمله إلى السدة.

إثر ذلك، تركه الجمهوريون، فلم يتمكن من العودة إلى البيت الأبيض كما كان يشتهي. فعاد إلى سيرته الأولى في معاقرة الخمرة وقد حاول أن يمتلك المقدرة والسلطة الماديّة، ولكن دون جدوى فانزوى منفرداً، وقد أُصيب بتآكل ذاتي وضيق عصبيّ مدمِّر ممّا أفقده دفاعه ومناعته الصحيّة ضد الأمراض، وفي خاتمة المطاف خرّ صريع سرطان قاتل، أصيب به في لسانه.

أمّا البرازيل، فمن جهتها، عندما نال منها انهيار اقتصادي مدمّر، عقدت آمالها الجسام على معجزة يقوم بها النجم الساطع «تانكردو نافذ». أما الاتحاد السوفياتي وقد وصل إلى سدة الحكم «ميكائيل غوربتشيف» «الرجل الواقعيّ المثاليّ» الذي كانت البلاد تنتظر منه إدخال دماء فتيّة جديدة إلى الإدارة. ويظهر بأنّ السوفيات نسوا، أو تناسوا، داء الريقان المزمن الذي أقعده قيد المعالجة أربع سنوات، لا يقوى على الحركة من جرّاء فقر متقدّم في الدم، الذي يصيب، عادة، المصابين بالريقان. كثيراً من رجال العلم، لا سيّما العلوم السياسيّة، ومن بينهم أحد وزراء الرئيس «جورج بومبيدو» يعتقدون، بأنّ الأمراض التي تصيب بعض الزعماء والقادة، تؤثر سلباً على مستقبل البلاد، لكن اقل بكثير ممّا يحاول تصويره البعض من المغرضين.

من المؤكّد، أنّ هذا الرأي لن يحظى بتأييد جماعيّ من قبل علماء الاتحاد السوفياتي الذين أسقطوا الرئيس «اندره شاكاروف» أو اليهود الروس، وثوّار الأفغان، وجياع البرازيل، ولا حكّام الولايات الأميركية، ورجال المال والاستثمارات وأعضاء الكونغرس، الذين حقّقوا في فضيحة «إيران كات».

بالمقابل، فإذا كان من المؤكد، أنّ النظام السوفياتي، بقي يعمل ويدور تلقائياً، في عهد «اندربوف ـ تشرنانكو» والبرازيل المتحشرج لم يغرق، كذلك الولايات الأميركية، في عهد ريغان، الذي يغطّ بالنوم، تابعت سيرها بالتوجيه الذاتي الأوتوماتيكي. فذلك بالحظ والفال الحسن، إذ لم يقطع عليها جبل من الجليد القائم، والبلاد سائبة دون أيّ رقيب، أو ربّان ماهر يسهر على حسن توجيه دفة الحكم.

إنّ إدارة البلاد والشؤون العامة، لا يمكن أن تعتمد على القدر والصدفة. قد ترى الديمقراطيات، أنّ ممارسة الحكم، تتطلب الكثير من القوّة، والتحرّك بصورة دائمة من قبل البرلمان، وليس عليها الاهتمام، بصورة رئيسية، بصحة رئيس البلاد؛ فهذه مسألة ثانوية بالنسبة إليهم. فالرئيس، ليس سوى واجهة، أو عنوان وفي أحسن الأحوال، المتكلم باسم البلاد. أما الحكم عمليّاً، فهو مسؤولية السلطات التشريعية أوّلاً، والتنفيذيّة ثانياً. فهذه السلطات هي المسؤولة عن شؤون البلاد وسلامتها. وفي هذا المجال، تسهر شركات الطيران بيقظة ودقّة، على صحّة موظفيها الذين يطيرون، من طيّارين وملّاحين ومضيفين، ولولا ذلكّ لما وثق بهم المسافرون، على الرغم ممّا يقوله البعض، بأنّ المرض يفشل اكثر الناس دقّة؛ فيهاجم دون سابق إشارة أو إنذار؛ حتى أكثر الأشخاص صلابة وحيويّة. ينسون هذا الواقع، «فمناحيم بيغن» نسي هذا الأمر، ودفع الثمن غالياً، إذ أغرق، بلاده إسرائيل، في أكبر كارثة خلال تاريخها الحديث.

يقول «تي تسنغ» الفيلسوف الصيني: «إنّ خيول الحرب، تبصر النور على الحدود» وهكذا بالنسبة إلى بعض الرجال، فقد ولد مناحيم بيغن وعاش في «برست ـ ليتوفسك» من «ليتوانيا» وهي تقع عند ملتقى نهرين، نهر الموكافتس والبوتح. وهذه المدينة كانت منذ القدم، موضع تجاذب بين بولونيا وروسيا المتلاصقتين في هذا المكان. فكانت بولونيّة حتى ١٧٩٥، ثم روسيّة، إذ أنّ الأمبراطورة كاترين الثانية الكبيرة ضمّتها إلى امبراطوريتها الشاسعة. وفي حقبة ثالثة، احتلّها الألمان، وهم في طريقهم سنة ١٩١٥ . وبقوا فيها حتى ١٩١٨ . فعادت بولونيّة سنة ١٩٢١، ثم عاد إليها، الروس السوفياتيون سنة ١٩٣٩ وفي مرورهم كالبرق اقتلعها الالمان من أيدي الروس بعد سنتين، ثمّ انسحبوا إلى غير رجعة في ١٩٤٤ . وبالرغم من أنّ السكان يرنون بأنظارهم ويحنّون بقلوبهم إلى بلدهم الأم «ليتوانيا»، فهم سوفياتيون منذ ١٩٤٥ . وهذه (شريعة الأقوى) فلا مجال للعجب بأن يثور بعض أفراد الجالية اليهودية، ذوي العناد وصلابة الرأس كمناحيم بيغن. وقد كانوا عبر التاريخ، عرضة لمذابح

البولون الكاثوليك، والألمان المتجوّلين والطغاة الروس. ففي هذه البيئة الملوّثة بالظلم والاضطهاد، ترعرع مناحيم بيغن محاطاً بالكراهيّة، يتآكله الحقد والضغينة. كان يجيد لغات عديدة، ولكنّه لا يشعر إلّا أنهّ بولونيّ، أمّا قلبه فلم يكن يخفق إلا حنيناً إلى القدس. وكان يعتنق ويعتمد العنف للوصول إلى مبتغاه بالرغم من احترامه الشديد للشرائع الدينية اليهودية. ولد سنة ١٩١٣ في «برست» حيث أمضى طفولته وشبابه نشيطاً سريع الحركة، كما كان مشاكساً محبّاً للعراك، وخصوصاً عندما يغامر فيدخل إلى الأحياء المسيحية، ولا سيّما الأحياء المتحدرة من أصل روسي، لا يخرج منها إلا وقد أثخن بالجراح، وقد غطّت وجهه وكامل جسده الكدمات. وكان حلمه الوحيد الرجوع في يوم من الأيام، إلى صهيون، أرض الميعاد. ولن يتمكن من ردعه، البريطانيون، أو العرب؛ وفي ١٩٤١ اجتاحت الجحافل النازيّة مسقط رأسه «براست»، فولّى الأدبار هارباً، ونجا بجلده، إذ أنّ جميع أفراد أسرته، قضوا نحبهم في «أوشويز» معسكر التصفية الشهير في بولونيا ما عدا شقيقته، التي كانت عشيقة أحد الضباط الروس فرافقته لدى انسحابهم قبل دخول النازيين بأيام معدودة. أمّا مناحيم فأخذ يتسكع متلطياً في ارجاء أوروبا المشتعلة بالنار والكبريت، تحت أسماء مختلفة وجنسيات شتّى، حتى وصل إلى اسبانيا حيث كانت الصهيونيّة العالميّة تنظّم رحلات سريّة، للفارين اليهود تنتهي بهم في فلسطين. وذلك، بموافقة ضمنية من السلطات البريطانية. فانضم مناحيم إلى إحدى الرحلات ودخل كغيره إلى فلسطين، وبهذا تحقق حلمه ونال مشتهاه.

فلسطين، وقدسها، يا مهبط الوحي ومهد الأنبياء! يا مولد عيسى! يا أرض الاسراء والمعراج! يا أرض كنيسة القيامة والمسجد الأقصى! أيتها الأرض المقدسة، التي تضم رفات معظم أنبياء الله الصالحين، لقد أصبحت مأوى المجرمين وملجأ الصهاينة والإرهابيين، وأخيراً لا آخراً، وفد إليكِ كبيرهم «مناحيم بيغن» الذي أصبح فيما بعد، علماً من أعلام الصهيونية والعنصريّة، التي أنشأها ونظّمها «تيودور هرتزل» وأطلقها، تعيث فسادا في جميع أقطار العالم، تحوك المؤامرات، فتغتال وتقتل، كلّ من يقف حجر عثرة

في وجه مخططاتها التوسعيّة على حساب الأمم والشعوب وفي هذا المجال قتلت الوسيط الدولي، «داك همرشولد»، إذ كان له رأيّ يخالف أهدافهم المشبوهة. وبعد موت «هرتزل» سنة ١٩٠٤، خلفه من هو أكثر منه إجراماً وحقداً: «دافيد بن غوريون» البولوني الأصل أيضاً، وقد ولد في ضواحي «فرصوفيا» «بلونسك» التي مع غيرها من الأزقّة أصبحت ما يسمى «الغيتو اليهودي» حيث حشر الالمان الشعب اليهودي وأقاموا حولها الجدران العالية وأغلقوا المداخل والمخارج ومنعوا عنهم المؤن وكذلك قُطعت الماء والكهرباء فكانوا يستعملون مياه الشتاء، أو ليس السماء تمطر على الأبرار والأشرار، وكان الألمان قد قرروا إبادة اليهود وتنظيف الأرض من رجسهم، وفي هذا المجال، كان رجال «الغستابو» يشنّون الغارة تلو الغارة فيقبضون على كل من تطاله أيديهم ويكدسونهم فوق بعضهم، حتى تضيق بهم عشرات الشاحنات التي تنقلهم إلى معتقلات الإبادة وأشهرها: «أوشويز» «وتريبلنكا» حيث ينتهي بهم المطاف في الأفران أو المخانق؛ ولهذه الأسباب وسواها، كان بن غوريون كالكثير غيره من اليهود، يحملون في قلوبهم غيظاً وحقداً على موجة مناهضة الصهيونية التي عمّت أوروبا. فلجأ إلى فلسطين، وقد جعل نصب عينيه هدفاً اكبر وأوسع بكثير من موطن لليهود على الأرض الفلسطينية، الذي وعدهم به «اللورد بلفور» وزير الخارجية، في الثاني من تشرين الثاني ١٩١٧، فكان بن غوريون يخطط لإنشاء دولة عبرية خالصة، ليستولي على الأراضي العربية، فيطرد أهلها وأصحابها ويهجّرهم في مشارق الأرض ومغاربها.

لدى وصول مناحيم بيغن إلى فلسطين، رأى أنّ بن غوريون قد خطا خطوات واسعة في مجال التمدّد والتوسّع الصهيوني فألّف الاحزاب وأقام المؤسسات والمنظمات التي تعنى بشؤون اليهود وتحمي حياتهم وممتلكاتهم ومنها: «الهيستدروت» للشؤون العمّالية، وحزب «ماباي» الإشتراكي للشؤون السياسيةو. . .» الهاغانا» سنة ١٩٢٠ للشؤون الإرهابية؛ وبكلمة واحدة فإنّ كل الشؤون الصهيونية تحمل بصمات بن غوريون، وأنّ الكيان العبري يخطو إلى الأمام فعلاً، وهذا ما يتمناه بيغن من صميم قلبه، ولكن،

ليس بدونه، ودون أن يكون من أكبر عناوينه. وتحقيقاً لأهدافه، كان لا بدّ له من عصابة يترأسها، تَبُزُّ «الهاغانا» في مجالات العنف والارهاب، وفي هذا المسعى أخذ يتقرّب مغازلاً اثنين من أكبر وأشرس عتاة «الهاغانا» «دفيد رسيال» و «ابراهام شترن» إذ كانا، يشاركانه الرأي بضرورة الهجوم المعاكس، بشراسة وضراوة على الهجمات التي تقوم بها المقاومة العربية على المستوطنات العبرية. بمساعدة رفيقيه، وفي عجلة من أمره جمع حوله جيشاً ضم غلاة القتلة والإرهابيين سنة ١٩٣١، دعي فيما بعد «شترن» على اسم أحد منظميه رفيق «مناحيم»؛ إلّا أنّ هذا الأخير احتفظ بقيادته. كما ألّف حزباً سياسياً في مواجهة حزب «بن غوريون» حزب «هاروت» وتتلخص أهدافه بكلمتين «إريتز» ومعناه «أرض إسرائيل» الذي يتجاوب مع أحلام العديد من التوسعيين الصهاينة، والتي تعني استعادة جميع الأراضي التي كان يسكنها اليهود، أيّام التوراة، زاعمين أنّهم أحفاد أصحاب هذه الأرض الذين قتلوا، أو هجروا منها بالقوّة ظلماً وعدواناً، والتي تضم الأرض التي تمتد من البحر الأبيض المتوسط حتى الضفاف الغربية لنهر الاردن.

سنة ١٩٧٠ اعتزل بن غوريون الحياة السياسية، وكان في الرابعة والثمانين من العمر، وقبل موته في الأول من كانون الأول ١٩٧٣، حرّض مواطنيه على إعادة الأراضي، ومنها القدس الشرقية، التي احتلتها إسرائيل، في حرب الأيام الستة (وإلا فإنهم سيدفعون الثمن غالياً). وكأنّها كانت نبوءة إذ في السادس من الشهر نفسه أي بعد خمسة أيام فقط من موته، وبقيادة أسد سوريا وبطلها «وهو اسم على مسمى» الرئيس حافظ الأسد الذي لا ينام على ضيم ولا يتهاون في الحقوق العربية، وفرعون مصر الجديد أنور السادات، هجم الجيش السوري المتعطش لتحرير الأرض الوطنية المقدسة والجيش العربي المصري فألحقوا بالصهاينة هزيمة نكراء، محطمين أسطورة الجيش الإسرائيلي الذي لا يقهر.

وفي الحادي عشر من كانون الأول من السنة نفسها، ألّف «مناحيم بيغن» حزب «الليكود» الذي ضمّ اليمين الوطني، والأحزاب الدينية، ووسط

اليمين، مّما سمح له بالفوز في الانتخابات في ١٧ أيار ١٩٧٧، فكان انتصاره منعطفاً تاريخياً، إذْ لأول مرّة في تاريخ إسرائيل، ينهزم العمّال أمام اليمين المتكتل بزعامة «مناحيم بيغن» الذي يطلق أخصامه عليه، تهكّماً، «الجنتلمان البولوني».

مناحيم بيغن يصاب في قلبه:

بعد انتصاره في الانتخابات بيومين اثنين، سقط مناحيم بيغن، فريسة ذبحة قلبيّة مزدوجة، بالاشتراك مع التهاب حاد في غشاء القلب. وكان قد صرّح مراراً عديدة، بأنّه لم يبقَ له في الحياة، سوى سنوات معدودة. فلو قدّر له أن يبلغ السبعين من العمر، فسينسحب ليس من البرلمان فقط، بل من كامل الحياة العامّة، مفسحاً المجال، أمام من هو أصغر منه سنّاً، لاكمال المسيرة؛ ممّا يعني أنّه على معرفة تامّة بحالته الصحيّة، وبقدرته على متابعة هذا النمط المضني من الحياة. فهو منذ خمس سنوات يشكو من ارتفاع في نسبة السكّر لديه. وكان يعلم، وهو مقتنع بأنّه بعد الرابعة، أو الخامسة والستين، يدخل الإنسان في دوّامة لا تنتهي من أمراض الشيخوخة: نشاف وتصلّب في الشرايين وارتفاع في الضغط الوريدي، والبروستات وغيرها، وغيرها. وأخيراً بالقلب، كما مرّ معنا أعلاه. وبالفعل كانت إصابة بالغة ومعقدة، بناءً على تصريح البروفسور «مرفن غوتستمان»، رئيس قسم الأمراض القلبية في مستشفى «حدّاثه» بالقدس. وقد قضى «بيغن» ستة أسابيع طريح الفراش لاستعادة صحته. ولدى عودته إلى مركز عمله، هذا المركز الذي طالما اشتهاه، وجدّ وكدّ للوصول إليه، راح يتحقّق من الملفات، والشؤون التي عليه أن يدرسها ويقضي في أمورها المعقّدة، شعر بالتعب، وتأكّد أنّه ليس في أحسن حالته الصحيّة، كما أكّد له الأطباء، إذ لم يكن العمل المتراكم بانتظاره يترك له مجالاً للراحة والاستجمام، فيستعيد بعض قواه، التي فقدها وهو طريح الفراش. أمّا أهمّ ما كان ينتظره، فهو ملف العلاقات الإسرائيليّة، مع أقوى أعدائه الطبيعيين وهي مصر. كما أنّ مَنْ أزعجه اكثر من غيره، كان وزير

خارجيته موشي دايان، وقد صرّح لبعض المقرّبين بهذا الخصوص شاكياً: «لا أدري كيف أصبح هذا وزيراً في حكومتي. من المؤكد أنّني لم أكن بكامل عقلي عندما قبلت به».

أمّا فوز «مناحيم بيغن» في الانتخابات وتكليفه بتأليف الحكومة، فكان له وقع الصاعقة على الرؤوس. فالإرهابي الكبير، رئيس عصابات «شترن وارغون» والعدّو الألد للعرب، وخصوصاً للفلسطينيين منهم، لا يمكن أن يتعاطى معهم إلّا بما تمليه عليه طبيعته الشريرة. ومن هذا المنطلق لا بدّ ان تُطْلَب الرحمة لحكومة العمّال بعد التعرّف إلى بيغن.

أمّا الرئيس السادات، فخلافاً للمنطق، وبناءً على المعلومات المرسلة من قبل البعثات الإسرائيلية، فإنّه كان يقوم باتصالات سريّة على مستوى رفيع، ومع شخصيات نافذة لتمهيد الطريق، إلى محادثات في أمر السلام بين مصر وإسرائيل.

في هذه الأثناء كان قد وصل إلى مسامع السادات، عن طريق الأميركيين ما يعانيه بيغن من مرض وتدهور في قواه الجسدية، ممّا يجعله سلساً وأقل تصلّباً وعناداً. كما أنّ الرئيس كارتر كان يدفع السادات في هذا الاتجاه وينصحه بأخذ المبادرة. ثمّ أنّ الرئيس السادات راهن للوصول إلى هدفه، على أنّ بيغن «المريض» يبغي وبأيّ ثمن أن يقوم بإنجاز هامّ قبل موته يضع اسمه في مَصَفّ بن غوريون، أو مصفّ أعلى، في تاريخ الشعب اليهودي. هذا ما همس به في أذنه «نيقولاي شاوشسكو» رئيس رومانيا، الذي تطوّع للعب دور الوسيط، في هذه البقعة من العالم، التي لم تكن تنتهي الحروب على أراضيها. ومع كل هذه المعطيات، كلّف السادات، وزير خارجيته إسماعيل فهمي، بصورة لا مجال فيها للجدل، بأن يبلّغ تمنياته إلى رئيس الوزراء الإسرائيلي، وقد زاد قائلاً: «إنّني على استعداد للذهاب إلى القدس، لمباحثته إذا لزم الأمر». ممّا جعل شعر رأس فهمي ينتصب كالقنفذ. إلّا أنّه لم يجد نفسه بحاجة إلى تنفيذ أمر رئيسه، إذ أنّ الخبر قد سبقه فوصل إلى إسرائيل بطرق ملتوية.

وفي مراهنة، على التقرب من السادات، قام بيغن ووزير خارجيته دايان، بخطوتين إلى الأمام في هذا الاتجاه، ليست أقل سريّة ولكنّها حقيقة ملموسة.

وهكذا علم الرئيس السادات، بأنّ ليبيا، تقوم بتنظيم ثلاث مؤامرات برسم التصدير إلى مصر، والعربية السعودية، والسودان، كان قد اكتشفها جهاز المخابرات الإسرائيلية. كما أكّد للسادات، بأنّ إعادة سيناء لمصر مسألة قابلة للبحث. أمّا احتلال الجيش الإسرائيلي للأراضي الإسرائيلية أصلاً، حسب التوراة، فنهائية وغير قابلة، لإعادة النظر. وبناء على اقتراح السادات، وافق بيغن، على إشراك الحسن الثاني، ملك المغرب، في عملية التفاهم بينهما. وهكذا، تمّ لقاء سري في الرباط بين حسني مبارك، نائب الرئيس المصري، وموشي دايان، الذي وعد، بأنّ إسرائيل، ستذهب بعيداً جدّاً، في طريق التفاهم، والسلم، وهكذا فعلاً، ذهب الرئيس إلى الكنيست.

السادات يحاضر في الكنيست:

قام الرئيس السادات، بالخطوة الحدث، التي تُلفزت في حينه، عبر العالم وذلك في الواحد والعشرين من تشرين الثاني ١٩٧٧، في الساعة (١٦). وألقى في البرلمان الإسرائيلي، محاضرة، أدهشت العالم بالجرأة والصراحة التي اتسمت بها. فقد اعترف رسميّاً بالكيان اليهودي دون أن يخون الشعب الفلسطيني أو الشعب المصري بحسب رأيه. «إذ أنّني أقدّم لبلادي، سلماً مشرّفاً ودائماً»، ثم انتقل ليأخذ مكانه، وسط عاصفة من التصفيق وصرخات الاستحسان، من قبل أعضاء الكنيست الإسرائيلي. ولكن سرعان ما تجهّم وجهه، إذ خلافاً لما تعهّد به دايان، في لقائه لحسني مبارك في الرباط، لم تقدّم إسرائيل، التنازلات المطلوبة، إذ صرّح بيغن جازماً حازماً، أنَّ القدس لن تكون موضع بحث، فهي عاصمة إسرائيل التاريخية. وستبقى إلى الأزل. وقد زادت خيبة أمل الرئيس فيما بعد إثر المحادثات التي جرت بينه وبين بيغن، بحضور الرئيس الأميركي كارتر في مخيّم داوود بالولايات المتحدة، والتي

خلالها لم يؤت، على ذكر الفلسطينيين من قريب، ولا من بعيد. حتى الاتفاقيّة الثنائية التي وقّعت في ٢٦ آذار ١٩٧٩ في واشنطن لم ينتج عنها، سوى سلام بارد. وهي نوع من الحياد من قبل الطرفين، وقد صرّح الرئيس لحاشيته، بأنّ أتعابه لم تعط ثمارها.

حتى هذه الاتفاقية المخيّبة للآمال، وصلت مراراً عديدة، إلى حافّة الفشل ممّا جعل كارتر يتدخل لترطيب الجوّ، وإعادة الطرفين إلى طاولة المحادثات. أمّا الخلافات فكانت سخيفة ولا علاقة لها بالشؤون السياسية إطلاقاً. إذ كان العجوز بيغن، في نوبات من الغضب تنتابه من وقت لآخر، ودون ما سبب ظاهر، يرفع صوته ويقلب الأوراق بعصبيّة ظاهرة. وفي تحليل لبعض علماء النفس الأميركيين، أنّ عقله الباطني كان يعود بالذاكرة إلى المذابح الجماعيّة بحق الشعب اليهودي في أوروبا، والتي شاهد بعضها وهو صغير، بأمّ عينه. كما عزى بعض الأطباء الأمر إلى تقدّمه بالعمر وحالته الصحيّة التي لم تكن على ما يرام.

بيغن يدخل المستشفى مجدّداً:

بالفعل أدخل مناحيم بيغن إلى المستشفى في أيلول، تحديداً، حيث بقي أسابيع طويلة، مصاباً بنوبة قلبية حادّة. وبعد خروجه من المستشفى بأربعة أشهر فقط، أُصيب بنوبة ألم حادٍّ في صدره، إثر مشادّة عنيفة جرت بينه وبين سفير الولايات الأميركية في إسرائيل. وفيما بعد وجّه اللّوم بقساوة إلى طبيبه الخاص، لإفشائه خبر هذه الإصابة، وأعفاه من مهماته. وهذا الحادث، بحدّ ذاته، يؤكد، بأنّ مناحيم بيغن رئيس وزراء إسرائيل، لم يعد محصّناً صحيّاً، بل أصبح عرضة للإصابة بمثل هذه النوبات ولو لأتفه الأسباب. وفي هذا المجال، كَثُرَ القال والقيل، وتعدَّدتْ الأقاويل والأساطير ومنها ما صيغ بشكل تساؤل بريء أقلّها: ألم يأتِ بيغن إلى الحكم متأخراً؟ إن بالنسبة إليه، أو بالنسبة إلى مصلحة البلاد؟ وتساءل غيره: هل ما زال بمقدوره أن يدير شؤون البلاد كما يجب؟

أصبحت صحّة رئيس الوزراء، بيغن، حديث الساعة، على كلّ شفة

ولسان، من رجال ونساء. فهو حديث سيدات المجتمع في الصالونات، كذلك بين العمّال. أمّا في المساء، فهو الحوار الوحيد بين رواد البارات وعلب الليل. وفي أحيان كثيرة يحتدم النقاش بشكل لا يخلو من الحدّة بين مؤيد ومعادٍ فيصل بينهم الأمر إلى التشابك بالأيدي وتبادل الشتائم، خصوصاً، بعد تناول بضع كؤوس إذْ تلعب الخمرة بالرؤوس ممّا جعل من ذلك قضيّة وطنيّة. منذ ٢٧ حزيران ١٩٧٨، شاع في إسرائيل، أنّ ارتفاعاً مهماً في مستوى السكّر، قد حصل لبيغن، فاستدعي البروفسور «ميرفن كوتسمان» أمام لجنة حكومية عليا، للتحقق من الوضع الصحيّ لرئيس الوزراء. فأعطى تقريراً مفصّلاً عمّا يعاني منه، والعلاج الذي يخضع له؛ ولدى سؤاله عن الذبحة القلبيّة التي كان قد أصيب بها منذ ثلاثة عشر شهراً، عرض الأمر بشكل دقيق وواضح. لكنّه لم يتمالك نفسه، مرّة أخرى، من الاضافة، إنّها مرّت بسلام، ولم تترك آثاراً سلبية. لكنّ ذلك، لم يمنع محرر جريدة، «الجريزلوم بوست»، من الاعتراف قائلاً: «هذا كلام غير موضوعي» وذلك لا يمنع من أن يكون مناحيم بيغن، رجلاً مريضاً، وهو عرضة للمرض في كل ساعة وحالته الراهنة، هي مشكلة سياسيّة، إذ أنّ ذلك، يمنعه من السيطرة الفعلية على مرؤوسيه؛ وبالفعل، وجد بيغن نفسه مجبراً على إجراء بعض التغييرات المهمة، في تركيبة وزارته. وعلى الرغم، من جميع المحاولات لذرّ الرماد في العيون أصبحت صحته، مشكل الدولة العبرية. فعيون النواب تراقبه، والصحافة لا تغفل عنه، وفي هذا المجال، صدرت الصحف الإسرائيلية في أيار ١٩٧٩، وفي صفحاتها الأولى، أنّ بيغن، قد فقد البصر بعينه اليمنى، إثر انسداد الشريان الذي يموّن هذه العين بالدماء. أمّا أطباؤه، فحاولوا كالعادة التقليل من أهميّة الحادث زاعمين أنّ تلك مسألة بسيطة، لا أهميّة لها؛ تصيب كلّ الرجال، في عمر معين، خصوصاً عند المصابين بارتفاع نسبة السكر. بالفعل، لم يَبْدُ على بيغن آثار الإصابة، مستمداً من الضعف قوة، فحافظ على الاستمرار في مزاولة جميع نشاطاته الرسميّة. لكنّ ذلك، ليس لمدة طويلة، إذ سرعان ما ضُرِب في مكان آخر، وفي هذه المرة، كان دور الشريان المموّن الدماغ بالدماء، فارتفع ضغط

الدمّ في شريان العين، مّما سبّب نزفاً داخلياً فيها، ثم احتقاناً في كامل منطقة العين اليمنى لا يخفى على أحد.

أخيراً، لا آخراً، خلال شهر كانون الأول من نفس السنة، ١٩٧٩ ظاهرة دراماتيكية مرضية، حدثت لبيغن في البرلمان الإسرائيلي، على مرأى من جميع أعضائه. إنّه البرلمان الذي يعرفه بيغن حق المعرفة، إذ كان ما زال يتردد إليه منذ ثلاثين سنة. لكنّه في هذه المرة، ضاع عن مقعد الوزراء، فأخذ يبحث في جميع الاتجاهات محتاراً، حتى تأبطه أحد وزرائه واصطحبه إلى مقعد. إضافة إلى ذلك، لاحظ الصحفيّون، الذين يراقبون ليلاً نهاراً، أنّه أصبح عصبيّ المزاج، شديد الحساسيّة، يتبرم بموظفيه وزوّاره، لكن ما من أحدٍ منهم، خطر على باله إعلام أطبائه بهذه التصرفات المستجدّة لدى رئيس الوزراء وبعد أقل من شهر، نقل محمولاً، على وجه السرعة إلى غرفة العناية الفائقة، مصاباً بذبحة قلبية ثانية، حيث حصل، كما في كل مرّة، على العناية الممتازة: فتخطى الأزمة، وتماثل للشفاء، على نحو أبطأ مما جرى سنة ١٩٧٧. وفي سنة ١٩٨١، تحسنت صحّته بعض الشيء بشكل عامّ، مّما سمح له بالتحرّك سياسيّاً بشكل أفضل. فعلى الرغم من معارضة حزب العمّال العنيفة، تمكن بيغن من النجاح في الانتخابات التي جرت في حزيران، بفضل تكتل اليمين والأحزاب الدينية حول الليكود، فكُلِّف بتأليف الوزارة في (٥) آب بأكثرية ثلاثة أصوات فقط. فأسند حقيبة الدفاع إلى الجنرال آريل شارون، المعروف، بحزمه وتشدده، في التعاطي مع الفلسطينيين وبهذا يكون قد اختار لحكومته الجديدة، شعار التصلّب. فقد دقّ جرس الصقور. مع هذه الحكومة تكاثرت الأزمات والصعاب، وخصوصاً على صعيد المدفوعات العامّة. فقد كان الجيش يبتلع ثلثي الميزانية، ناهيك عن الديون العامّة. كما أنّ علاقتها مع واشنطن، لم تكن في أحسن حالاتها. واعتراها بعض الفتور والاختلاف في الرأي، على اكثر من صعيد. منها: الغارة الجوّية على العراق، التي أمر بها، شخصيّاً، رئيس الوزراء بيغن، في السابع من حزيران ١٩٨١، ضد المفاعل النووي، الذي أنجزه الفرنسيون للعراق. كذلك، ضم مرتفعات الجولان

السورية في الرابع عشر من كانون الأول.

قبل ذلك، في العاشر من تشرين الأول كان يومٌ حزينٌ بالنسبة إلى بيغن. إذ توجّه، على رأس بعثة، من أعلى المستويات، إلى القاهرة، لحضور مأتم الرئيس أنور السادات، الذي اغتاله بعض المتطرفين قبل ذلك بأربعة أيّام، أثناء استعراض عسكريّ بمناسبة الذكرى الثامنة لحرب يوم الغفران. كذلك في الثامن عشر منه، اشترك بمأتم وزير خارجيته موشي دايان الذي توفي في إحدى مستشفيات تل أبيب.

بشكل عام، لم تكن هذه السنة هي الفضلى، بالنسبة، إلى مناحيم بيغن. كانت رماديّة قاتمة اللّون، يتمنى مخلصاً أن تنتهي بخير. ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن؛ اصيب بتشنج عصبيّ، وهو في حمّامه، فوقع أرضاً بقوّة، ونُقل إلى المستشفى على عجل، حيث تبين أنّه قد أصيب بكسور في أعلى الفخذ (الورك).

على الصعيد الصحيّ، وخلافاً للعادة التي جرى عليها الزعماء، والرؤساء وخصوصاً «غولدا مئير»، لم يحاول مناحيم بيغن، إطلاقاً، إخفاء مشاكله وصعابه الصحية، عن الرأي العام. فكانت أخباره، في متناول الجميع، عبر الصحف ووسائل الإعلام. ولم يكن شخصيّاً يتهرب من مناقشة حالته. أمّا الغريب في هذا الأمر، فقد نصّب، أحد محرري صحيفة «ها آرتز» نفسه مدافعاً، ومحامياً، عن الرؤساء. إذْ غداة إصابة بيغن، تصدَّر الصفحة الأولى في الجريدة المذكورة، مقال شديد اللهجة، يؤنب فيه المحرر الأطباء، الذين يبالغون في تصوير أهميّة الأمراض والمشاكل الصحية، التي يتعرض لها رجالات الحكم. كما أنّ مناحيم بيغن، كتب رسالة، يشرح فيها بجرأة وصراحة حالته الصحية، نشرت في مجلة «جاروزلم بوست» يقول فيها: «أريد أن أشرح لكم ما يتعلق بالمرض الذي اعاني منه. لا أحاول إخفاء حالتي. وأطلب من أطبائي أن يقولوا الحقيقة للشعب الإسرائيلي. فعلى سبيل المثل، طلبت منهم توضيح الانسداد الذي حصل لأحد شرايين الدماغ، الذي تسبب بتدني قوة البصر في عيني اليمنى. وكنت قد طلبت منهم، التصريح بذلك إلى

الصحف منذ سنتين. وفي هذا المجال، كنت شديد الحظ. حيث أنّ هذا الشريان كان صغيراً جدّاً؛ فلو كان أكبر من ذلك فلربّما كنت اصبت بالشلل. وقد عانيت من هذا الانخفاض في النظر، لعدّة أشهر، بعد خروجي من المستشفى. أمّا الآن فلم يعد عندي أيّة مشاكل بالنسبة لنظري.

وكما هو معروف، فقد أصبت بذبحتين قلبيتين، ولكني تجاوزتهما وخرجت منها سليماً معافى باعتراف الأطباء. أمّا الآن فقد أصبت بكسر جنبي. وقد طلبت من اطبائي قول الحقيقة كاملة إلى الجمهور. وهنا لا بدّ لي من القول، أنّ السياسيين، أنفسهم يمكن أن يصابوا بالمرض، ثم يعودوا إلى مزاولة أعمالهم، بعد الشفاء التامّ. تماماً، كغيرهم من الناس. إنني أفهم تماماً، أن يخفي بعض السياسيين، مرضهم عن الشعب، خوفاً من استغلال منافسيهم السياسيين.

أمّا فيما يخصّني، فلي وجهة نظري الخاصة. فعائلتي ليست كبيرة، وأفضّل أن تعرف شقيقتي، وأولادي، حقيقة الأمر. من فمي، وليس بواسطة الراديو أو التلفزيون؛ وبعدها، أن يشرح الأطباء حالتي على الصعيد العامّ.

لاقى كتاب مناحيم بيغن، استحساناً عارماً لدى الإسرائيليين على جميع المستويات، ومن أقوالهم بهذا الصدد، إنّ بيغن، رجل واثق من نفسه لا يخشى الأرياح من حيثما هبّت. إنّه ليس كغيره من رجال الحكم والسياسة؛ فهو قد حافظ، بكتابه هذا، على أدق شروط الديمقراطية. وبهذا كانوا يغمزون من قناة غولدا مائير. إلى ما هنالك، من أقوال الاستحسان والتأييد؛ ممّا أزعج أخصامه، لا سيّما اليسار وعلى رأسهم حزب العمّال. إذ قد أزعجهم لا بل هالهم تعاظم شعبتيه، فما كان منهم إلّا، أن تنادوا، لعقد جلسة مستعجلة، وخاصة في الكنيست، لتقويم كتابه، ووضع الأمور في نصابها حيث، تباروا في إلقاء خطابات، مطوّلة ومنمّقة، دون أن يجرؤ أحدهم، على تناول أو مهاجمة بيغن شخصيّاً. بل على العكس، كان كل منهم في نهاية موضوع الانشاء الذي أجهد نفسه في تنميقه وتضمينه كل ما يحفظه من

العبارات الوطنية الطنانة، ولو كانت في هذا المجال جوفاء لا مكان، ولا معنى لها يتمنى لبيغن الشفاء العاجل. وكانت جلسة ماراثونية، في نهايتها، اخترعوا ما ينقذ ماء وجوههم؛ فاعترضوا، على الفقرة الرابعة من كتاب بيغن، التي يقول فيها أنّه قد كلف أطبّائه نشر الحقائق فيما يتعلق بحالته الصحية، إذ لا يمكن أخذ آرائهم بعين الاعتبار إذ لا بد أن يكونوا متحيزين، ولو عن غير قصد. فللكنيست وحده حق تكليف لجنة خاصة، من أعضاء البرلمان، وكبار الأطباء، لتقويم حالة رئيس الوزراء، وإصدار تقرير مفصّل، وخصوصاً، فيما يتعلّق بمركزه والقيام بالمهام المطلوبة، بشكل صحيح. ودعماً لقرارهم هذا (الذي لم يجرأوا على تنفيذه) وعلى سبيل التذكير بسابقة قانونية، عرضوا ما حصل في أميركا مع الرئيس «دوايت ايزنهاور» يوم أصيب بذبحة قلبية سنة ١٩٥٤.

عندما أصيب «ايزنهاور» لأول مرّة بذبحة قلبية، وهو في البيت الأبيض، طلب من أطبائه، وخصوصاً، الدكتور «بول دودلي وايت» من بوسطن، أن لا يخفي شيئاً عن الرأي العام الأميركي بما يتعلّق بحالته الصحيّة. إذ ما زال، وبكثير من المرارة، يتذكر، يوم كان ملازماً صغيراً، سنة ١٩١٨، كم كانت السلطات، تجهد نفسها، لاخفاء الحقيقة المرة المعيقة التي يعاني منها، الرئيس «وودور ويلسون» عن الشعب الأميركي. ولهذا شدّد على طبيبه قائلاً «عليك أن تعلن الحقيقة، كل الحقيقة، لا تحاول أن تخفى أو تلطّف الأمر، مهما كانت الحقيقة مرّة».

نزولاً عند رغبة الرئيس، كانت النشرات الطبيّة، التي صدرت، مثالاً للدقة والصراحة التامة. لكنّ الأطباء، تأكدوا، ودون أدنى شك أنّه لم يعد يتمتع بكامل مقدرته، على حسن الرؤيا وتقدير الأمور. وهذا، ما أوضحه شخصياً، فيما بعد في مذكراته، حيث كرّس جزءاً مهمّاً منها لإصابته القلبية وانعكاساتها السلبية على تصرفاته وقراراته. لكنّه تابع مستدركاً: رغم ذلك، لا يسعني سوى تهنئة نفسي فلو قدّر لي أن أختار بنفسي تاريخ إصابتي، لما كان بمقدوري أن أجد أنسب من ذلك الوقت، بالنسبة لحالة البلاد، على جميع

الصعد: فالإقتصاد، في أحسن حالاته والكونغرس بحالة طمأنينة واسترخاء. كما أنّه يمكنني، وبثقة تامة، الاعتماد كليّاً على وزير خارجيتي القدير، «فوستر دالاس» فيما يتعلق بالشؤون الخارجية خصوصاً أنّه ما من مشكلة، تحتاج لتدخلنا، في جميع أقطار العالم. كما أنّني ثابرت يومياً على تلقي تقارير اللجنة الاستشارية العليا، فأصدر التعليمات المناسبة. أمّا الأهم في كل ذلك، فهو أنّني لم أجد نفسي في مواجهة أمر ما، يقتضي تدخل القوّات الأميركية المسلّحة. وهنا لا بدّ لي من القول، بأنّه، لو وجدت نفسي أمام مثل هذا الموقف الحرج «بعد مرور ثمانٍ وأربعين ساعة فقط من إصابتي». فمن المؤكد تماماً، أنّني كنت أتصرف بمفردي، دون حيرة، أو تلكؤ فأصدر الأوامر اللآزمة لمعالجة الأمور بدقة وحسن تقدير. وتأكيداً على ذلك، فبعد أسبوع واحد من إصابتي، تمكنت من دراسة ومناقشة الأحداث، التي اندلعت في لبنان سنة ١٩٥٨، مع حكومتي ومستشاري الأمن القومي، فأصدرت أوامري، بعملية إنزال على شاطىء ذلك البلد، غير مكترث، بالاتحاد السوفياتي وتهديداته التي ألمحت، بإمكانية نشوب حرب نووية عالمية. ومن المؤكّد بعد دراسة وافية، وتقديرات دقيقة لكل ما قد يترتب على ذلك من سلبيّات وإيجابيّات. وقد أثبتت مجريات الأمور، فيما بعد، صحّة نظرتي وتقديري للأمور على المدى الطويل. وتابع «أيزنهاور» في مذكراته قائلاً: «في مطلق الأحوال، لا يجوز، ولا يحق لرئيس دولة، أن يقرّر أيّ أمر، على شيء من الأهميّة، ما لم يكن متمتعاً بكامل قواه الجسدية والعقلية، إذ خلافاً لذلك، ربمّا ورّط نفسه وبلده فيما يندم عليه لاحقاً. وعلى سبيل المثل، عندما سمح «كنيدي» بعملية إنزال في خليج الخنازير الشهيرة حيث كان ينتظرهم فيدل كاسترو بجحافله، كذلك «جونسون» الذي ورّط بلاده في حرب الڤيتنام، التي لم تتخلص أميركا من ذيولها حتى يومنا هذا، كما أقحم نيكسون البيت الأبيض بفضيحة الوتر ـ كايت وغيرهم من الرؤساء، من جنسيات مختلفة، الذين أساؤوا إلى بلادهم، بسبب المرض، وبالتالي، سوء التقدير لمشاكل وصعاب، هم بغنى عنها.

بيغن المريض المزمن:

تابع البروفسور «مرفن غوستمان» وشلّته من الأطباء الاجتماع عند قدمي رئيس وزراء الكيان الإسرائيلي، والإكثار من النشرات الطبيّة الدورية، لطمأنة الشعب الصهيوني، وذرّ الرماد في العيون. ففي هذه النشرات، كان يُخيّل للناس بأنّ بيغن قد شُفي تماماً من كلّ ما ألّم به، وقد عاد إلى شبابه؛ وفي هذا المجال لا بدّ من الاعتراف، بأنّ بيغن قد أحيط بأفضل عناية وأقصى ما توصّل إليه الطبّ والعلاج. إلا أنهم نسوا، أو تناسوا، بأنّ الجرح ولو اندمل، سيحمل صاحبه أثره مدى الحياة. إنّ قوانين الطبيعة ثابتة، تقوى على الطبّ والأطباء، «ولا يصلح العطّار، ما أفسد الدهر». وإنّ هذه النشرات، لم تقنع الكثير من خصوم بيغن السياسيين وفي مقدمتهم حزب العمّال والعديد من رجال العلم والصحفيين، الذين يتربصون به. كما أنّ الكنيست تحرّك تلقائياً، لدراسة حالة بيغن الصحية، وما قد ينتج عنها من نتائج سلبيّة على صعيد الدولة الإسرائيلية. فخلال كانون الثاني ١٩٨١، اجتمع فريق من السياسيين العمّاليين، وفريق من الليكود المؤيدين لبيغن، لمناقشة الأمر. وقد اعتبر العمّال بأنّ بيغن، لم يعد ممسكاً بزمام الأمور كما يجب، ولم يعد مسيطراً على حكومته كسابق عهده. وقد شبّهه أحدهم بمؤلف موسيقي لم يعد باستطاعته، إكمال سمفونية. كما صرّح جامعي شهير قائلاً: «لقد قُيِّضَ لي أن أراقب، ثلاثة أو أربعة رؤساء وزارات وهم في خريف العمر. لقد كان مناحيم بيغن، برلمانياً من الدرجة الأولى وخطيباً مفوّهاً، أمّا الآن، فلم يعد كذلك، بل أصبحت حالته حزينة مثيرة للشفقة».

كذلك إحدى الصحفيات، التي كانت، تتعقبه منذ انتخابه المظفّر في أيار ١٩٧٧، فتتسقط أخباره، وتبالغ في إنجازاته. وهي من أشّد مؤيّديه تعصّباً. كتبت مؤخّراً في هذا المجال تقول أنّ خطبه، أصبحت مونوتونية ميكانيكيّة، مُملّة، لا تثير مشاعر وعواطف المستمعين، ولم تتورّع عن القول، بأنّ بيغن الذي نعرفه، قد انتهى وعفا عليه الزمن ووجوده على رأس الدولة يشكّل خطراً حقيقياً على إسرائيل.

أمّا الأسوأ، فقد بدأت فصوله السنة ١٩٨٢ . إذْ في آذار، وانسجاماً مع المعاهدة التي وقّعها مع الرئيس السادات، باشرت إسرائيل بإخلاء المستوطنات اليهودية في سيناء وإعادتها إلى مصر. لكنّ بيغن تشبث بالضّفة وقطاع غزة رافضاً سحب قوّاته والتخلي عنها، مّما غطّى اتفاقات كمب ديفيد بطبقة من الجليد. فما كان من الرئيس حسني مبارك، خليفة أنور السادات، سوى رفض الدعوة، التي وُجّهت إليه لزيارة القدس. فأصبحت العلاقة بين البلدين، باردة، وشبه عدائية. كما أنّ مجلس الأمن، أصدر قراراً يدين حملات القمع والإرهاب التي تمارسها الدولة الصهيونية في الأراضي المحتلة. وفي ٢٨ نيسان، وفي ١١ أيار، انعقدت جلستان صاخبتان بالكنيست، اختلط خلالهما الحابل بالنابل، بين مؤيّد، ومعارض، كما أنّ قسماً كبيراً من الجيش، وقد دبّت فيه النخوة الصهيونيّة واستفاقت لديه الديمقراطية، طالب ببعض الإصلاحات. ولكنّ كلّ هذا الصراخ والضجيج، دون أن يأتي أحدهم على ذكر مناحيم بيغن بالاسم.

بعد أن سيطر «أريل شارون» على الجيش، شنّ إعتداءً آثماً على لبنان في السادس من حزيران، أعطاه تمويهاً اسم «أمن الجليل» بقصد تدمير البنية التحتية الفلسطينية. فأطلق العنان لمجرميه، ومسعوريه، المتعطشين للدماء فأعملوا أنيابهم ومخالبهم، في أجساد النساء والأطفال الأبرياء من اللبنانيين، بحقد وضغينة، لا تتواجد، إلّا في قلوب الصهاينة وأمثالهم. كما أعطى أوامره الواضحة والمشددة لطيرانه ومدفعيته لتدمير البنى التحتية، من ماء وكهرباء ومصانع على كامل الأراضي اللبنانية. وذلك تنفيذاً لخطة مدروسة. وقد هالهم ما يرتع فيه هذا الشعب الصغير من الرخاء والبحبوحة، معتقدين أنّ لا قائمة للبنان بعد الآن. ألا فليعلم الصهاينة ومن وراءهم، بأنّ لبنان قد مرّ بظروف أصعب، وعرف غزاة أطغى، ولكنّه كان في كل مرة، بنشاط أبنائه وذكائهم، وثقافتهم، قد جعلوا من وطنهم الحبيب، طائر فينيق، يخرج من تحت النار والركام، فينفض عن جناحيه الغبار والرماد، ويحلّق في السماء على عادته، وفي مجالات أعلى. وأنّ بيروت التي كانت حصرمة في عيونهم، قد

أصبحت عناقيدَ من العنب الشهيّ ولسان حالنا يقول: راجع راجع يتعمَّر راجع لبنان، راجع يتعمر أحلى وأخضر أكثر ما كان. . . أما أنتِ، فالويل ثم الويل لكِ يا إسرائيل، يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليكِ. . .

ونتيجة لهذه الحرب العدوانيّة، أكّد جميع المقرّبين من «بيغن» أنّه لم يعد بمقدوره، بسبب مرضه، السيطرة على الحكم ومجريات الأمور إذ كان لها آثار مدمّرة على الاقتصاد. كما سوّد صورتها، وأصبح اسمها مرادفاً للإجرام والإرهاب عبر العالم، ونالت من سمعة بيغن؛ فبعد أن كان متسلّطاً، حاكماً بأمره، أصبح حرفاً ميتاً يتخطاه الجميع بسهولة ويضعونه أمام الأمر الواقع. وقد أصبح شارون، عمليّاً صاحب الأمر والنهي مستفيداً، من عدم فاعلية بيغن، فأسقطه من حسابه، متقوقعاً، منطوياً على نفسه، غارقاً في مرضه وأحزانه مسلوب الإرادة، لا حول له ولا قوة.

في تشرين الثاني ١٩٨٢، بسبب القضية اللبنانية، استدعي «بيغن» «المطيع» إلى الولايات الأميركية، فذهب، منحني الظهر، مطاطأ الرأس وخصوصاً، أنّ زوجته «اليزا» طريحة الفراش، وقد أُبلغ نبأ موتها هنالك في واشنطن تلغرافياً. وقد أفاد شهود العيّان، بأنهّ تحطّم فوراً، وكأنّه أصيب على رأسه بضربة قويّة، ودخل في حالة بشعة من الانهيار العصبيّ. فعاد إلى القدس على جناح السرعة، بعد أن نال قسطه من التأنيب والتجريح من قبل السلطات الأميركية، و. . . (الترحيب المنقطع النظير، بالبيض الفاسد، والبندوره المهترئة، من قبل الجالية اللبنانية والعربية، والعديد من أحرار العالم). فلدى وصوله بُعَيْد انتهائه من مراسيم الدفن، استدعي للمثول أمام لجنة «كاهان» للتحقيق بشأن المجازر التي حصلت في صبرا وشاتيلا. فأخذ يجيب متردداً متلعثماً ممّا أزعج القضاة والمحققين. فأكّد، بأنهّ يجهل كل شيء عن المذابح التي دامت ثمانية وأربعين ساعة ولم يعرف بما حدث إلّا يوم السبت، ومن اذاعة «بي، بي، سي» البريطانية. كما أكّد بأنّه لم يتلقَ أيّ اتصال هاتفي، من ضبّاطه المتواجدين على الساحة اللبنانية. ثم بعد تردّد صرّح بأنّه، على كلّ، لا يتذكر، كما لو كان، في ذاكرته فجوة، لتناسي ما لا يريد الاعتراف به. لكنّ

القضاة، كانوا، يخفون شاهداً، لاستعماله عند اللزوم، هو الجنرال «رفائيل إيتان» قائد الأركان، الذي أعلن، أنّه اتصل به صباح السبت لإعلامه بما يجري. فأجاب بيغن بحدّة: «مستحيل! لقد كنت في الكنيس للصلاة حتى الساعة الثالثة عشر». وقد تصلّب بذلك، تحت القسم القانوني ثم عاد، بعد تفكير طويل، وفي جولة، من التلاعب بالألفاظ، فأفاد: «لم يكن الجنرال ايتان من اتصل بي، إنّما أنا من اتصل به قبل ذهابي للصلاة»؛ ولكن لخيبة أمله، كان شاهد جديد بانتظاره، في جعبة اللجنة، هو الكولونيل «زيق زاهارن» رئيس مكتب قائد الأركان المفصول إلى بيروت، وبعد أن أقسم اليمين دَحَضَ العديد من ادّعاءات رئيس مجلس الوزراء الشهم. وممّا ظهر لاحقاً، فاللجنة لم تأخذ أكاذيب بيغن بعين الاعتبار ولم تستسلم امام ابتزازه.

خلال شباط ١٩٨٣، اعتبرت اللجنة، أنّ مناحيم بيغن، لم يشترك بالقرار في السماح بدخول جحافل القتلة والسفّاحين إلى صبرا وشاتيلا. ولكن بالمقابل، أعطى البرهان على عدم الاهتمام، ممّا يُدينه، إذ اعتبرت بأنّه أصبح على علم فعليّاً بالأمر، صباح الجمعة. إنّه لم يبدِ أيّ اهتمام بما جرى من أعمال إجرامية، ممّا يشكّل تضامناً، وموافقة ضمنية. وأنّ تصرفه هذا، تصرفاً مستهجناً وغير مسؤول. وكان «بيغن» خلال قراءة الحكم المحرج يقبع في مقعده، متمنياً لو تنشقّ الأرض من تحته وتبتلعه.

الأشهر الأخيرة من حكم بيغن، كانت نوعاً من الغرق، أو من الهروب إلى الأمام. كان خلالها رئيس الوزراء، حزيناً ساهياً، لا يكاد يمسك قلماً، أو يفتح ملفّاً، بالرغم من أنّ لجنة تحديد المسؤوليات لم تقترب منه وأغفلته تماماً، إلّا أنّه كان يلاحق نفسه ويحاسبها على التكاليف الباهظة للاعتداء على لبنان. فقد تكلفت إسرائيل ملياراً ونصف المليار من الدولارات، حتى إخلاء بيروت. ومليون دولار عن كل يوم من الوجود العسكري في لبنان. كما أنّ العائلات الإسرائيلية، كانت تعلّق على أبوابها، صور من فقدتهم من أولادها، ولائحة بعدد القتلى والأسرى اليهود، منذ حزيران ١٩٨٢.

وفي حزيران ١٩٨٣، أصبح غير قادر على المشي، إلّا بصعوبة كبيرة، ممّا جعله يعتذر عن الذهاب لمقابلة الرئيس ريغن بسبب حالته الصحية. فكلّف اثنين من وزرائه بالنيابة عنه، ممّا أجّج القيل والقال بحقّه، وأعطى سبباً كافياً لترويج الإشاعات. وطبعاً مع شيء من المبالغة من قبل من لهم مصلحة بتنحيته عن الحكم، وخصوصاً حزب العمّال. ومن هنا طالبوا بانعقاد جلسة خاصة للكنيست. في العشرين من تموز، انعقدت الجلسة، وفي جدول أعمالها بنداً واحداً؛ دراسة حالة بيغن الصحية وصلاحيته للبقاء في مركزه والقيام بالمهام الملقاة على عاتقه بشكل صحيح. وهكذا تعيّن عليه إمّا الاخلاء أو الرحيل. وقد أبقت جلساتها مفتوحة حتى التوصل إلى قرار نهائي.

في الثامن والعشرين من آب، وقد تعذّر على النواب العمّاليين الحصول على الأكثرية المطلوبة لإقالة بيغن، قرّر آخر «عشّاق صهيون» وبناة الكيان الصهيوني الإرهابي، الاعتزال والابتعاد عن الحياة العامة فوقف وصرخ قائلاً، وقد بدا اليأس على وجهه: «في بعض الأوقات، يجب على الرجال، الاعتقاد بأنّه عليهم، التوقّف، والإخلاد إلى الراحة. بالنسبة إليّ، لقد دقت الساعة، ولقد انتهى الأمر. كلّا! لم يعد بإمكاني الاستمرار». ثم خرج من الكنيست، لا يلوي على شيء.

والجدير بالذكر، أنّ أصدقاءه، أعضاء الليكود، ومؤيّديه، الأحزاب الدينية، أحدثوا هرجاً ومرجاً، فتركوا الكنيست صاخبين، ولحقوا به بقافلة من عشرات السيّارات إلى منزله، حيث ناشدوه بإلحاح متوسلين، للعدول عن قراره، والبقاء في مركزه. كما أنّ رفاقه القدامى، من القتلة الإرهابيين، توافدوا على جناح السرعة، وقد تنادوا من كلّ حدب وصوب، وخيّموا طوال الليل تحت نوافذ «ڤيلّته الرسميّة» الكائنة في شارع «بلفور» بالقدس، وهم يطالبونه بالبقاء هازجين. أمّا بيغن فبقي مصرّاً، لا يتزحزح. لكنّه، إكراماً للمطالبين ببقائه، قال: «سأبقى نزولاً عند رغبتكم (الكريمة) لمدة ثمانية واربعين ساعة فقط»، وهكذا كان وانتهى كل شيء بالنسبة إليه.

بالرجوع قليلاً إلى الوراء، والعودة بالذاكرة، نجد أن مناحيم بيغين هو

مستقيل عملياً، منذ الخامس عشر ١٩٨٣، إذ كان قد أصبح مريضاً، اكثر من أيّ وقت مضى، في جسمه، كما أنّه، اكثر مرضاً في رأسه، وعذاباً في نفسه من جرّاء حرب لبنان، ممّا جعله حزيناً كئيباً، غير قابل للشفاء لدرجة أنّه لم يشترك بالمراسم الدينية، في الرابع من تشرين الثاني ١٩٨٣، التي جرت، في ذكرى وفاة زوجته، «أليزا».

في أوائل ١٩٨٤، خلال الليل، غادر ڤيلا شارع بلفور، إلى مسكن متواضع، من ثلاثة غرف، في ناحية «بيت ـ حاكريم» الشعبيّة، حيث أغلق بابه، وأسدل ستائره، رافضاً استقبال الزائرين. والجدير بالذكر أنّه رفض فتح بابه لوزير خارجية الولايات المتحدة الأميركية، الذي مرّ بالقدس في حينه. ومن لم يعد يستقبل، من الطبيعي، أن لا يتكلم ايضاً، إلّا مع نفسه إذا شاء، في نوبات من الهلوسة. يقال بأنّه كان يكتب مذكراته، من يدري؟

وفي الختام، لا بدّ لنا، من القول بكثير من الصدق والواقعية «مبتعدين عن عواطفنا الشخصيّة اللدودة» أنّ الكيان العبري قد تغيّر كثيراً، حتى بنظر أهله. فهو في ورطة لا نهاية لها. وهو دخيل على المنطقة، محاط بالأعداء، من جميع الجهات، وعلى رأسهم، سوريا الأسد، التي تزداد قوة، يوماً بعد يوم. وقد أصبح جيشها الفتيّ، من حيث العدّة والتقنية أقوى جيوش الشرق الأوسط، يتحلى بالإيمان الوطني والعقيدة القومية. وبذهاب «بيغن» وهو آخر من كانوا ينادون بإسرائيل الكبرى، سقط الحلم وتبدّد الوهم، فأرض ميعادهم لم تعد كذلك. من هنا، بدأت هجرة معاكسة، إذْ غادرها العلماء والفنيون، وأجيال من الشباب. فالأرض التي وعدوا بأنها ستعطيهم اللبن والعسل، أنبتت لهم السهام والحراب. ففي كل زاوية، متربّص، ووراء كل منعطف ملثّم يتمنى الانقضاض عليهم بما تيسر له من السلاح، حتى لو كان أعزلاً، لا يملك من العدة سوى قبضتيه الفتيتين، ودماء تغلي في عروقه.

ولا بد لليل أن ينجلي.

«جورج بومبيدو Georges Pompidou»

جورج بومبيدو يراقب صحة اعدائه:

أن يكون، رئيس دولة، شديد الانتباه، يراقب عن كثب، صحة ونشاط غيره، من رؤساء الدول، العدوّة والصديقة، على حدّ سواء، يبدو طبيعياً جدّاً. غير ذلك، فكل من رؤساء الدول، في أيّامنا هذه، على الأقل الدول الصناعيّة الكبرى والمتطورة، يستفيد من خدمات جهاز دراسات خاصة، يتألف من كبار الباحثين والمحلّلين، يطلعونه، على كل ما يتوصلون إليه في هذا المجال المهمّ. وأول من اعتمد، مثل هذه الخدمات، الرئيس الأميركي «جون كندي» الذي كان يرغب في معرفة مقدرة الانفعال والمواجهة، كذلك نقط الضعف، عند مساعديه الرئيسيين، كذلك عند حكام ورؤساء الدول في العالم، وخصوصاً، ما يتعلّق بصديقه «اللدود» «نيكيتا خروتشوف» استعداداً لمقابلات أو مواجهات محتملة. وفي هذا المجال، أصدر تعليماته لجهاز الاستخبارات الأميركية .C.I.A الذي جمع، وعلى جناح السرعة، كلّ ما له علاقة، بحياة وتصرفات وردود الفعل، من وثائق ومجلات، وكل ما قيل وكتب، عن رئيس الاتحاد السوفياتي «نيكيتا خروتشوف»، ممّا شكّل ملفاً ضخماً، حُوِّلَ إلى مكتب المحللين، الذي يتألف من عشرين عالماً، على رأسهم، العالم النفساني الكبير «بريان ودج». بعد دراسة مطولة وتمحيص دقيق، حذّر «ودج» الرئيس كندي، من الصحة الممتازة، والحيوية المتفجرة التي يتمتع بها الرئيس السوفياتي «نيكيتا خروتشوف» الذي يمارس، حيلة قديمة فيتعمد إطالة الوقت في المباحثات للنيل من قوّة خصومه واحتمالهم

للجدل والمقارعة. وللتوصّل إلى مبتغاه أصرّ خروتشوف، على عقد جلستين يومياً، كل منها، لمدة تسعين دقيقة ممّا يقتضي على كندي، عدم الاستسلام للتعب والضجر، وتعاطي بعض المنشطات، كالقهوة مثلاً، خلال الجلسة.

في مجال الاهتمام، واعتبار صحّة الحكام والرؤساء أمراً مهمّاً جدّاً، كرّس الرئيس «ڤاليري جيسكار ديستان» القسم الأول من كتابه «مع السلطة والحياة» الذي صدر سنة ١٩٨٨، وهو فريد من نوعه لهذا الأمر. وقد نال هذا الكتاب إعجاب وتقدير القرّاء. وقد وصفه، أحد الناقدين، بأنّه برهانٌ واضحٌ، عن حكمة وصفاء الذهن لدى كاتبه، الذي سجّل بدقة، ملاحظاته عن تفاقم حالة، «ليونيد بريجنيف» الصحية والصعاب التي أودت به. فعندما كان يحتل «قصر الأليزيه الرئاسي» التقاه في «قلعة رامبويه» خلال كانون الأول ١٩٧٤ حيث لم يَفُتْهُ كم كان يعاني «القيصر» من الصعوبة في تنقله، وتصحيح وضع قلنسوته في كل خطوة يخطوها. كما كان عليه أن يبذل مجهوداً للنطق. ولاحظ الرئيس الفرنسي التدني، خلال هذا الشهر، في مقدرة بريجنيف على الانتباه والاستيعاب، التي لم تعد تتعدى العشرين، أو الخمسة وعشرين دقيقه في أحسن حالاته، ممّا أوجب تقسيط المباحثات ورفع الجلسات من وقت لآخر، مهما كانت موضوعاتها مهمة وملحّة.

كما في باريس، كذلك في موسكو. فخلال تشرين الأول ١٩٧٥، طلب خروتشوف من الرئيس الفرنسي، كخدمة شخصية من قبله، المزيد من الاستراحات، ممّا استدعى، تغيير في جدول الاعمال المتفق عليه مسبقاً، بواسطة وزير خارجية كل من البلدين. وأيضاً، في موسكو خلال نيسان ١٩٧٩، لاحظ «ديستان» دون عناء، الضعف الظاهر على خروتشوف، الذي بانكسار ملحوظ، توجّه إليه قائلاً: إنّني مريض جداً.

هلموث شميدت يعاني من قلبه:

كان «هلموت شميدت» مستشار جمهورية المانيا الفدرالية، وهو صديق فرنسا الوفيّ، في زيارة عمل لباريس. وفي قصر الأليزه الرئاسي، خلال

اجتماع شخصيّ مع الرئيس الفرنسي، المعروف بإدمانه على التدخين ويعاني من مشاكل في الشريان التاجيّ للقلب، أصيب شميدت فجأة، تحت أنظار الرئيس الفرنسي، بالغيبوبة الناتجة عن توقف، لبرهة لا تتعدى الثواني، في دورة الدماغ الدموية، ممّا استدعى استعمال منظّم منشّط للقلب، ذي فعالية ممتازة في هذه الحالة. وبالمناسبة، فإنّ ليونيد بريجنيف، الذي يعاني من نفس المشاكل، يحمل في صدره أحد هذه الأجهزة.

ڤاليري جيسكار ديستان لا يخفي شيئاً عن حالته:

الرئيس الفرنسي ديستان لم يتستر، على حالة التعب الشديد، التي عانى منها خلال شهرين، بعد عودته من مصر حيث واجه «الرئيس» أنور السادات، خلال كانون الأول ١٩٧٥، ورافقه في جولة إلى الإسماعيلية في جوّ من الغبار الكثيف، وفي جوّ شديد الحرارة. وكانت سفرة طويلة، ممّا أتاح الفرصة «للفرعون» العصري، باستفراد الرئيس الفرنسي وإخضاعه لضوضائه المعتادة، والتي لا توصف، خلال مدة طويلة.

إنّ الحالة الصحيّة التي عانى منها خلال شهرين، هل كانت نتيجة حتمية لما قاساه خلال الرحلة الطويلة في الغيوم الرملية العاصفة؟؟ أم هي جراثيم استوائية؟ وقد بقيت هذه الحالة، لغزاً لا تفسير له، بالرغم من الفحوصات الطبيّة المتقدمة التي أجراها في مستشفى «ڤال ده غراس» التي تضم نخبة الأطباء العسكريين، والتي اعتمدت فيما بعد، للسهر على صحّة الرؤساء.

في هذا الجزء من ذكرياته، الذي كرّسه ڤاليري جيسكار ديستان لشرح امراض الحكام، كانت الأسطر المؤثرة تعني سلفه في قصر الأليزه، جورج بومبيدو. كما أنّه تعرّض لجميع أعضاء الجسم السياسي الفرنسي. ولكنّه لم يأتِ بشيء جديد. فكلّ ما قاله، في هذا السياق، كان معروفاً من قبل بعض الناس. لكنه لم يذكر شيئاً عمّا لاحظه شخصياً.

في تلك الحقبة من الزمن، كان وزيراً للمالية، ومن المفروض أنّه كان

على اتصال دائم برئيس الجمهورية، الذي كان يغوص صحياً بشكل واضح. فكان ما كتبه في حينه، زاعماً أنّها الحقيقة البحتة، تُسْهِم في فضح الخبث الجماعي، الذي يكذب ومازالت تنشره السراي، لتخفي خطورة ما يعاني منه الرئيس، عن الشعب الفرنسي.

إلّا أنّ «ڤاليري جيسكار ديستان» كتب في مذكراته، التي صدرت بعد موت الرئيس بومبيدو، قائلًا: أكتب هذه الأسطر، والألم يعصر قلبي، ممّا قاساه سلفي بومبيدو، من الأوجاع والآلام التي قاساها من المرض الذي أودى بحياته. وهو مرض في الدم، أودى بعده بقليل، بحياة ثلاثة من رؤساء الدول: هواري بومدين، وغولدا مائير، وشاه إيران. وكان مرضهم نادراً، ولا يصيب عادة، إلّا المتقدمين جدّاً بالعمر. إلّا أنّ هذه الحالة لم تخف عن البروفسور الفرنسي الكبير «جان برنار» فقد شرحها في كتابه «دماء الرجال» الصادر في باريس ١٩٨١.

مرض واحد يحصد اربعة روساء:

لا مجال للقول بأنّ الرئيس جورج بومبيدو كان على موعد، مع الرؤساء الثلاثة، الذين شاركوه نفس المرض: هواري بومدين، وغولدا مائير وشاه إيران للاجتماع في الآخرة. لكنّ الصدفه، والمصيبة جمعت بين الرؤساء الأربعة إنّ الصدفة خير من ميعاد.

لا تختلف دماء الأمراء، عن دماء بقيّة الشعب. كما أنّ الأمراض التي أودت بحياة هؤلاء الأربعة من الحكام، لم تكن امراضاً وراثية، تنتقل من الأهل إلى الأولاد، كالهيموفيليا وغيرها، علماً أنهّ ليس من قرابة، تجمع بينهم إطلاقاً. كذلك ليست أمراضاً من النوع الذّي ينتقل بالعدوى، فهي، بكلّ بساطة، أمراض الشيخوخة والمتقدمين بالعمر، بفعل الزمن وطول السنين. وقد قيل في هذا المجال، «لا يصلح العطّار ما أفسد الدهر».

إنّ بعض الأسئلة، تفرض نفسها، في هذا المجال؛ فالإصابة بارتفاع الضغط المتكرر، التي تصيب، عادة، الحكام والرؤساء هل تحدث لديهم، ضعفاً في القوة والمناعة؟ وهذا الضعف والتآكل، إن على الصعيد الجسدي أو

على الصعيد النفسي، تكون له نتائج سلبية على حسن إداء المهمّات والواجبات، وعلى التسريع في احداث اضطراب وتشويش في الرؤيا والذاكرة، التي لا تصيب عادة، إلّا المتقدّمين في العمر.

انتقل الرئيس جورج بومبيدو إلى مثواه الأخير في الثاني من نيسان ١٩٧٤، وقد توفي في منزله الباريسي الخاص المشرف على نهر «السان»، في الساعة ٢٢ بفعل مرض (السبتيسميا) «تكاثر الجراثيم في الدم» وما ينتج عنها من اشتراكات مرضيّة، والتي من أعراضها الأولية، سمنة غير طبيعية، وصعوبة في التنقل. وقد بدأت في الظهور لديه، منذ ١٩٦٨، تدريجيّاً وببطء لا يلفت الأنظار، ولا يستدعي الاهتمام من قبله، أو من قبل المحيطين به. لكن لم يتوانَ عن تعاطي بعض المنشّطات. كما أنّه، لم تكن تنقصه الأسباب الوجيهة، لتفسير تعبه الظاهر، منها الأربعة وسبعون شهراً التي قضاها على رأس الحكومة، كذلك أحداث ١٩٦٨ التي هزت فرنسا. أمّا أهمّها فالإذلال الذي أصابه، على يد الجنرال ديغول، الذي أراد استبداله في أحد الأيام.

وعلى سبيل الأخذ بالثأر، أجهد نفسه بالعمل ليلاً ونهاراً، يتنقل عبر فرنسا في جميع الاتجاهات ساعياً لخلافة ديغول في رئاسة الجمهورية ممّا نال من صحته بشكل عام، حتى شعر بضعف في عظامه، لكنه حافظ على سرّه لنفسه دون أن يلفت إليه الأنظار.

عندما أخذت بعض الإصابات المرضية المتكررة تظهر عليه كان جورج بومبيدو قد أصبح رئيساً للجمهورية، ولم يعد لديه متسعاً من الوقت للاهتمام بنفسه. أصيب، بانحطاط عام في قواه، بناءً على تصريح طبيبه الخاص الدكتور «فينيالو». وفي توضيح له، قال: «لا أعرف تماماً، ولكنني أؤكد بأنّه غير مهمّ». وذلك على الطريقة في الحديث، التي يفضلها الرؤساء والحكام، وقد درجوا على استعمال: بسيطة سنهتم بالموضوع، مفضلين عدم تخويف زبائنهم الكبار. فينام هؤلاء على فراش من حرير، حتى يقعوا في المحظور وتكون نهايتهم. وهكذا، انتهى بومبيدو كغيره.

في أيامه الأخيرة، أخذ يشعر من وقت لآخر، بدوار في الرأس مع آلام مبرّحة، كذلك بتنميل في الأطراف، مصحوباً بعض الأوقات بنزيف دموي من أنفه. كل ذلك يضاف إليه، عدم الشعور بالراحة والحيوية، ممّا لا يعني بحد ذاته، شيئاً محدداً. ولم يشغل بال الطبيب «فينيالو» وربما تعوّد عليه. لكن لم يَفُتْهُ، تضخّم في الكبد، والطحال، والغدد اللّمفاويّة، ممّا كان تحذيراً بالنسبة للطبيب. ولدى إجراء فحوصات مخبرية للرئيس، تبيّن، أنّ سرعة ترسّب الكرويات لديه، هي ضعفها في الحالات الطبيعية. لكن إصابات الرشح والكريب المتكررة التي يصاب بها، تشكّل غطاءً أو تفسيراً معقولاً لهذه العوارض بشكل عام. وفي فحص روتيني ثانٍ للدم، جعل الهيئة الطبية المحيطة بالرئيس، تقنعه بتدخل كبار الأخصائيين والأطباء الفرنسيين، الذين اكتشفوا لديه، قصوراً في نخاعه العظمي، الذي يولّد المناعة والدفاع في الجسم. وهذا المرض لا يظهر عادة، إلّا عند المتقدمين جدّاً في العمر، من الرجال، بوجه عام. ويتقدم ببطء وصمت، على مرّ السنين، وهكذا تجري الأمور بالنسبة لضحاياه. وبعد تشخيص المرض من قبل هؤلاء الاخصائيين، لم يبوحوا للرئيس، سوى بجزء بسيط من الحقيقة، التي أخفوها تماماً عن زوجته وولده، الذي أصبح فيما بعد طبيباً. إنّما صرّحوا، بإنّ هذا المرض، إنْ لم يعالج، لا يفسح مجالاً للحياة أكثر من خمس سنوات. إنّما إذا عُولج بشكل جدّي، ربّما عاش المريض، لعشر، أو اثني عشر سنة، ممّا جعله يكتب وصيّته خلال آب ١٩٧٢ . وفي هذا التاريخ تقريباً، سجّل المراقبون السياسيون من جهتهم، بأنّ حالة الرئيس الصحيّة تتفاقم، وأصبح يتردد كثيراً في معالجة الأمور واتخاذ القرارات. وكانوا يتساءلون عن السبب إذ كانوا جميعاً يجهلون حقيقة الأمر. خصوصاً أنّه من المبكر جدّاً على الرئيس بومبيدو بأن يصاب بهذا القصور والتردد إذ لم يبلغ بعد الحد الأدنى من العمر الذي يبدأ فيها الإنسان بالتقهقر والعجز. وفي نهاية ١٩٧٢ قرّر الأطباء البدء بالمعالجة. ولكن، في المنزل وليس في المستشفى كما يقتضي الأمر، حفاظاً على سريّة المرض، وإيهاماً للرئيس المريض، أنّ حالته بسيطه لا تستدعي نقله إلى

المستشفى وبإمكانية معالجته في المنزل، حيث تتوفر له الراحة والهدوء، بصورة أفضل.

وهكذا أخضع الرئيس بومبيدو للمعالجة، في منزله محاطاً بما يلزم من العناية الفائقة، والسرّيّة المطلوبة. أمّا طبيعة العلاج، فكانت باعطائه المركّبات الكيمائية نفسها، التي تستعمل في علاج (اللوكيميا) أيّ «سرطان الدم». ومنها الفوسفاميد والكورتيزون وغيرها. ومن أهم ما يصاب به صاحب هذا النوع من المرض، إصابته بالأنيميا (فقر الدم) فعالجوه، بالكورتيزون، دون أن تتعدى الجرعة (٢ ميليغرام) بالنسبة إلى كيلو غرام من وزن المريض، في اليوم الواحد. ولكن بالرغم من سهر الأطباء وعنايتهم، فقد نال منه الضعف والوهن، حتى تعذّر عليه الاشتراك باحتفالات عيد الشجرة، كما كانت تقتضي العادة والعرف. كذلك أقعده المرض عن الاشتراك بالاحتفال التقليدي الذي يقام في قصر الأليزه، ممّا أثار فضول الشّعب، وخصوصاً، رجال السياسة والصحافة. وبعد ستة وعشرين يوماً كان على الرئيس، أن يجلس على كنبة، لتقبّل التهاني بعيد رأس السنة. وغداة ذلك النهار، لازم الفراش مصاباً بالكريب، ولم يتمكن، من تقبل تمنيات موظفي القصر. والكريب هو دائماً ما يصاب به الرئيس، إستناداً إلى النشرات الصحيّة الرسميّة.

بهذا الخصوص، كتب ڤاليري جيسكار ديستان في كتابه، بأنّه ولأول مرّة رأى بأنّ بومبيدو، عمليّاً مريض، في الطائرة التي حملته إلى «ريكجافيك» في إيسلندا في ٣٠ أيار ١٩٧٣، حيث يجري لقاء رئاسي ثانٍ مع الرئيس الأميركي ريشار نيكسون. وقد طلب منه، إذْ كان وزيراً للمالية بالعمل معه في الجناح الذي أعدّ له في مقدمة الطائرة، حيث كان الرئيس يغفو من وقت لآخر، فيبدو وجهه بلون رصاصي من التعب، بدل اللّون الزهريّ الفرح المعهود لديه. وكأنّ الحياة، تنسل خارجاً. ولدى وصولنا إلى إيسلندا، لاحظ كل من كان معه، ومن ينتظره بأنّ بومبيدو، يهبط من الطائرة، بكثير من الحذر والصعوبة متشبثاً، بدرابزين الطائرة، وقد دسّ نفسه في معطف سميك، كما أنّه يلفّ عنقه ويخفي أنفه بوشاح صوفي، ويعتمر قبعة تغوص

حتى حواجبه وتخفي جزءاً كبيراً من وجهه المحتقن الأصفر اللون، المحاكي للون الشمع. من هنا تناولت الشائعات خبر مرضه وأصبحت تشكّل العناوين الكبرى في الولايات الأميركية المتحدة، وأصبح من الممكن، التكهن، دون أن يكون الانسان خبيراً، بأنّه قد تعاطى الكثير من الكورتيزون.

كما أنّ الأطباء الذين عالجوه، وقد شاهدوه على جهاز التلفزة يتعثّر في خطاه في إيسلندا، اعترفوا بأنّ معالجته في المنزل كانت خطأً فادحاً، وأنّهم يعتقدون، أنّ بعض المحيطين به، قد زادوا من كميّة الدواء المعطاة له، معتقدين أنّ ذلك يسرّع في شفائه.

من المعروف جيّداً ما أصبحت عليه حالة جورج بومبيدو في الأشهر الأخيرة. فقد اعترف الأطباء بأنّهم قد خسروا الرهان في معالجة فقر الدم كما أنّهم فشلوا في السيطرة على الإشتراكات، التي عاودته للمرة الثانية. وقد أكّد الرئيس ڤاليري جيسكار ديستان، في كتابه الثاني، كذلك في «مجلة السلطة والحياة» أنّ بومبيدو بقي على جهله التام بحقيقة مرضه، وبالحالة التي وصل إليها.

صباح الأربعاء الواقع في ٢٧ آذار ١٩٧٤، ذهب وزير المالية، على عادته إلى قصر الإليزه، لاطلاع الرئيس بومبيدو، على الملفات الاقتصادية والمالية التي يحملها. ومن الطبيعي، أن يستفسر عن صحّته. أجاب بومبيدو قائلاً: بما أنّك تتكلم عن صحتي، أنّني أعرف أنّه يروى، في هذا المجال، الكثير من الترهات والأكاذيب. فسأشرح لك حقيقة الأمر. إنّني قيد المعالجة من مرض يعرفه الأطباء تماماً. لكنّ هذا يتعبني، ليس المرض، إنمّا العلاج. فبسبب مركزي يقسون عليَّ بهذا الشأن. لقد أصبت بكريب لعين، تحوّل إلى اشتراكات، لكنني سأوقف هذا العلاج فوراً، وأذهب يوم السبت لتمضية عطلة الأسبوع في «اورڤيليه». ومن ثمّ في الاسبوع القادم سأذهب إلى «كارجارك» حيث أبقى خلال عطلة أعياد الفصح وحتى منتصف نيسان، ومن الطبيعي أن استعيد صحتي ونشاطي فأعود لممارسة مسؤولياتي بشكل أفضل، وخلال هذه المدّة ستطلعوني على مجريات الأمور. على كلّ، سأجري الترتيبات

اللاّزمة بهذا الشأن.

بومبيدو يعاني سكرات الموت:

صباح الجمعه في ٢٩ أيار، انتقل الرئيس جورج بومبيدو، عمليّاً، ألى «اورڤيليه» طلباً للراحة والنقاهة، فابتعد عن العاصمة وجوّها الضاغط وضجيجها الذي يقض المضاجع، وحيث البروتوكول وواجباته. إلاّ أنّ الرياح تجري بما لا تشتهي السفن، فقد حصل له، بعد أيّام من وصوله إليها، ما كان يخشاه الأطباء منذ أشهر عديدة. بدأت متاعبه بنزف بسيط في إحدى عينيه. وكأن ذلك إنذاراً، إذ سرعان ما تبعه نزيف أنفي هام. ثمّ دملة في مخرج الجسم أخذت بالتمدد والتضخم في جميع الاتجاهات، وخصوصاً، صعوداً في «المستقيم». ومن هنا دخل الرئيس في مرحلة من العذاب المرير.

بعد نقاش وتقويم للوضع، قرّر الأطباء، نقل المريض بسيارة إسعاف إلى منزله في باريس الكائن على رصيف «بتيم». لكنّ الأطباء وقفوا مكتوفيّ الأيدي عاجزين عن مساعدته. «وزاد في الطين بلة» إصابته بحمّى مرتفعة الحرارة، حاول الأطباء تخفيفها بأيّ ثمن، ولكن دون جدوى. ممّا جعل رئيسهم يقول، لقد انتهى كل شيء لم يعد في اليد حيلة، قريباً سيرتاح من عذاباته. إنّها مسألة ساعات لا اكثر. أما الضربة القاضية، ورصاصة الرحمة فكانت «السبتيسيميا» تسمم الدم، أو بشكل أوضح، العديد من جراثيم الأمراض في الدم، التي هاجمته في اللحظات الأخيرة.

في الساعة الثامنة عشرة، بعد ظهر الثلاثاء في ٢ نيسان، دخل الرئيس جورج بومبيدو، في مرحلة فقدان الوعي تدريجياً.

في الساعة (٢٢) مساء اليوم ذاته، استسلمت أوعيته الدموية فتفجرت في العديد من الأماكن، فغرق في دمائه. و... وأسلم الروح.

نهاية مأساوية، حتميّة، لا مفرّ منها؛ لكنّ المؤسف جدّاً في الأمر، أنّها كانت منتظرة، ومعروفة، منذ إثني عشر شهراً. وهي المدّة التي عاشها الرئيس

جورج بومبيدو، في جحيم مقيت، في الوقت الذي كانت فيه البلاد، بأمسّ الحاجة، إلى رئيس نشيط يتميز بالحيوية والإقدام. لقد كانت تعاني أشدّ المعاناة، من الحظر البترولي التي فرضته، الدول العربية المنتجه للنفط. فالملفات تتراكم، والمصاعب تتفاقم، أمّا الرئيس، فغارق في همومه وأوجاعه وهكذا، دفعت فرنسا ثمن مرض رئيسها.

«يوري أندربوف Iouri Andropov»

يوري اندربوف مريضٌ بالقلب، والسكّري:

عندما تدقّ السّاعة لاختيار رئيس للدولة في الاتحاد السوفياتي، تجتمع اللّجنة المركزية للحزب الشيوعيّ، في إحدى قاعات الكرملين، لانتخاب الرئيس العتيد، بالاقتراع المباشر، الذي يمنحه السلطة مدى الحياة دون تحديد للزمن أو للصلاحيات. وعمليّاً سيكون قيصراً حديثاً، إلّا أنّه يختلف عن أسلافه القدامى، بأنّه، لا يحق له اختيار وليّ للعهد. وقد جرت العادة على اختيار أحد أعضاء المكتب السياسيّ، حيث يكون المرشح قد أمضى سنين طويلة يتدرب ويمارس الحياة الحزبيّة والسياسيّة متنقلاً بين مختلف الأقسام متمرساً بجميع المهمات. والمقصود من وراء ذلك أن يصبح مهيّئاً لتولي المهمات التي ستلقى على عاتقه، وقد مرّ بالكثير من التجارب وحظي بالكثير من الخبرات.

منذ ثورة اكتوبر تشرين الأول، سنة ١٩١٧، لم يتّخذ اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية لنفسه، سوى سبعة رؤساء. كان أولهم لينين، وقد توفي أثناء حكمه سنة ١٩٢٤. ثم تبوأ السدّة من بعده «ستالين»: «المعلّم، المرشد، الملهم»، الذي اختفى سنة ١٩٥٣. ثمّ «بريجنيف»، سنة ١٩٨٢؛ «وأندروبوف» سنة ١٩٨٤. وفي السنة التالية «تشرنانكو» ثم، «خروتشوف» الذي كان يحتل المركز الثالث في اللّوحة التذكارية لرؤساء الاتحاد السوفياتي، من حيث التراتبية الشرفية. ولكنّه عُزل وأسقط اسمه فيما بعد سنة ١٩٦٤، وقد اتُّهم، بالكثير من التعنت والانفراد بالقرارات، وبالتالي بمصير الشعوب

السوفياتية، وقد قضى نحبه منعزلاً سنة ١٩٧١، في موسكو.

أخيراً، «مخائيل غورباتشوف» فجعل من نفسه لسان حال التعساء والمعذبين، صافعاً واجهة الأمبراطورية الشاسعة، التي تدّعي بالاشتراكية، والعدالة الاجتماعية. لكنّه كان يحرص على الحوار ومناقشة العقيدة الأم؛ ممّا كان يطمئن سكان الداتشات «الڤيلات» من رجالات الحكم والحزب، ويوحي بأنّه سيبقى في مركزه طويلاً إذا ثابر على المضيّ قدماً في مشاركتهم السلطة، دون أن يقلبها رأساً على عقب. ولكن من الأرجح أنّه، كأسلافه، وما جرت عليه العادة، ستكون نهايته تعيسة مزرية.

جميعهم مرضى. لينين؟ إنّ النشاف في شرايين الدماغ الذي يشكو منه لم يفسح له المجال لإدارة شؤون ثورته إلّا لمدة سنتين تقريباً، لكن عندما وجد نفسه عاجزاً عن ذلك، لم يتشبّث بالسلطة، بل كلّف غيره بإدارة شؤون الثورة والبلاد. ولم يَطُلْ به الأجل، إذ سرعان ما قتله المرض، بعد عذاب مرير. ستالين؟ مصاب أيضاً بأوعيته الدموية، انتهى به المطاف بجلطة دمويّة في الدماغ مصحوبة بذبحة قلبية حادّة أودت بحياته. خروتشوف؟ وكأنّها علّة الرؤساء في تلك البلاد فهو أيضاً مصاب بالشرايين إلى جانب صعوبة في التنفس وكثيراً ما كان يلهث بحثاً عن قليل من الهواء وهو على رأس السلطة. بريجنيف؟ مدخّن كبير، معرّض للإصابة بنشاف الشرايين، وقد أصيب بالعديد من الذبحات القلبية، بعد أربع سنوات من جلوسه على العرش. ثمّ استدعت حالته، زراعة منشّط لقلبه في الصدر، ثمّ انحدر في نشاف الشرايين، حتى عمّ كل أوعيته الدموية فأصبح معاقاً عقلياً وجسديّاً، ثمّ قضى نحبه بعد تمزق شريانه الأورطيّ كما قضى الجنرال ديغول قبل إحدى عشرة سنة.

يظهر أنّ أهل الكرملين، لا يتأثرون كثيراً بدفن كل امرائهم الجدد، إذ يقضون وهم في الحكم، كما كان يحدث لقياصرتهم الذين كانوا حكّاماً مدى الحياة دون تحديد مدة زمنية، أو عمر معيّن ولدى موتهم ينتقل العرش إلى وليّ عهدهم اوتوماتيكيّاً. كذلك الآن، فإنهم يسلّمون المركز الأول في الدولة إلى المرضى وخرّيجيّ المستشفيات. فهذا ما حدث بالفعل مع «أندروبوف» ثمّ تجدد

مع «تشرنانكو» ممّا يحمل على الظّن، بأنّ اختيار أمثال هؤلاء المرضى يتم عن سابق قصد وتصميم، ليكونوا رؤساء عابرين، ولبعض الوقت، ريثما ينضج في قدس أقداس اللّجنة المركزية، فتاها المدلّل والمؤهّل ميخائيل غورباتشوف.

مراسم دفن الرؤساء في الاتحاد السوفياتي، لا تغش أحداً، ولا تترك مجالاً للشكّ. فأول حاملي النعش، ورئيس المراسم، سيكون دون شكّ خلفاً للراحل، فتحمله خلال ساعات اللّجنة المركزيّة إلى عرش السلطة والحكم.

وخلال مراسم دفن الرئيس بريجنيف سنة ١٩٨٢ كان يوري أندربوف يقود القافلة. وقد بدا كأنّه الأمير الذي سيتولى الحكم بعد الانتهاء من تلك المراسم. لكن معارفه الغربيّين القدامى لم يتعرفوا إليه، إلّا بصعوبة، إذ كان يلتّف بمعطف أسود سميك، وقد دسّ رأسه في قلنسوة من الفراء، حتى حواجبه، يمشي بصعوبة ظاهرة، كما أنّ عنقه بدا نحيلاً، يسبح في ياقة، تتسع لعنق آخر معه. ممّا يعني، أنّ اندربوف أصيب بالهزال، مجدّداً، وليس منذ أمد بعيد، ولربّما أصيب بذلك من مرض يعانيه، أو بفعل الزمن والكبر. أمّا وجهه، فيبدو شاحباً هزيلاً خالياً من أيّ تعبير، وكأنّه قالب جصّ أو خزف. كلّ ذلك يعني، أنّ الرئيس الجديد، لن يمارس سلطاته لمدّة طويلة، وسيلحق بسلفه، قريباً وقريباً جدّاً.

أهو من قبيل الصدفة فقط، أم من حسن الرؤية والتقدير؟؟ فقد صحّ ما خمنّاه وما توقّعناه، بشكل لا يصدّق، إذ لجهة انتخابه للجلوس على العرش، أو لجهة قصر أيّامه، وقرب أجله! ففي صبيحة اليوم التالي لمراسم الدفن، أصبح رئيساً للاتحاد السوفياتي، وقبل أن ينتهي من تقبّل التهاني، خرّ صريعاً، طريح الفراش حيث بقي ١٧٦ يوماً بالرغم من المعالجة الممتازة والعناية الفائقة على أيدي الفريق الطبيّ الخاص بالكرملين. ولا جدوى من التذكير بأنّه يضمّ خيرة أساتذة الطبّ في الاتحاد السوفياتي والبلاد التي تدور في فلكه، بما يمتلكه من أجهزة وما توصّل إليه الطّبّ في العالم. وكان على رأس هذا الفريق الأساتذة: اوجني شاروف، نيقولاي لاباكين، ونيقولاي مالينوفسكي.

والجدير بالذكر، أنّه بعد أن لازم الفراش في منزله ١٧٦ يوماً لم يرَ

خلالها سوى الأطباء، وزوجته «تيتانيا» ونجله «إيقور» وسمح له بمغادرة المنزل ومزاولة مهامّه. لكنّ القدر لم يمهلْهُ، أكثر من (٢٧٨) يوماً فقط. وبذلك يكون قد تولىّ الحكم ٤٥٤ يوماً، من يوم انتخابه لساعة مماته، وانتقل إلى حيث يرحل... الرؤساء.

ليس من المستغرب أن يمرض الانسان، أشاباً كان أم كهلاً. كما أنّه ليس غريباً أن يموت «فكلّ نفس ذائقة الموت». ولكن من الغريب والمستهجن، أن يُنتخب رئيساً لدولة، لا تغرب عن أراضيها الشمس. وممّن؟ من قبل رفاق له، عايشوه ورافقوه لأكثر من ثلاثين سنة، ويعرفون الصغيرة والكبيرة عنه، بأدقّ التفاصيل. زد على ذلك الطاقم الصحيّ المتفوّق الذي، لا شغل له ولا عمل، سوى، مراقبة صحّة أعضاء اللجنة المركزيّة والمكتب السياسيّ لدرجة، أنّه لو عطس أحد هؤلاء «الأمراء» لوجد عند قدميه، لا أقلّ من نصف دزّينة من الأطباء للفحص والمعالجة! بعد كلّ هذه المعطيات وما جرى للرئيس أندروبوف، لا مجال للظن والتخمين بل للتأكيد، بأنّه تمّ انتخابه، رئيساً مرحليّاً، ولمدّة قصيرة، كمَخْرج لخلاف دبّ بين أعضاء اللجنة المركزية! خصوصاً أنّ جميعهم يعلم أنّه من قدامى المصابين بداء السكّري بدرجة متقدمة. وأنّه يتعاطى الانسولين الوريدي، وبعيارات كبيرة، كما أنّه من أعضاء نادي مرضى القلب المرموقين، ولديه صعاب ومشاكل في الجهاز البوليّ.

لم يكن يوري أندروبوف نسخة طبق الأصل عن بريجنيف. على العكس، فقسطنطين تشرنانكو، هو من تنطبق عليه المواصفات المطلوبة ليكون تلك النسخة، والذي سيكون المرشح السعيد للقمّة في الاتحاد السوفياتي. لكنّ «عرابيّ» أندروبوف، كانا الأقوى بين أعضاء اللجنة المقررة. وعلى رأسهم «غروميكو» الذي احتل وزارة الخارجية، عشرات السنين، حتى ١٩٨٨. وهو من أكبر أسياد الحزب الشيوعي. كذلك «ميخائيل سوسلوف» كاهن العقيدة الشيوعيّة، وقائد الشيوعيّة العالميّة، الذي رحل عن الدنيا في كانون الثاني ١٩٨٢.

كان «ميخائيل سوسلوف» طيلة حياته النشيطة، الخطيب المرشّح لروسيا أرملة بريجنيف. إذ قد برهن عن إخلاصه «للينينيّة»، واستقلاليته الفكريّة، ممّا جعل جميع أعضاء الشلّة يطمئنّون إليه، ولكن دون المراهنة على الزمن، ودون نسيان المحاباة في مثل هذه الظروف.

أمّا اندروبوف، فهو قوقازي هجين، إذ تجري في عروقه، بعض الدماء اليونانية، أو الأرمنية. وهو أحد أولاد النظام، إذ لم يكن قد تجاوز الثالثة من العمر، عندما انتصرت الثورة الاشتراكية. أمّا والده، فقد كان أحد عمّال السكك الحديدية، وعلى الأرجح مستخدم محطة، فلو كان والده قد قاد أحد القاطرات، أو تصبّب عرقاً في مستودعات الفحم، لورد ذلك في ملفّه الخاص كشاهد مشرف أن يكون متحدراً من أصل عماليّ. أمّا ما ورد بهذا الخصوص، فهو أنّه ولد في «ناكوتسكايا»، في منطقة ستافروبول. فهو ليس ابن أحد الثوّريين، وهو نفسه لم يكن أحد الأبطال؛ كما أنّه لم يتتلمذ على يد أحد العقائديين المعروفين في ذلك الحين. فهكذا، كان على يوري أندروبوف، أن يصنع نفسه بنفسه، وقد تطلّب ذلك منه وقتاً طويلاً. ترك المدرسة وهو في السادسة عشر، ومارس العديد من الأعمال الرخيصة. فقد عمل كأجير إضاءة يقود الرّواد إلى أماكنهم في إحدى دور السينما. وبعد عدة سنوات، أصبح مكلّفاً بتشغيل جهاز عرض الأفلام في هذه الصالة. وبعد غياب طويل عن الأنظار، شوهد بحريّاً على ظهر أحد القوارب العاملة على نهر الفولقا. ثمّ انتسب إلى الشبيبة الشيوعيّة، حيث، توصّل إلى سكرتيرية «الكوموسول» نقابة عمّال «إياروسلاف». ممّا ساعد على قبوله في صفوف الحزب الشيوعيّ، وهو في السابعة والعشرين من العمر. وفي أحد الأيام شعر بأنّ قدره بدأ يتخذ اتجاهاً معيّناً عندما تقاطعت طريقه، خلال حرب «كارليا» مع طريق، «جاكوب ربوبور»، مفوض «نيكفيدا» N.K.V.D جهاز أمن النظام. فانخرط في هذا الجهاز وقد راقت له هذه المهنة، لكنّه تركها، مفضّلاً، الالتحاق بصفة ساعي صغير، في أحد أجهزة اللجنة المركزيّة الشيوعيّة. وانحصرت مهمته، بنقل الأوراق والملفات بين الموظفين والمكاتب. وشيئاً فشيئاً، أخذ يصعد

الدرج بتؤدة وثبات حتى وصل إلى قيادة فرع الحزب في «باتروزاقودسك» عاصمة «كاريليا» على ضفاف بحيرة أونيكا، حيث التقى «تاتيانا» التي أصبحت زوجته. لم يكن هذا المركز هدفه، بل كان درجة أولى نحو الأعلى. وسرعان ما استرعى أنظار «المعلّم» في موسكو، حيث استدعي وبقي على حذره الشديد، إذ ثمّة حرب ضروس تدور رحاها، غير معلنة، لا رحمة فيها ولا شفقة. فكلٌّ من الأعضاء يحاول، اذا سنحت له الفرصة، دفع منافسه إلى الهاوية لتبتلعه؛ وفي هذه الأثناء كان ينتظر ساعته.

بعد موت ستالين وما تبعه من التطهير أوشك كالكثيرين من أمثاله على الغرق إذ فقد الحظوة في أعين الكبار، فأُلحق بوزارة الخارجية؛ وعُيِّنَ في سفارة بلاده في «بودابست» كمستشار. وخلافاً لكل التوقعات، جعل من هذا المركز منطلقاً للقفز نحو الأعلى، فسُميّ سفيراً مفوضاً للاتحاد السوفياتي في هنغاريا سنة ١٩٥٦، حيث لعب دوراً هامّاً في الأحداث التي عصفت في تلك البلاد خلال الخريف. كان، هو الذي استدعى (مشكوراً) الدبّابات السوفياتيّة لسحق أجسام الوطنيين والطلاّب تحت جنازيرها، وبالتالي لإخماد الثورة. ومن جهة ثانية، عرف بكثير من المكر والدهاء، كيف يستعيد ثقة القادة الهنغار. وكان في هذا المضمار يساعد «ميكويان» و«سوسلوف»، المرسلان من موسكو، في الساعات الساخنة. فعمل إلى جانبهما، وكأنّه الحليف والمحامي «لجانوس كادار» وساعده للوصول إلى رئاسة الحكومة التي تشكلت على عجل لتهدئة الأمور وإعادة النظام إلى البلد الأكثر أهميّة وحيويّة بالنسبة إلى موسكو. وقد قام بكل هذه الأدوار المتضاربة، دون أن تفارق، ابتسامة الثعالب، شفتيه.

استدعي يوري اندروبوف إلى موسكو، حيث نال تهنئة رؤسائه. وكلّف بالأشراف على الصراع السوفياتي ـ الصيني، وعلى تزعّم تحركات الشيوعيّة العالميّة، المتنازعة بين الطرفين. فنجح في هذا الميدان نجاحاً باهراً. وعلى سبيل المكافأة، سُميّ عضواً في اللجنة المركزية، تحت إشراف، رئيسه ومدرّبه «سوسلوف» خلال الأزمة بين السوفيات والولايات المتحدة الأميركية المتعلّقة

بالصواريخ المتواجدة في كوبا. ثم عمل على توثيق علاقات وديّة مع جميع الأحزاب الشيوعيّة الحاكمة في العالم؛ إلّا أنّه بعد هذه الانتصارات والإنجازات، أصبح قاسياً متجبراً يتفرّد بقراراته، ويتحرّك على هواه في عرين الشلّة الحاكمة.

خلافاً لما كان يعتقده الكثيرون، فقد نجا اندروبوف، من منجل التطهير الذي سلَّطه بريجنيف لدى تسلّمه الحكم، على كبار رجال الدولة، كما جرت العادة كلما تغيّر رأس الهرم. وقد صحّ فيهم المثل «عند تغير الحكم احمِ رأسك». ليس هذا فقط، فالمعلّم الجديد للاتحاد السوفياتي، اعترافاً منه بمقدّرات اندروبوف، أوكل إليه إعادة تنظيم جهاز .K.G.B جهاز المخابرات السياسيّ، لحماية وتحطيم الإنحرافات في أرجاء الأمبراطورية الشاسعة. فأمسك زمام الأمور بيد من حديد، وأعطى برهاناً جديداً عن الثقة بأنّ، من يمسك هذه الآلة الرهيبة، يمكنه الامساك بعنق الاتحاد السوفياتي. فبواسطة هذه الآلة، تمكّن ستالين من انتزاع السلطة من أيدي لينين المرتجفتين. وبفضلها تسلّط على الجيش الأحمر وحرمه من قيادته العليا في الثلاثينات وجعل منه دمية هائلة بين يديه.

من حيث أجهزة الأمن المرعبة، لم تتغير سوى الأسماء، بالنسبة للشعب. فالإرهاب والتنكيل ما زالا يقضّان مضاجعهم، ويحصي تحرّكاتهم. «فالاوكهارا» التي كانت على عهد القياصرة أنجبت التشيكا منذ ١٩١٧ وهذه أصبحت .G.P.U في العشرينات، ثم .N.K.V.D ثم .K.G.B العديد من الأسماء والمطلوب واحد: قطع الألسنه، وكمّ الأفواه، وتصفية المعارضين. وباختصار، جهاز هائل، له الخبرة الكافية في المراقبة السياسيّة، والتجسس، ومكافحة التجسس. كما أنّه يضمّ فريقاً من أمهر القتلة. وهذا الجهاز يتألف من خمسة وأربعين ألف رجل، منهم خمسة عشر الف خارج البلاد سنة ١٩٦٧ عندما عهد به بريجنيف إلى أندروبوف. وكانت قيادته تحتل صفّاً طويلاً من الأبنية، إضافة إلى سجن رهيب يقبع في ظلال الكرملين. فالداخل إليه مفقود، والخارج منه مولود. لكن قليلاً ما كان يولد أحد، فإذا ولد، تكون

الولادة في أقاصي سيبيريا.

كان على رأس هذه المؤسسة (الإنسانية) «فلادمير سمشستني» الذي أدار شؤونه لمدّة ست سنوات، تراكمت خلالها الجثث. لكنّه ترك ابنة ستالين تتسلّل إلى الغرب. وكان تساهله هذا، سبباً كافياً، لإلحاقه بضحاياه. وعندما تسلّم زمام الأمور، أندروبوف القوقازي الأصل، وسم الـ .K.G.B بطابعه الخاص خلال الخمسة عشر سنة التي قضاها في تقويمها وتحديثها، حتى نال الترقية التي حملته، في أيار ١٩٨٢، إلى سكرتارية اللّجنة المركزيّة ليتربع على القلطق، الذي كان يحتلّه سوسلوف. وفي الغرب، أثار موجة من التعليقات، فرؤساء ال .C.I.A في الولايات الأميركية المتحدة، لم يخفوا «إعجابهم المهني» بأساليبه وتصرفاته التي استوحوا منها الكثير، معترفين بمقدرة هذا الخصم القاسي، الحزين، البارد الذي يحسب كل شيء بدقة. لقد عرف كيف يعيد النشاط والحماس بشكل عملي إلى أجهزته التي تعمل في الخفاء. فكان يختار عملاءه من خرّيجيّ أعلى المدارس والجامعات السوفياتية، فيجنّد المهندسين والفنيّين القيّمين، وألف من خيرتهم، فريقاً خاصاً للتجسّس الصناعيّ والتقنيّ. وأصبح هذا الفريق أكثر فعالية، وأوفر محصولاً للإتحاد السوفياتي، من الباحثين عن الأسرار العسكريّة في الخارج.

أمّا في الداخل، أي في روسيا ذاتها، فقد زاد أندروبوف من الضغط الذي يمارس على المنتقدين والمتذمرين. فإذا لم يكن هو مخترع المستشفيات النفسيّة، والتي ليست بالحقيقة سوى سجون «لمعالجة» المعارضين، فهو من عمّمها. فهذه المؤسسات، التي تدعى تمويهاً، مستشفيات، أصبحت ثلاثين، منتشرة في أرجاء البلاد بعد ان كانت ثلاثاً. وعندما تسلّم زمام الأمور سنة ١٩٧٣ أطلق عنان معركة لا رحمة فيها، ولا شفقة ضد الفساد الذي يدمي الأمبراطورية. وفي هذا المجال، أطاح بالمسؤولين في جمهورية أذربيجان، كما أجرى تغييرات جذريّة في معالجة الحكم في جورجيا، كذلك قام بهجوم ساحق في «الكراسنودار». فأقال السكرتير الأول للحزب، المعروف «بأنّه لا يُمسّ» وبالطريقة ذاتها، عامل رئيس بلدية «سوتشي»! من هنا، عُرف بالنزاهة

والشّجاعة فذاع صيته وانتشرت شهرته في أرجاء البلاد، ممّا شكّل بالنسبة إليه درعاً يحميه ويلجم أخصامه. سنة ١٩٨٠، لم يتردد إطلاقاً، في التصدي لشلّة بريجنيف، للمقربين من الأمبراطور شخصياً. وفي ١٩٨٢ ضرب ضربته في المحيط العائلي لرئيس البلاد بشخص صهره، الجنرال «تسفينون» مساعده الأول في جهاز K.G.B. الذي وجد مذنباً بجرم الإخلال بأمانة الوظيفة فأنتحر! كما أوقف اثنين من أقرب اصدقاء «كالينا تشوربانوفا» ابنة الرئيس، بجرم السرقة، وطرد من وظيفته، زوجها الجنرال «يوري تشوربانوف» نائب وزير الداخلية، واعتقله بتهمة الفساد وإساءة استعمال السلطة، وكان على قاب قوسين أو أدنى من حبل المشنقة.

في حينه قيل أنّ أندروبوف «مسكون» من الجنّ. كما لُقّب من الكتّاب والمفكرين «بغوشيه» (زعيم الثورة الفرنسية) الحديث، الذي جعل المقصلة في حينه تعمل (بدوام كامل) في رقاب الفاسدين والمفسدين، ومصاصيّ دماء الشعب. كما كان أندروبوف، يتمتع بمقدرة كبيرة على لجم رغباته، فلم يتورّط في إثراء أو صفقات غير مشروعة. وكان محبّاً للبطش والقوّة بالغريزة. فدفع صحّته ثمناً لذلك. وممّا ساعد على تدهور صحته، عدم إيمانه بالحمية، وعدم مراعاته لأبسط القواعد الغذائية، فكان يضع الطعام فوق الطعام، وكأنّه لا يشبع. وكأنّه لم يسمع إطلاقاً بالقول المأثور: «المعدة بيت الداء، والحمية رأس كل دواء».

في عهد بريجنيف، كما في العهود السابقة منذ ستالين، درجت العادة بين الشلّة الحاكمة على الشراهة، (إذ صحّ التعبير)! فكانوا يأكلون خيرة المأكولات والمنتوجات المحليّة والمستوردة من خيرة المصادر، من اللّحوم والأسماك والأجبان والمشروبات. وجميعها غنيّة بالمواد البروتينية والدهنية. كذلك الحلويات والمعجّنات التي تحتوي الكثير من السكّر. وكأنّهم بهذا الإسراف يثأرون لأنفسهم من أيّام الفقر والجوع، التي ذاقوا منها الأمرّين. وزيادة على ذلك، كان أندروبوف مولعاً بالكونياك الفرنسي. فكان يعبّه ليلاً نهاراً. ولم يتأخر به الزمن، حتى أصيب بتعقيدات صحيّة خطرة، وبسوء إداء

في جهازه الهضميّ. وأخيراً أكتُشف لديه إصابة متقدّمة بداء السكّري ممّا استلزم حقنه بمادة الانسولين بصورة منتظمة وبكميّات مرتفعة وأُخضع لنظام غذائيّ صارم. إلّا أنّ شراهته وحبّه للطعام والشراب، كانت تدفعه، من حين لآخر، لتناسي تعليمات أطبائه ولضربه بالنظام الغذائيّ المفروض عرض الحائط. فيغوص ويسبح بالطعام والشراب حتى أذنيه. ممّا جعل حالته الصحيّة تتفاقم وترتفع كميّة السكّر في دمه، حتى توصّل نظره، إلى حافّة الظلمة والعمى، ورغم نظّاراته السميكة، كانت الأوراق التي عليه قراءتها، تضرب على آلة كاتبة خاصّة، ذات أحرف كبيرة جدّاً، صنعت خصيصاً لذلك. كذلك بعد تسلّمه مقاليد «أمور أل» .K.G.B أصيب بذبحتين قلبيتين، ممّا يعني بأنّ أوعيته الدمويّة لم تعد مرنة كما يلزم، وبأنّه أصبح عرضة للإصابة بجلط دموية، كما أنّه كان يشكو من آلام المفاصل.

وفي السنة التالية لاعتلائه العرش ظهر الزلال والشحم في دمائه، ممّا يعني، أنّ كليتيه تعاني صعوبة بالقيام بواجباتها من حيث تصفية وإزالة السموم من الجسم. أضف على ذلك التهاب المفاصل؛ من النتائج الحتميّة لكلّ هذه الأمراض التي تتزاحم في جسده، فقد تآكلت جميع أعضائه وأصبح في حالة من الانحطاط العام، يرثى لها.

قبل أن يتمّ انتخابه للمنصب الأعلى، في الاتحاد السوفياتي، أُخضع لجلسات علاجيّة عديدة، تهدف إلى تنقية البول خوفاً من أن يصاب بالتسمم من الزلال وغيره من الفضلات، في عيادة الكرملين الشهيرة. ممّا يفسر بعض أسباب الضعف والهزال، الذي أدهش المدعوين الغربيين إلى مأتم بريجنيف.

وفي هذا المجال، ذكر أحد أهم الأخصائيين، وكان قد أستُدعي لأخذ رأيه بحالة أحد الوزراء المصاب بالسكري، والذي يعالج بواسطة الكلي الاصطناعية، في .«الكريملينوفكا» أي عيادة الكرملين، حيث يعالج أمراء النظام، بأنّ هذه العيادة تحتوي على أحدث ما توصّل إليه العلم من أجهزة الفحص والمعالجة، والتي لا تتواجد إلّا في بضع من مستشفيات العالم. إلّا أنّه بالرغم من هذه الأعتدة والأجهزة المتطورة، في حالات خاصة معيّنة، كانت

النماذج المطلوب فحصها، من دماء أو بول، أو خلافه، ترسل فوراً بالطائرة، إلى فنلندا حيث تفحص في مختبر فريد من نوعه في العالم. وفور انتهاء المطلوب، تبلّغ النتائج إلى موسكو بواسطة التلكس. وقد لجأ أطباء الكريمليىنوفكا» إلى هذه الوسيلة في معالجة أندروبوف سنة ١٩٨١.

عندما سمّي أندروبوف على رأس جميع الجمهوريات السوفياتية، في تشرين الثاني ١٩٨٢، ظهرت على معالم هذا القوقازيّ، بالرغم من جميع أمراضه وأوجاعه، بوادر الصحة والنشاط، بصورة تلفت الأنظار، لا يمكن وصفها «إلا بالعجائبية». إلاّ أنّه من المؤكّد، أنّ هذه المرحلة من النشاط والحيويّة، هي من مصادر نفسيّة وليست جسديّة، وشهر عسل ينعم به مع السلطة المطلقة على إحدى أوسع أمبراطوريات العالم. وقد دام هذا النعيم مئة يوم بالتمام والكمال؛ في إحدى محاضراته التي ألقاها، وهو يرفل بهذه الحيويّة المرحليّة، أكّد على مسامع الحضور، بأنّه سيتابع المعركة التي بدأها يوم كان على رأس الـ K.G.B. ضد الفساد والرشوة والتخاذل، ثمّ ما لبث بعد أيام من خطبته العنترية أن تقوقع طريح الفراش.

في السادس عشر من شباط سنة ١٩٨٣، كان من المفروض، أن يستقبل أندروبوف، السيد «كلود شيسون» وزير الخارجية الفرنسية الموجود في موسكو على رأس بعثة دبلوماسية. فطلب منه إرجاء المقابلة، في آخر لحظة، حتى العشرين منه. بعد ذلك، لاحظت هذه البعثة، أنّ السوفياتيّ الأول، نحيل الجسم جدّاً ويبدو تعباً منهوك القوى؛ لقد عاد، على الارجح، إلى الاستعانة بالكلية الاصطناعية.

في الأيام التالية، وتحديداً خلال آذار، تكاثر تغيّب أندروبوف عن مركز عمله، ممّا لفت الأنظار. وفي إحدى هذه «الفرص القسريةّ» تغيب لمدة عشرة أيام، ممّا عقّد الأمور بالنسبة للمقابلات المتفق عليها مسبقاً مع السلطات الأجنبية. وأصاب المكلّفين بتنظيم هذه المواعيد بالارتباك والحرج.

خلال نيسان، من جديد تحسنت صحّته بعض الشيء وتوقفت عن

التدهور لمدة شهر كامل. بالمقابل، خلال مأدبة أقامها على شرف رئيس المانيا الشرقية «اريك هونكر»، لاحظ المدعوون، كم كان يبذل من جهد لإخفاء ارتجاف أصابعه. كذلك خلال حزيران، على مرأى من الجميع في حفل استقبال رئيس «فنلندا» في الكرملين، كان اثنان من الحرس الخاص، يساعدان أندروبوف في صعود إحدى السلالم؛ أيضاً وأيضاً، في تموز ١٩٨٣ كان من المفروض إجراء محادثات بينه وبين مستشار المانيا الفدرالية «هلموث كول» الموجود في موسكو. إلّا أنّها أُلغيت في اللحظة الأخيرة كما أنّه تغّيب عن الحفلة التي أُقيمت بهذه المناسبة. وخلافاً للعادة والعرف، لم يستطع «أندروبوف» مرافقة ضيفه الكبير إلى المطار، لدى مغادرته الأراضي السوفياتية. من هنا، انطلقت الشائعات، وأصبحت صحّة الرئيس على كل شفة ولسان، وعنواناً بارزاً في الصفحات الأولى من الصحف «ولكن خارج الأراضي السوفياتية».

هل ما زال اندروبوف مؤهّلاً للحكم، تحت كل هذه الضغوطات والصعوبات الصحيّة؟ لم يطرح هذا السؤال على بساط البحث في الاتحاد السوفياتي. وإذا طُرح، فبكثير من الحيطة والحذر. إذ أنّ سيبيريا تكون أقلّ ما ينتظر من يتجرأ على الخوض في هذا المجال! ولذلك بقي أندوربوف في مركزه يمارس الحكم حتى خريف ١٩٨٣. ولكن بأيّ طريقة؟...! فالغرب يتخوّف من تقلبات مزاجه وتصلّبه في مواقفه، وخصوصاً فيما يتعلّق بتخفيض الأسلحة العابرة للقارّات وكذلك عدد الصواريخ المنتشرة في أوروبا. وأكثر ما كان يخشاه الغرب، تعليق أو إلغاء المحادثات المتعلّقة بهذا الشأن، التي تجري في جنيف. كذلك هدّد اليابان بزرع أسلحة نووية جديدة على أبوابها، كما تعمّد وسائل الإذلال مع الأوروبيين. ولم ينسَ نصيب الولايات الأميركية المتحدة من بهورته. فقد اتهمها بالنوايا العدوانيّة والاستعماريّة. ولدى إسقاط مطارداته طائرة البوينغ الكورية الجنوبية والتي تحمل على متنها ٢٦٩ مسافراً، بالقرب من جزيرة سنحالين، لم يطرف له جفن، ولم ينبس ببنت شفة مستهتراً بكل الاتفاقات والمعاهدات الدوليّة التي ترعى شؤون الطيران المدني،

ومستخفاً بالرأي العام العالميّ. هذا في الخارج، أمّا في الداخل فقد صعّد من حملات الاعتقال والتعسّف، قولاً وعملاً ضد الأقليات الوطنية والدينية وصبّ جامّ غضبه على اليهود وأوقف هجرتهم ومغادرتهم البلاد.

في آب ١٩٨٣، رأى المراقبون، أنّ حالة أندروبوف الصحية وبالتالي سوء تصرفاته وفساد قراراته، قد تجاوزت كل حدّ. وعلى سبيل المثل، فإنّ عملية تنظيف الدمّ بواسطة الكلى الاصطناعية قد ازداد معدّلها. فمن ثلاث ساعات، ومرّة في الأسبوع أصبحت ثلاث مرّات في الأسبوع ولمدّة تتراوح ما بين أربع وثماني ساعات في كلّ مرة. ومن المعروف أنّ اللجوء إلى الكلية الاصطناعية، يخلق صعوبات في الأوعية الدموية والعظام، وكذلك متاعب قلبيّة، ممّا يستدعي التوقف عنها، والاستعاضة بزراعة كلية أو اكثر إذا أمكن. وعلى الأرجح، هذا ما لجأ إليه أطباء الرئيس أندروبوف. إذ استُدعي إلى موسكو، في تشرين الثاني فريق من الأخصائيين الألمان الشرقيين؛ المشهود لهم! وفي الشهر نفسه أصيب بخلل وبطء في عمل القلب ممّا استدعى زراعة منشّط لقلبه العجوز. بعد ذلك، من جرّاء خلل بسيط في الدماغ، فقد لمرحلة قصيرة المقدرة على النطق. وبعد معالجته، احتفظ بصعوبة ظاهرة في اللفظ. كما كان يصاب من حين لآخر بشلل جزئيّ أو تام في أحد أطرافه، ممّا جعل أطبّاءه يعلمون المكتب السياسيّ في اللجنة المركزية بأنّ عليهم الاستعداد التامّ لاختيار خلفٍ له. ومن هنا دقّ جرس الإنذار، وأخذ كل من أعضاء اللجنة المركزية «يبلع ريقه ويمشّط لحيته».

اندروبوف يرفض الموت:

بعض المحتضرين يرفضون الموت ويقاومونه بشكل مدهش، ومنهم أندروبوف، فقد بقي يقاوم في معركة البقاء، لأكثر من شهرين. يبدو، أنّه قد هاله أن يترك كلّ هذا العزّ فيمضي دون أن يعوّل على شيء، أو أن يأخذ معه شيئاً. فتشبّت بالحياة تشبث الغريق بحبل النجاة. في ما يتعلّق بنشاط فريق «الكرملينوفكا» الطبيّ في معالجته، لم يتسرّب أيّ خبر! إلّا أنّه وفي نشرات

دوريّة تصدرها اللّجنة المركزيّة، أكّدوا أنّ الزعيم في تحسن مستمر، وأنّه سيعود إلى عمله وشيكاً، وسيظهر على الشّعب قريباً. أمّا الحقيقة فهي أنّهم لن يروه مجدّداً، إلّا محمولاً على الأكتاف، أو على عربة مدفع.

في العشرين من كانون الثاني ١٩٨٤، أعلن رئيس تحرير «البرافدا» إلى مراسلي شبكة التلفزيون الأميركيّة .C.B.S أنّ الرئيس أندروبوف مصاب بالبرد. وقد تحوّل إلى «كريب». وأنّة سيستريح لمدّة خمسة عشر يوماً وعلى الأكثر لمدّة ثلاثة أسابيع. بالنسبة لأهل السياسة، وقد اعتادوا على هذا النوع من الشيفرة في ممرات دور الحكم، فهم يفهمون بأنّ الرئيس، موضوع التصريح، قد أصيب بذبحة قلبيّة أو جلطة دماغية. وهكذا كانت الحقيقة بالنسبة لأندروبوف، فنوبة قلبيّة جديدة أصابته أودت به في التاسع من شباط ١٩٨٤ . ولا شيء مؤكّداً عمّا حدث له في اللّحظات الأخيرة. إلّا أنّه قد توفي في الساعة ١٦ وخمسين دقيقة بعد ظهر ٩ شباط ١٩٨٤.

«قسطنطين تشرنانكو Konstantin Tchernenko»

لكلّ أجل كتاب. والقدر وحده يقرّر مصير الانسان ونهاية أجله! وللصدفة دورها في هذا المجال. فمن غريبها، أن لا يدفن السوفيات أحد الرؤساء إلا في عزّ الشتاء. والكلّ يعلم بأنّ شتاء موسكو ليس كغيره.

في كانون الثاني ١٩٢٤، لدى إجراء مراسم الدفن الصاخبة، الهستيرية، لأبي الثورة البولشفية، ومخرجها، وأول رئيس، لما سُمّي في حينه إتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، لينين، كانت السماء، ولعشرات الأيام، ترسل كل ما لديها من الخير حتى غابت معالم موسكو عن الأنظار تحت غطاء سميك من الثلج. وكأنّه من القطيفة الناصعة البياض، وساد الصقيع حتى حدّ إذابة البشر والحجر. كذلك، في أوائل آذار ١٩٥٣، كانت تسيطر على موسكو موجة من الصقيع توازي في حدّتها أمثالها في القطب الشمالي، يوم نقل جثمان ستالين إلى مثواه الأخير، وقد حُنّط مرتدياً ثيابه العسكريّة، للتذكير بالدور الهام الذي قام به في الحرب العالمية الثانية بالاشتراك مع روزفلت، وتشرشل وديغول.

في خريف ١٩٨٢، كانت نسمات تشرين الثاني «العليلة» تخترق المعاطف السميكة حتى تصل إلى عظام المشاركين بنقل الرئيس بريجنيف ومواراته الثرى، بالقرب من حائط الكرملين.

وكما مر بنا سابقاً، ففي الرابع عشر من شباط ١٩٨٤، ألقت شعوب الجمهوريات السوفياتية التحيّة والنظرة الأخيرة على رئيسها أندروبوف وعلى سبيل المحافظة على التراث والتقاليد، كانت في كلّ مرّة، تفتح المدافع أشداقها

في زخّات متتالية تحيّة للراحل الكبير، ويتوقف العمل لبعض «اللّحظات» في أرجاء الأمبراطورية المترامية الأطراف. كما أنّ المدارس والجامعات كانت تغلق أبوابها لمدة أربعة أيام، «مّما يشيع الفرحة عند التلامذة والمدرّسين».

على أقدام القلعة الكبيرة، «الكرملين»، التي تأوي قلب النظام، كان ذوو المراكز الكبيرة، المتدثرون بالسميك من الفراء، كما تقضي التقاليد، يحملون النعش وقد نزع غطاؤه، حتى المدفن. ممّا يتيح للمدعوين من جميع أقطار العالم، التعرّف على «الخان» الجديد، الذي سيخلف الغائب. إذ أنّه يترأس المراسم، ويقود السمفونية التي تجري فصولها وفي هذه المرّة كان قسطنطين أو ستينوفيتش تشرنانكو.

يظهر أنَّ في الاتحاد السوفياتي هناك «ميثاق شرف» يقضي بأن يكون لكلّ من أفراد الشلّة الحاكمة حصّته من قرص الحلوى، وشهر عسله، حتى ولو تأخر إلى خريف العمر أو شتائه، كما هي الحال مع تشرنانكو. ولكن ما من همّ. فمقبرة الكرملين تتسع للجميع، ولن يضير الشعب السوفياتي، أن يتوقف عن العمل «حزناً» فيلتقط أنفاسه لبضع لحظات. ولا شيء يسعد التلامذة ومدرّسيهم اكثر من عطلة لأربعة أيام متمنين لو يتكرر الحدث السعيد في مراحل أقرب. بدا تشرنانكو، أثناء مراسم الدفن، في الاثنتين والسبعين من العمر، ثقيل الخطوات، ينقل قدميه بصعوبة ظاهرة فاضحة، ممّا لا يوحي بالصّحة والنشاط كما أنّ موجات صغيرة متلاحقة كانت تخرج من بين شفتيه مصحوبة بحشرجة وصفير خافت ممّا يعني قصراً في الأنفاس. بالفعل كان في حالة يرثى لها إلى درجة أنّه، بعد ثلاثة عشر شهر «فقط لاغير» في المكان نفسه، والجوّ المثلج عينه، اشترك نفس الضيوف والمدعوون بمراسم مماثلة. أمّا المحتفى به في هذه المرّة، فكان قسطنطين تشرنانكو! لكن ممّا لفت أنظار الحضور، أنّ المراسم كانت مقتضبة ومختصرة، خالية من مظاهر الأبّهة والفخامة. وكان أعضاء المكتب السياسيّ واللجنة المركزية، خلافاً للعادة، يمتطون السيّارات، بدل أن يرافقُوا النعش سيراً على الأقدام. وكأنّهم على عجلة من أمرهم للانتهاء من هذه المهمّة الكريهة. كما أنّه لم يكلّف نفسه أحد

هؤلاء الامراء، ورثة العرش، حمل النعش حتى القبر، ثمَّ أنّ ما من أحدهم كشف عن رأسه على حافة الحفرة التي ستضم جثمان زميلهم ورئيسهم السابق. وكأنّهم بهذه السرعة وهذا الاختصار «بطمر» تشرنانكو، يوم الأربعاء في الثالث عشر من آذار ١٩٨٥، قد تخلّصوا من حمل ثقيل، ومن حكم لم يحمل إلى الاتحاد السوفياتي أيّ مجد، وكانت مدّة حكمه الأقصر في تاريخ البلاد.

كان قسطنطين تشرنانكو على مثال أسلافه من كبار المنغوليين الذين حكموا البلاد وفقاً للنظام المبني على الفلسفة الماركسية، التي تتفاخر بأنّها تطلب من الفرد إمكانياته وتعطيه حسب حاجاته. ابن فلاح بسيط، جلس على عرش بطرس الكبير، ونقولا الثاني، فمن يحلم بأكثر من هذا؟

كانت عيناه مشقوقتين ومنحرفتين، ووجنتاه بارزتين عاليتين، تجعل منه نموذجاً واضحاً لأهالي سيبيريا، وبالفعل كان سيبيرياً من الجيل الثاني، إذ أنّ أسلافه كانوا قد هاجروا إلى الشرق في أيّام القياصرة. وكانوا عائلة كبيرة العدد من الفلاّحين الفقراء، يعملون في قطعة من الأرض، لا تنتج ما يسدّ رمقهم من حساء الملفوف والخبز الأسود، في «بولشايا» من منطقة «كراسفويارسك» المحاذية لمنغوليا في منشوريا والتي حوّلها السوفيات إلى منطقة مناجم وصناعة.

عندما استولى لينين على الأمبراطورية، لم يكن تشرنانكو سوى طفلٍ في السادسة من العمر. وعندما بلغ العاشرة، ذهب كأترابه ليعمل في الحقول، وكانت الأفكار الجديدة التي زرعت في موسكو، تقطع المسافات بسرعة وتلقى تجاوباً بين الفقراء والمتعبين، ومنهم تشرنانكو الصغير، الذي، في الثامنة عشرة من العمر، أصبح عضواً في الشبيبة الشيوعيّة التي تألّفت حديثاً في مقاطعتهم، ثم أصبح مسؤولاً عن جهاز الدعاية والتحركات. فبرع في هذا المضمار وأصبح يمتاز به بقيّة حياته، كما تعلّم القتال والصدام وأتقن الهجوم بالقنابل اليدويّة.

في السنة التالية، اشترك في اغتصاب الملكيات الكبيرة في مقاطعته بناءً

لأوامر ستالين. فقام ورفاقه بأشرس معركة عرفها التاريخ، واستولوا على ثلاثٍ من أصل خمسٍ بعد إبادة أصحابها بالفراريع والفؤوس. وقد ذهب ضحيّة هذه المجازر عشرات الملايين من المّلاكين ورجالهم ومن حولهم من رجال الدين والسلطة. بعد سنة من ذلك، أصبح عضواً في الحزب الشيوعي، وانضمّ إلى الجيش الأحمر ـ فأُلحق بالفرقة المميّزة من حرس الحدود التابعة لأمن الدولة التي عرفت في حينه بالـ .N.K.V.D حيث أمضى عقداً كان قد وقّعه لمدّة عشر سنوات في هذه المؤسسة الجهنميّة.

أمّنت هذه المؤسسة لتشرنانكو أولى سفرياته الطويلة نحو الغرب. ووصلت به، إلى الجمهورية السوفياتية المستقلة، «مولدافيا» المغتصبة من رومانيا المجاورة حيث أعجب به المسؤولون، فألحقوه بمدرسة الحزب، لدراسة العقيدة، وصقلوا موهبته الخاصة بخلق المتاعب، من مظاهرات وإضرابات واغتيالات. وكان يقوم بكلّ ما يُطلب منه في هذا المجال «بكل دقّة وأمانة». فاشترك مع جهاز الـ .N.K.V.D في الثلاثينات، بناءً على أمر ستالين بأعمال التطهير والتصفية. وفي إحداها التي جرت في أوكرانيا مسقط رأس ليونيد بريجنيف سنة ١٩٣٨ وخلال ليال طويلة، لجأت أل .N.K.V.D إلى تصفية المساجين السياسيين في هذه المقاطعة الصناعيّة. وكانت تنفّذ مجازرها في مرأب البوليس السريّ، كما أفاد أحد سوّاقي هذه الدائرة، حيث يقاد الضحايا، بالعشرات. أمّا سريّة الاغتيال، فكانت تتألّف من المتطوعين من الجهاز السريّ. وكان رئيس فريق القتلة «بيريزوفكي» ورئيسا الجهاز حينئذ «تساليف» و«ميكائيلوف». وكان معاونهما تشرنانكو (شخصيّاً). وقد روى بعض المهاجرين عن هذه المجازر بالتفصيل سنة ١٩٥٨ . وأكدّوا أنّ قسطنطين تشرنانكو كان أحد مطلقي النار على الضحايا سنة ١٩٣٨.

في مذكّرات هذا السيبيري، لم يذكر أيّ شيء عن نشاطاته في هذه الحقبة من الزمن، فقط، ذكر أنّه قام بأعمال مختلفة في النقابات، ومجلس السوفيات، والحزب منذ ١٩٢٩ حتى ١٩٤١ . كما أنّ أحد المحررين الرسميين في جريدة البرافدا في ٢١ تشرين الثاني ١٩٧٢، أغفل ما أتى على ذكره أحد المسؤولين

الحزبيّين المحليّين في اوكرانيا «سميون زاديوتشنكو». وقد أكّد وجود تشرنانكو ـ السيبيري، إلى جانبه في تصفيات ١٩٣٨.

من كلّ ما مرّ معنا، فإنّ وضاعة الأعمال والمهام التي قام بها تشرنانكو ومارسها طويلاً لا تهيّئه إطلاقاً لقيادة الاتحاد السوفياتي في يوم من الأيّام. لم يكن أبداً أكثر من مساعد من الدرجة الثالثة أو الرابعة. ولم يحظ بلقب مرموق، مثل سكرتير أول، رئيس إدارة أو مدير جهاز، ممّا يعني وجود نقص كبير في ثقافته وجهوزيته، وقلّة إمكانياته حتى أنّه رُفض كمتطوع في الجيش الأحمر سنة ١٩٤١، عندما غزا هتلر الأراضي السوفياتية. وقد روى ذلك في مذكراته التي نشرت أثناء حكمه، حيث يقول: «منذ ٢٢ حزيران من تلك السنة، رفضت كل طلباتي. ألا يعني ذلك أنّهم وجدوني حينئذ غير صالح للأعمال الجسديّة، وبالتالي غير صالح للجنديّة.

كما أنّه في لقائه مع ليونيد بريجنيف في «مولدافيا» سنة ١٩٥٠ يوم أصبح مديراً للحزب في تلك الجمهورية، لم يلفت أنظاره بشكل من الأشكال، بالرغم من أنّه يملك بعض الصفات التي يمكن الاستفادة منها من قبل طاغية من وزن بريجنيف.

وأخيراً انتقل إلى موسكو كمسؤول حزبيّ صغير عن أحد الأحياء. ولم يصبح فعليّاً عضواً في شلّة بريجنيف إلّا سنة ١٩٦٠ . وقد أصبح بريجنيف عضواً في المكتب السياسيّ في أطراف جهاز خروتشوف، وقد نال منه الضجر والسأم في مركزه البروتوكولي الهامشيّ لسيّد البلاد. فعينّ تشرنانكو رئيس سكرتاريته، وهو منصب غير سياسيّ وليس أكثر من كاتب. وقد نجح في هذا المجال، ممّا لفت إليه أنظار بريجنيف. وفيما بعد، عندما غزا السلطة سنة ١٩٦٤ ومارسها حينئذ بالاشتراك مع كوسيغين وبودغورني، ثم تفرّد بها منذ ١٩٧١، فأصبح بحاجة لحاشية، فأخذ تشرنانكو يتقرّب من الأمير الجديد بكلّ ما أوتي من حيل، فجعل منه رئيس مكتب اللجنة المركزية حيث بقي عشر سنوات. وفي هذا المركز أُتيح له معرفة أشياء كثيرة متنوّعه. ولكن ما لا يفسّر، هو أنّه في نزوة من نزوات بريجنيف، أسماه سكرتيراً فدراليّاً للحزب.

وفي سنة ١٩٧٦ جعل منه عضواً رديفاً في المكتب السياسي، ثمّ عضواً أصيلاً سنة ١٩٧٨، كما دفعه للسفر إلى الخارج لمزيد من الخبرة ودرّبه ليصبح محاضراً مساعداً في الخارج. فكان يشارك في لقاءات الحكّام والرؤساء في العالم.

ماذا كان يريد بريجنيف من وراء ذلك؟ وماذا كان ينتظر من تشرنانكو في المستقبل ليلعب ورقته بهذا الإصرار والسرعة، مع علمه بأنّه غيرُ ذي قيمة؟ وأنَّهُ لا ينقصه الأعضاء من ذوي الأوزان الثقيلة في المكتب السياسيّ ممّا يؤمّن له اكثرية ساحقة لم يعرفها الاتحاد السوفياتي قبل الآن. عندما ظهر تشرنانكو، في المرّات الأولى، في المجتمع الدبلوماسي، تساءل رجال السلك الأجانب، من أين يأتينا هذا الفلاّح القادم من أقاصي سيبيريا؟ والذي كان برفقة سيّده، ذي الحواجب الكثيفة، يحتفظ بمظهره الخشن. فكان موضوع سخرية، حتى علّق أحدهم، وهو فرنسي على الأرجح «إنّ هذا الفلاّح المنغولي لايصلح إلاّ لفتح زجاجات المياه المعدنيّة ليقدّمها إلى سيّده». دون شكّ، كان يفعل ذلك بشكل مُرْضٍ! كما أنّه يجيد السمع وهذا ما كان يريده «القيصر الصغير» بريجنيف من أتباعه.

خلال سنة ١٩٨٢، وفي الأشهر الأخيرة من حياته، لم يعد له من همّ، سوى، إبراز وتلميع صورة رجله الوحيد تشرنانكو، حتى بلغ في هذا المسعى، حد إجلاسه عن يمينه، في الاجتماعات والاحتفالات الرسميّة. وبهذا يكون قد ساعده على تخطي العديد من أمراء السياسة والمكتب السياسيّ. وممّا أزعجهم وقضّ مضاجعهم، أنّه لا مجال للإحتجاج أو التصدي لما اعتبروه إجحافاً، وليس بإمكانهم سوى تبادل الشكوى فيما بينهم همساً.

«طُوّب» تشرنانكو سريعاً، كمناضل كبير من أبطال الثورة سنة ١٩٨٤، في جريدة البرافدا الناطقة باسم الحكومة. ولكنّ هذا التكريس، لم يَخْلُ من تعليق المراقبين السياسيين في العالم. فكتب أحدهم معلّقاً: «أنّه زعيم لا نفع منه، ولا يمكنه إنهاء محاضرة، دون التوقف مطوّلاً، عند كلّ كلمة مؤلفة من عدّة مقاطع، كما أضاف أحد مراسلي صحيفة فرنسية كبيرة من موسكو. وقد لاحظ بأنّ يده ترتجف عند إمساكه بورقة. وفي الولايات المتحدة وبريطانيا

وغيرها من بلاد العالم، وجد فيه رسّامو الكاريكاتير موضوعاً سخيّاً ودسماً لممارسة فنّهم. فكانت لا تكاد تخلو صحيفة من صورة كاريكاتيرية مضحكة، بشكل أو بآخر.

اللجنة المركزيّة تتردد بانتخاب تشرنانكو المريض:

اكتمل عقد أعضاء اللّجنة المركزيّة في الكرملين كالعادة، لانتخاب خلف للرئيس أندروبوف، في اليوم التالي لإيوائه في حضن التراب. ولكن في هذه المرّة، كانوا جميعهم متجهميّ الوجوه، هذا ما لاحظه الصحفيّون، ونشروه فيما بعد، قبل أن يلقى بهم خارج القاعة، جرياً على عادتهم في عدم نشر غسيلهم على السطوح! لكن، رغم السريّة والتّكتّم، لم يعد من مجال للشكّ، بأنّهم كانوا على خلاف فيما بينهم، حول المرشح الجديد. وممّا أدهش العالم، انّ هذه الجلسة قد اخذت منهم أربع أيام بلياليها، خلافاً للعادة. ففي مثيلاتها، كانت عمليّة انتخاب رئيس جديد نوعاً من قراءة منشور تمّ الاتفاق على مضمونه سابقاً، إذْ ترتفع الأيدي مؤيدة بالاجماع فيعلو التصفيق، ويتسابق الأعضاء على شدّ يد المعلّم الجديد متبارين في التزلّف والتودّد. فيشرب الجميع نخبه، متمنين له النجاح. كلّ ذلك، تحت سمع الصحفيين وبصرهم وأمام عدسات آلات التصوير الحديثة. أمّا في هذه المرّة، كما مرّ بنا، فكانت جلسة ماراثونية طويلة مغلقة وسريّة، دون حسيب ولا رقيب، تعود بأسبابها، إلى تردّد الأعضاء بانتخاب رجل مريض يجرّ اقدامه جرّاً، وغير قابل للشفاء نظراً لتقدمه في السّن. وبانتخابه، يكونون قد كرّسوا، مرّةً جديدة «شاهاً» مريضاً على رأس السلطة في الاتحاد السوفياتي.

كان قسطنطين تشرنانكو ضحيّة إصابة بانتفاخ إحدى رئتيه إلى جانب إصابته بالسكّري المزمن. وهذا أمْرٌ معروف عند كلّ معارفه، ولا يمكن تجاهله وعدم ملاحظته حتى من أبسط الناس.

من المؤكّد أنّ هذه الأمراض تتفاقم ببطء شديد، وفي بعض الحالات خلال سنوات طويلة، قبل أن تبدو بشكل ظاهر؛ ولكن كغيرها من الأمراض الغير القابلة للشّفاء، تعمل على تهديم نفسيّة صاحبها. زد على ذلك، أنّه بقدر

ما يستسلم المريض، تتفاقم صعوباته، حتى تتحول إلى إعاقة ظاهرة. والأهمّ من كلّ ذلك، أنّ المريض يصبح على معرفة تامة بما ينتظره من الآلام والموت الوشيك، فيصبح مهملاً مستهتراً وهذا ليس في مصلحة إدارة دولة عظمى من دول العالم.

والجدير بالذكر أنّ الذين نجوا من الموت بالغازات السّامة، التي استُعملت في المعارك خلال الحرب العالمية الأولى، أصيبوا بتضخّم في الرئتين ثمّ قضوا نحبهم من جرّاء ذلك فيما بعد. كذلك عمّال المناجم، ونحّاتو الأحجار لا يعمّرون طويلاً لكثرة ما يتنشّقونه من الغبار. كذلك الذين ينفخون الزجاج وبعض الموسيقيين الذين يلعبون على آلة هوائيّة، يموتون جميعاً مختنقين من جرّاء نوعيّة عملهم، بالإضافة إلى المصابين بالربو، والسلّ، وكبار المدخنين، والمصابين بالبرونشيت المزمن الذين يشكلون القسم الأكبر من فيالق الضحايا كل سنة. ضحايا الأمراض الصدريّة، التي تتميز، بتلف الشعب التنفسيّة ذات الطبيعة المرنة، من جرّاء التمدّد الكبير الذي يصيبها من الدخان والغبار، أو الغازات المضرّة. فتعجز عن القيام بعملها الذي يقتضي تبادل الأوكسجين مع ثاني أوكسيد الكربون، فينتج عن ذلك حالة بطيئة ورهيبة من التآكل تظهر في أكثر الحالات في حوالي الستين من العمر، إنّما تكون متواجدة منذ أمد بعيد.

أطباء الأمراض الصدريّة مازالوا، منذ سنَوات طويلة في معركة شرسة مع هذا المرض الفتّاك الذي يودي بحياة الآلاف سنويّاً. وفي مباحثة دائمة عبر العالم، لمعرفة أسبابه؛ بعضهم، يضعه في مَصَفّ الانحطاط الجسدي الوراثي. أما البعض الآخر فيعزوه إلى عوامل خارجيّة منها: تلوّث الهواء، والأدخنة الصناعيّة، والغبار الذي يتنشقه بصورة دائمة اصحاب بعض الأعمال والمهن، وغيرهم، يوجّه الاتّهام إلى عوامل مناخية أو فيروسات وجراثيم متواجدة في بيئة ملائمة لتكاثرها. وفي نهاية الأمر، دبّ اليأس في صفوف الباحثين والعلماء فتحولوا إلى ميادين أخرى، حيث يجدون بعض النجاح. وفي الحقيقة تعددت الأسباب والموت واحد.

تشرنانكو وتضخم رئتيه:

يبدو أنّ إصابة تشرنانكو بتضخم في الرئتين، وهو في الخمسين من عمره، كانت من النوع الشائع، الذي يصاب به ألآلاف عبر العالم. فالعديد من الرشوحات، والبرونشيت، التي أصيب بها في طفولته وشبابه خلال السنوات التي قضاها في سيبيريا ومولدافيا، تحوّلت إلى حالات مزمنة. ومن علاماتها الخارجية، قصر وتسارع في النفس أخذا يزدادان يوماً بعد يوم. فهو يتنفس الهواء بكميات قليلة وسطحيّة، ولكنّه يحاول بصفير مسموع، طرد الهواء الفاسد المتراكم في صدره، دون جدوى، ومن جرّاء ذلك، يجد نفسه مجبراً على التكلّم، بجمل قصيرة ومقتضبة، إذ عليه أن يلتقط أنفاسه، بعد كلّ ثلاثة أو أربع كلمات ممّا يصفع المستمعين ويجعلهم يتساءلون عن المغزى، والسبب في ذلك.

أما النتائج الداخليّة، فهي أدهى وأخطر. فتنفّس تشرنانكو لم يعد سهلاً وعاديّاً فهو يشكو منذ أمد بعيد ممّا يدعى طبيّاً (قلب المصدورين المزمن) الامر الذي يعني تضخّماً في الصمّام اليميني للقلب لكثرة ما حاول التغلّب على الإعاقة الرئويّة لدى صاحبه. وكانت نتائج هذه الأمراض مأساويّة على صحّته، بعد مدّة قصيرة جدّاً، من تسلّمه رئاسة السلطة في الاتحاد السوفياتي.

أمّا المرض الثاني الذي يشكو منه الرئيس المتقدّم في السن، فهو داء السكّري الحادّ والمزمن الذي لا علاقة له، بأمراضه الصدريّة، إلّا من حيث القدم وتاريخ الإصابة: أمّا الصورة المرضيّة التي كانت له في نهاية العمر، فهي توضح بأنّه في أوائل الستينات، أُصيب بالتهاب في الكبد من نوع (ب) الذي يدعى «التهاب الحقن»، التي يصاب بها الإنسان في أثناء تعاطيه حقنة (إبرة) تحمل هذه الفيروسات خلال عملية تلقيح، أو نقل أو سحب دم أو خلافه. وهذه الفيروسات تستقر في الجسد حيث تحدث إصابة طويلة الأمد. لكنّها تتسبّب بنوبات من المرض من وقت لآخر ممّا ينهك جسم المريض ويسرع في موته، إذْ يتطوّر إلى تشمّع في الكبد ونزيف داخلي، وآلام مبرحة في البطن،

خصوصاً إذا لم يعالج بالمضادّات الفيروسية الفعالة.

ونظير أندروبوف سلفه، عندما وصل قسطنطين تشرنانكو إلى سدّة الحكم، عرف مرحلة من الزهو والسعادة، متناسياً تعاسته على مدى مئة يوم. لكن ما كان يشكو منه من المصاعب الصحيّة، قد حدّ إمكانياته على الصعيد الجسديّ والفكريّ، وقد أعطى براهين عديدة على ذلك، بتصلّبه وعناده. وكان يقود البلاد بعقلية الرئيس السابق لمؤسسة .K.G.B؛ فقد أجّج حملات الإرهاب ضد المعارضين والمنتقدين وغيرهم ممّن يخالفه الرأي، فأصبحت ظروف ومعاملة الموقوفين رهيبة جدّاً كذلك في المستشفيات العصبية والعقليّة. كما عزل عشرة من الرؤوس العامّين في المناطق، وأودى «بنيكولاي شتسليكوف» أحد زعماء وزارة الداخلية ومساعده، الجنرال «تشوربانوف»، وهو صهر الرئيس السابق ليونيد بريجنيف، الذي اعتقل أخيراً في عهد غورباتشوف، في كانون الثاني ١٩٨٧ وبدأت محاكمته سنة ١٩٨٨.

بقدر ما كانت حالة تشرنانكو الصحيّة تتفاقم، كانت تعسّفاته تزداد شدّة، وتصرّفاته تتضاعف مزاجيّة وقساوة. وهكذا فقد توتّرت علاقات الاتحاد السوفياتي مع جمهورية المانيا الفدراليّة دون سبب ظاهر. كذلك ازدادت الحرب حدّة في أفغانستان. أمّا الحوار الدائر في موسكو مع بكين فاتجه نحو الأصعب بسبب السياسة الصينية المعادية للفياتنام، واللاوس، وكمبوديا. ومن جهة ثانية فإنّ الحوار الدائر بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة المتعلق بالحد من التسلّح، لم يتقدم قيد أنملة، وهكذا، كان تشرنانكو، يسير بالأمبراطورية الشاسعة نحو العزلة شيئاً فشيئاً.

تشرنانكو يختفي عن الأنظار:

خلال شهرين من الزمن، تقريباً. أي منذ ١٣ تموز ١٩٨٤ حتى ٥ أيلول، اختفى تشرنانكو كليّاً، عن مسرح الحياة العامة، إذ قد أصيب بتدهور صحيّ رهيب. ثم عاد للظهور فجأة، كما اختفى، دون أيّ إشارة، أو تعليل إلى أسباب اختفائه، وقد دارت حول ذلك الكثير من التكهنات والتهكّم. فقد

كتب أحد الظرفاء «إنّ تشرنانكو معتكف في دارته للتصوّف». وكتب آخر، «تشرنانكو، يشارك رهبان أحد الأديار في دورة للرياضة النفسيّة والتعبّد». أمّا الحقيقة، التي لا تقبل الجدل، فهي أنّه طريح الفراش، نزولاً عند أوامر أطبائه، يعاني تدهوراً رهيباً عامّاً. ولدى عودته إلى المسرح حاول بصعوبة ذرّ الرماد في العيون، فأعلن إقرار ثلاثة مشاريع: افتتاح مؤتمر الكتّاب السوفيات والدول التي تدور في فلك إمبراطوريته، وانعقاد عام للجنة المركزيّة خلال تشرين الأول لتقويم إنجازات، وتطلّعات الدولة. وعن قصد وتصميم للظهور أمام الصحفيين، وللجمهور الدولي على شاشات التلفزة، قلّد بعض الكتاب والمؤلّفين الأوسمة.

منذ هذه اللّحظة لم يعد يفارقه الفريق الطبيّ، فتشمُّع الكبد، في تقدّم مستمر، كما أنّ قلبه يجد صعوبة تزداد يوماً بعد يوم، في إرواء رئتيه المفتقرتين إلى الدماء. ممّا جعل تشرنانكو، يرتجف ويتأتىء ويتلعثم. وإذا كان لا بدّ من انتقاله، ضمن العاصمة موسكو طبعاً فقط، فكان إثنان من عمالقة الحرس الجمهوريّ يتأبطانه. هذا إذا لم يحملاه. أمّا الثالث، فلترتيب هندامه. وأمّا أنفاسه، فكانت، قصيرة ومتسارعة.

في الثاني عشر من شباط ١٩٨٥، اعتذر عن استقبال رئيس وزراء اليونان، السيد «أندرياس بابندريو». وفي الرابع عشر منه، كان على العالم «أوجيني شازوف»، رئيس الفريق الطبيّ المعالج للرئيس تشرنانكو، أن يقطع جولته في الولايات المتحدة للعودة مسرعاً إلى موسكو. كانت هذه إشارة واضحة، لم تخف على المراقبين، وتعني أنّ مصير تشرنانكو في تأرجح بين الموت والحياة. وأخيراً... في الثاني والعشرين من شباط، أكّد «أندريه غروميكو» رسميّاً أنّ الرئيس السوفياتي مريضٌ. وفي الرابع والعشرين، حُمِلَ حملاً إلى أحد مراكز الإقتراع، حيث أخذت له مئات الصور، وهو يدلي بصوته، لتجديد مجلس السوفيات الأعلى في جمهورية روسيّا. وفي الثامن والعشرين تجرّأ التلفزيون السوفياتي، من جديد وعرضه على الشعب، بحالة تثير الشفقه، لا حول له ولا قوّة يعاني من سكرات الموت. وفي اليوم التالي،

دخل عمليّاً، في حلقة لا نهاية لها، من عدم الكفاءة؛ عدم كفاءة الكبد، والرئتين، والقلب. وفي الختام كان لا بدّ له من الاستسلام، فلاقى حتفه في الساعة (١٩,٢٠) في العاشر من آذار سنة ١٩٨٥. وفي تقرير اللجنة الطبيّة عن أسباب الوفاة، جاء أنّ الوفاة كانت نتيجة توقّف القلب بسبب القصور في جميع الأعضاء الرئيسيّة في الجسم: القلب، الرئتين، الكبد، الكلي... إلى آخره.

وهنا لا بدّ لنا من التذكير بما أَشَرْنا إليه سابقاً. إنّ روسيّا، لم تبكِ أميرها الراحل، لأنهّ لم يفعل، خلال رئاسته القصيرة، شيئاً يحملهم على ذلك.

تانكريدو ناقذ: Tancredo Neves

يشعر بعض الجامعيّين، برغبة، تزداد يوماً بعد يوم، بمراقبة العمل السياسيّ، عن طريق درس وتقويم دور رجال الدولة. وما يحققونه من إنجازات وأعمال، ومواقف في مواجهة الأزمات المحليّة والدوليّة، التي تعترض نجاح وازدهار بلادهم، في شتى الميادين والحقول، خلال المدّة التي يقضونها في الحكم؛ يشكّل ميداناً خصباً وجديداً، وحقلاً واسعاً لعلماء النفس.

تعود الخطوة الأولى لهذه المادة إلى العشرينات. فقد افتتحت جامعة شيكاغو، في الولايات الأميركية المتحدة، فرعاً خاصاً، ازدهرت فيه دراسات علميّة ناجحة، وتحاليل دقيقة منذ ذلك الحين.

لكن في فرنسا، سنة ١٩٧٠، أسّست «مادلين كراويتز» ـ المجازة في الحقوق العامة، والتي كانت مدرّسة في مدينة «ليون» ـ قبل الأميركيين، مركزاً للأبحاث النفسيّة السياسيّة. ووضعت مؤلّفا في هذا المجال سَمَّتْهُ «أبحاث في العلوم السياسية» أصبح المرجع الوحيد في هذا المجال. من هنا انطلق تلاميذها، وغيرهم من الأخصائيين الأجانب، في تفسير وتوضيح تصرفات الرئيس الأميركي رونالد ريغن، أثناء ولايته الثانية وتواجده على رأس الحكم في البيت الأبيض، حيث تقوقع في مرضه، يرتجف هلعاً، من مواجهة الحقيقة، رافضاً الاعتراف بالفشل.

أمّا علماء السياسة، فقد اعترفوا بأنّ عهد ريغن بدأ ناجحاً جدّاً وانتهى بالآلام والتعاسة، ممّا انعكس سلباً على المحافظين الجدد، في اميركا، الذين

اعتقدوا، بدوام انتصارهم في بقاء هذا «المعبود» في سدّة الحكم. لكنّ نجاحاته السياسيّة في الداخل، لم تعوّض عن فشله الذريع في السياسة الخارجيّة، وخصوصاً، في معالجة الأمور، في إيران ولبنان مثلاً. فَقَدْ ولّى الأدبار، مكتفياً من الغنيمة بالفرار. ولم يخلف في «شركته» ما يرفع الرأس.

خلافاً للدور الذي يلعبه السوفياتي ميخائيل كورباتشوف، منذ ١٩٨٥ . هذا الخصم الكبير، الذي كان يستأثر وحده بالرّهانات في العالم، دون أن يتخلى عن شيء من محيطه الجليدي. فقد اخترع نوعاً جديداً من التوسّع، حتى شعرت «الشلّة الكاليفورنية» بالمرارة فاعترفت بأنّ ريغن قد انتهى وأنّه قد خان، بعدم كفاءته، أولئك الذين وضعوا ثقتهم فيه، وعقدوا عليه الآمال.

لم يكن ريغن فريداً من نوعه في تشبثه بالحكم، رغم شعوره بالإحباط، وفشله المتكرر نتيجة مرضه. لكن، من النادر جدّاً بين الرؤساء والحكّام، من يتصرّف كما فعل الرئيس جمال عبد الناصر، الذي أصيب بالقرحة من جرّاء الفشل في الحرب ضد إسرائيل، سنة ١٩٦٧ . وكان له من الشجاعة والأخلاص، ما جعله يعترف لشعبه بالحقيقة دون وجل. وأجرى استفتاءً شعبيّاً، على نفسه. بينما يستسلم بعض الرجال للفشل فيتركون أنفسهم فريسة سهلة لمنافسيهم. هكذا، كان «ليون تروتسكي» الذي نال منه ستالين ببرودة وبساطة في منفاه، إذ كان منافسه الوحيد، على خلافة لينين.

أمّا الجنرال شارل ديغول، فقد انسحب من الحكم، بحجّة النتيجة السلبيّة للاستفتاء الذي أجراه، والذي لم يكن كبير الأهميّة. ومات في السنة التالية. كذلك أيضاً الرئيس الأميركي ليندون جونسون، الذي من جرّاء مرضه، كان يفشل في كلّ ما يتخذه من خطوات. أما ريشار نيكسون، فقد كان ضحيّة قوّة داخلية لا تقاوم، تدفعه إلى التحطّم والخراب، أسماها طبيبه الخاص «غريزة الموت» أو غريزة الإنتحار. هذا الأمر خلق همّاً كبيراً، لجهاز الأمن الخاص المسؤول عن حماية البيت الأبيض. فقد تقرّر أن لا يُسْمح للرئيس ان لا يغيب عن رقابة هذا الجهاز، «إذ أنّه يبحث عن حتفه بظلفه»

تانكريدو ناڤذ يضحّي بنفسه خوفاً من الفشل:

كان الرئيس البرازيلي «تانكريدو ناڤذ»، يشكّل بحدّ ذاته، موضوع دراسة نفسانيّة مهمّة، لو كان من الممكن الحصول على الوثائق التي تتعلّق به، عندما توصّل إلى الرئاسة المتأخرة. ومن المؤكّد أنّ هذه الملفّات والوثائق، قد أُتلفت من قبل منافسيه. لم يلجأ إلى التضحية الكبرى، بنفسه، إلاّ مدفوعاً بالأحداث المتكاثرة التي تخطته، ففهم متأخراً، بأنّه لن ينجح؛ فاستقبل المرض، حينئذ، وكأنهّ باب الفرج، للخروج من الورطة المحيطة به، إذ كان يعتقد أنّ تركه لمركزه، على أهميّته، أهون بكثير، من فشله في عمله السياسيّ، وتلطيخ سمعته بين مواطنيه.

في البرازيل لا يمكن المحافظة على الهدوء. كلّ شيء بالحقيقة يخرج على الحدود المقبولة والمتعارف عليها. ففي هذه البلاد الشاسعة يميل الإنسان نحو الحدّة بشكل دائم. وهكذا الطبيعة أيضاً، بأحراجها التي لا نهاية لها، وأنهارها، وبحارها وبحيراتها المهلكة، وصحاريها القاحلة، كذلك مناخها الحار والرطب الذي لا لون له.

كذلك الأجناس التي تتألّف منها سكان ثلاثة وعشرين مقاطعة مبعثرة في أرجاء مساحات شاسعة لا قياس ولا حدود لها ولا تشابه بينها، تربطها وسائل مواصلات بدائيّة. ويبدو، أنّهم لا يتأثرون إلاّ قليلاً من تخالط الأجناس، لكنّهم يقاسون كثيراً من هجرة الريف المسعورة، واللّجوء غير المعقول إلى المدن التي أصبحت تضيق بهم. وأصبح الفرق الشاسع في المستوى الحياتيّ بيِّناً، يصفع الناظرين، من حيث الثراء الفاحش عند بعض الناس، والفقر المدقع الذي يسيطر على الأكثريّة الساحقة التي تعجّ بها الشوارع. ناهيك عن جيوش الأطفال التعساء المتروكين، لا أهل لهم ولا مأوى، يغطّون أجسادهم النحيلة بالأسمال البالية ويقتاتون بما يسرقونه، أو ما يجدونه في المزابل وأكوام النفايات. وهؤلاء الأطفال المساكين يشكّلون مصدراً لا ينضب لتجارة الأعضاء البشريّة كالعيون، والكلي، والقلوب! وباختصار

لكلّ ما يطلب من أعضاء الجسم البشري. أمّا من يبقى على قيد الحياة حتى الخامسة أو السادسة عشرة من العمر، فإنّه على الأرجح سيصبح لصّاً، أو قاتلاً مأجوراً، في خدمة من يحتاج إلى خدماته. وعندما يتكاثر هؤلاء الأشقياء إلى حدّ لا يحتمل، يشنّ الجيش عليهم الهجوم بكل الوسائل والأسلحة المتاحة حتى الدبّابات، فيهدم المخابىء والأوكار على رؤوسهم، ويسحق أجسادهم دون معارضة أو انتقاد.

خلافاً للقادة والزعماء، التي تنعتهم الصحف البرازيليّة بالفاسدين والسفلة والمنحطّين، الذين لا نفع منهم، المتواجدين في «بلانلتو» الفخم، يتقاسمون حلوى السلطة مع الضباط، الذين يجيدون التزلّف، برز نجم «تانكريدو ناڤذ» الذي لقّب بِ «ناڤذ المستقيم»، فانتخب رئيساً للجمهورية في الخامس عشر من كانون الثاني ١٩٨٥ . وكان أن انتعشت البلاد، التي خدّرها الحكم العسكري لأكثر من عشرين سنة. ومع ناڤذ، بان الحظ الذي أتاح للبرازيليّين التخلّص من الحمل الثقيل الذي يجثم على صدورهم، فكسر الحلقة المفرغة التي كانوا يدورون فيها دون جدوى. رغم أنَّ لديهم مصادر اقتصادية هائلة لم يتوصلوا بعد إلى حسن إدارتها فبقيت طويلاً على عتبة نادي الدّول العظمى، الدول الصناعية المتقدمة تنتظر من يقودها في هذا الاتجاه. مع «ناڤذ» المستقيم وقد أمسك بالمقود، دخلت البرازيل في الأحلام اللّذيذة. إذْ بدأوا يتطلّعون إلى تحريك طاقات البلاد التي تجمع بين أصحاب المصانع والعمّال، وتجييش العلماء والتجّار كُلًّا في حقله، وايجاد أمكنة للعاطلين عن العمل، وبالتالي طعاماً للجياع ومصالحة بين صغار المزارعين ومغتصبيّ أراضيهم بالقوّة والمكننة، وضمّها إلى مزارعهم الشاسعة. فعلى «ناڤذ» أن ينجح إذ أنّه يعرف السرّ.

لم يدم نجاح «تانكريدو ناڤذ» سوى شهرين فقط، إذ أنّ المرض هاجمه فألقاه في المستشفى، ولم تنجح معه جهود الأطبّاء، ولا الصلوات التي ترفعها من أجله حناجر مئة وثلاثين مليون نسمة. فانطفأت شعلة حياته في ٢١ نيسان ١٩٨٥ ، وبموته عادت الأمور إلى سابق عهدها. وعاد الجنرالات الذين كان

قد نحّاهم «ناڤذ». ولم يبقَ للبرازيليين سوى البكاء، بعد أن أصبحوا أيتام أب طالما انتظروه.

خلال حكمه القصير، أعطى «ناڤذ» الكثير من الحريّات والديمقراطية ومن العدالة الاجتماعية؛ وما زال البرازيليّون يردّدون حتّى اليوم، بأنّ ما من أحد، كان بإمكانه أن يقود خطواتهم الأولى، أحسن من «تانكريدو ناڤذ».

لم يعجبوا فقط بالمعالم الطيّبة التي تبدو على وجهه، بل أعجبوا أيضاً، بروحه المرحة وابتسامته الطيّبة. وكانوا يعلمون مسبقاً أنّه ليس من النوع الذي يحبّ المغامرة والمخاطرة. فهو متحفّظ، تقيّ، منفتح. وهو سعيد مع عائلته، بالقرب من السيّدة «ريزوليتا»، زوجته، وأطفاله الثلاثة. لا يقامر ولا يبذّر، أمّا هواياته، فجميعها محبّبة ومشرّفة: العلاقات العامة، القراءة المفيدة: شكسبير، دانتي، هوميروس وڤرجيل، وجميع الكلاسيكيين.

كما أنّه قد بلغ عمراً مطمئناً يوحي بالثقة. فعندما انتُخب، كان يحضّر لعيد ميلاده الخامس والسبعين. وفي خريف العمر لا يجنح الانسان نحو الديكتاتوريّة وهذا، هو الأهمّ، بنظر البرازيليين. لقد عانوا من الظلم والاستبداد خمسين سنة وهم لا يتمنون أكثر ممّا كان لدى ناڤذ الانساني، الذي كان قد كرّس نفسه ودون حساب، للعمل العامّ، خلال نصف القرن الصعب، الذي مرّت به البلاد، دون أن يحيد عن الطريق السليم. كما أنّ هذا الرجل المستقيم والمعتدل، قد انتخب من قبل «كليّة المنتخبين الكبار» كما يقضي دستور البلاد. وهؤلاء عرفوا للمرّة الأولى ان يترجموا تطلعات الشعب.

من المعروف، وفي كل مكان، أن ينسب إلى الغائب عن الدنيا، جميع المزايا والحسنات، وهذا ما حصل بالنسبة إلى «تانكريدو ناڤذ» بعد موته. إلّا أنّ كلّ ما نسب إليه من الصفات الحميدة، والسيرة الحسنة، لا تقود إلى السلطة، فهي تصنع العقلاء وربّما القديسين، ولا رؤساء الدول.

في الواقع، لم يكن ناڤذ مصاباً بحمّى السلطة كغيره، ممّن يبرمجون حياتهم ويكرّسونها للعمل على الوصول إلى القوّة والسلطة بأيّ ثمن. لم يكن

ناڤذ من هؤلاء. رغم ولم يكن كسولاً مغموراً. فهو بوليتكنيكي نشيط دائم الحركة، لكنّه لم يكن يخطّط للوصول إلى رئاسة الجمهورية.

لكنّ مجرى الأمور والخطوات التي قام بها في مهنته، كانت توحي بأنّه سيصل في يوم من الأيّام إلى مستقبل مرموق.

من الطبيعي والمنتظر أن يكون تاجراً ناجحاً. لقد قدّر له أن يخوض هذا المضمار، حيث أنّ والده، جمع ثروة لا بأس بها من وراء ذلك. ولكن في ميدان التجارة، حتى لو وصل فيها إلى القمّة، لا يحمل المرء لقب «دكتور»؛ وهو اللّقب الذي يشتهيه كلّ برازيلي. فللوصول إلى هذا الهدف، التحق «ناڤذ» بجامعة «بيلو اوريزونته» حيث نال شهادته بالحقوق، وهو في الثالثة والعشرين من عمره. وهكذا ثبّت لوحته النحاسيّة، في مدخل قصر العدل «بساو جوآو دل ري» مسقط رأسه، حيث أصبح بعد مدّة وجيزة مستشاراً قانونيّاً للبلدية سنة ١٩٣٣ . كانت هذه الخطوة الأولى في مجال العمل العامّ. من هنا كان صعوده، كلاسيكيّاً منتظماً؛ أصبح نائباً عن مدينته، سنة ١٩٤٧، ودون عناء أصبح وزيراً للعدل في ١٩٥١.

وتولّى رئاسة الوزراء سنة ١٩٦١ كان معارضاً مستقيماً، منذ الإنقلاب العسكريّ في سنة ١٩٦٤ . وابتداءً من سنة ١٩٨٢ انتُخب حاكماً للولاية التي ولد فيها. وسار في هذه الولاية السعيدة، التقليديّة، خطوة، وراء خطوة، ممّا زاده قوّة وخبرة بشؤون الحياة والحكم حتى أصبح شيخاً على شعب، ونواب، وحكّام مقاطعات. هذا ما جعل البلاد بجميع فئاتها، تجمع الرأي على انتخابه رئيساً للبلاد سنة ١٩٨٥ . فكان رئيساً معتدلاً، متفهماً، منفتحاً على الجميع. لكنّه لا يتساهل ولا يهادن إطلاقاً فيما يتعلّق بالاستقامة والشرف، وخصوصاً الحريّات العامة، إذْ نادراً ونادراً جدّاً أن يصل إلى الحكم رجل من أمثال «تانكريدو ناڤذ» الملقّب، وعن جدارة، بالمستقيم.

على سبيل المقارنة، فإنّ رئيس الجمهورية البرازيلية في ١٩٣٤ «جينوليو ڤركاس» الشديد الإعجاب بالفاشيستيّة الأوروبيّة، وقد تأثّر بوسائلها، علّق الدستور فاغلق البرلمان، وحلّ الأحزاب. وبنتيجة استفتاء مرتّب وموضّب

بعناية فائقة، معروف النتائج مسبقاً، أصبح على مثال ملهميه، هتلر وموسوليني ديكتاتوراً على كلّ الأراضي البرازيليّة، وقد تشبّث بزمام الأمور منفّذاً ما تقتضيه ايديولوجيته. ولم يتخلَ عن «أعناق» البرازيليين بالرغم من انتصار الحلفاء على الديكتاتوريات في الحرب العالميّة الثانية. لكن سرعان ما أطاح به وزير دفاعه الجنرال «أندريكو غاربيري دوترا» مستفيداً من المناخ الدوليّ، وجلس مكانه سنة ١٩٤٥ . أمّا «قركاس» فقد اتّجه إلى اليسار، وأخذ يعمل في الخفاء، معتمداً على مساعدة الجيش المحافظ التقليدي، فنجح في مسعاه، فوعد بإطلاق الحريّات العامّة. لكنّه لم يفِ بوعوده، بل على العكس شدّد الخناق على رقاب الشعب، وذلك سنة ١٩٥١ ، فأطاح بآخر معالم الحريّة والديمقراطيّة مّما جعل الكيل يطفح، فشعر باقتراب انقلاب يطيح به،ويهدّد حياته هذه المرّة. وفي ايلول ١٩٥٤ ، لعب لعبته الأخيرة مع أخصامه؛ على الطريقة الهتلريّة: فانتحر.

خلفه على سدة الحكم، مدني هو الدكتور «جوسلينو كوبيتشك» الذي انتخب بالطرق السليمة، بناءً لبرنامجه، الذي يقضي برفع المستوى الاقتصاديّ في البلاد القائم على استغلال الثروات الطبيعيّة بطريقة مدروسة. ولكن مدفوعاً بتوجهات فرعونية، اكتفى بإنشاء مدينة جديدة، من كلّ ما كان قد وعد به في برنامجه الطويل، لتبقى أثراً تاريخيّاً على مروره في هذه البلاد. كذلك نصّب لنفسه تمثالاً ضخماً في مرتفع «غوياس» المقفر والذي يعلو ١٢٠٠ متر. وهكذا نشأت «برازيليا» التي أصبحت عاصمة البلاد حيث انتقلت إليها جميع الإدارات العامة. وعندما ترك «كوبيتشك» قصر «بلانالتو» المتألّق سنة ١٩٦٠ ، ترك البلاد عمليّاً، مرهونة، مهدّدة بوضع اليد عليها، من قبل الشركات العالميّة.

جانيو كادروس، لوفاء الديون:

وجد نفسه، جانيو كادروس، الرئيس الجديد في البرازيل، مكلّفاً بوفاء هذا الهرم من الديون، الذي يجثم على صدر الأمّة والبلاد، بعد أن تمّ انتخابه في كانون الثاني ١٩٦١ فتملّكه الذّعر من ثقل المهمّة الملقاة على عاتقه، ولم يجد

أمامه، سوى الاستقالة في تشرين الأول من نفس السنة، تاركاً الساحة لنائبه، «جوواو غولار» للتعاطي مع التركة الثقيلة. كما كان عليه إدارة الجوّ المتفجّر، تحت ضغط أزمة ماليّة واقتصادية خانقة. وجد هذا المسؤول الجديد نفسه محاصراً من كلّ الجهات، ولم تكن له الخبرة الكافية، ولم يكن مهّيئاً لهذه المهمّة. ولكنْ كان لديه من الأفكار التقدميّة ما يكفي للمباشرة بإعادة تنظيم الإدارات وتوزيع المسؤوليات بشكل جذري يشبه انقلاباً مدنيّاً، هو الأول من نوعه، منذ تأسيس الجمهورية، سنة ١٨٨٩، وذلك في محاولة للخروج من تحت الركام، ورؤية النور.

أثناء مناقشة مشروعه الجريء، لم يحظَ سوى بسخرية منافسيه المحافظين. فلم يبقَ أمامه سوى استعمال السكاكين، للقطع والبتر، فأعلن عن مجموعة من قرارات التأميم، طاولت المعامل والبنوك. ولم يبقَ أمام اليمين والجيش، سوى الإطاحة به، ممّا جعله ينفي نفسه إلى «الأورغواي» في ٣١ آذار ١٩٦٤، هرباً من وَقْع «جزمات» العسكريين الذين يحتلّون قصر «بلانالتو» الرئاسيّ ويضيّقون الخناق عليه. ووجود العسكريين في القصر الرئاسي ينعمون بمركز القوّة، يعني، أنّ على الشعب البرازيلّي، إحناء الرؤوس، والاستسلام للأمر الواقع. «ولم يخيّب أمل هذا الشّعب المسكين» إذ سرعان ما أُعطيت الأوامر، من قبل الديكتاتوريّة الجديدة، لتنظيف «أعشاش» وأوكار المعارضة، بحملة مسعورة سريعة. وهكذا بقي الكابوس الثقيل يجثم على الصدور ست سنوات، كأنّها ستة دهور. وطالما بقي أصحاب الشرائط المذهّبة في الحكم، فقد بقي المرشال «كاستلو برانكو» حتى ١٩٦٧ . ولّما كان لكلّ دوره وحصّته من قرص الحلوى تسلّم «عصا» السلطة من بعده الجنرال «كوستا دي سيلفا» فاستعملها حتى ١٩٦٩. ولم يكن أمام الشعب المكمّم سوى الانحناء والخضوع. وبانتهاء مهمّة « دي سيلفا»، انتقلت «الشعلة الأولمبيّة» إلى الجنرال «مديسي» الذي كان ينتظر دوره بفارغ الصبر، «وقد التصق بطنه بظهره». ولّما كان الجيش، خير مدرسة في العلوم الاقتصادية، قرّر الجنرال «مديسي» تغيير خطّة أسلافه الميامين. فتوقّف عن اختراع المشاريع، وتسليم

إدارتها إلى الضبّاط، كلّ بما يتناسب وعدد الأشرطة التي تزيّن أكتافه، والتعويض عليهم بتسليمهم جميع المؤسسات والدوائر الحكوميّة. أمّا الدفع فعن طريق الاقتراض من الخارج.

أمّا الجنرال «جيزل» الرئيس الجديد للثورة العسكريّة البرازيليّة، فسار على خطى «سلفه الصالح» وقد أصبحت البلاد، في حالة الاغماء، تعاني سكرات الموت. وقد توالت الضربات والمصائب: غلاء البترول، ارتفاع سعر الدولار وقفزات معدل الفوائد، والحواجز الكبيرة في التجارة الخارجيّة مع البرازيل. كما أنّ إسطبل المحاسبة في الثكنات تكفّل بما تبقّى من أنفاس الاقتصاد البرازيلي. أمّا رصاصة الرحمة، فأطلقها، «الجنرال جوواو باتيستا فيكيريدو» الوريث «الشرعيّ» على رأس الضحيّة سنة ١٩٧٩.

الأوضاع المالية والاقتصادية في البرازيل:

بفضل من تعاقب على حكم البرازيل من جهاز علوم الإدارة والاقتصاد، وصلت البلاد التي تملك أغنى الموارد الطبيعية إلى حالية مزرية لا مثيل لها. بلغ معدل التضخّم المالي سنة ١٩٨٤: ٪ ٢٢٣٫٨؛ أمّا الديون الخارجيّة فقد تخطّت (١٠٠) مليار من الدولارات الأميركية، منها (٥١) مليار تدفع خلال ثماني سنوات.

أمّا في الشوارع، فهناك عشرة ملايين من المتنزهين العاطلين عن العمل، يشكّلون (عمليّاً) خمس العمال الفعليّين في البلاد.

وأصبح (٨٦) ستة وثمانون مليوناً من البرازيليين يعانون من سوء التغذية. وقد خيّم الجوع على كبريات المدن والدساكر في البلاد ممّا يثير الحيرة والتعجّب من حصول ذلك في بلد يحتكر البنّ بصورة مطلقة، ضارباً الرقم القياسي في إنتاجه وتصديره إلى جميع أقطار العالم. وينتج المانيوك، وقصب السكر، والموز، وعصير البرتقال، والكاكاو، والذرة، والصويا. وكانت هذه المحاصيل، تصدّر بأكثرها إلى الولايات الأميركية المتحدة. ولكنّ معظم ثمنها يستوفى كفوائد ديون للشركات الأميركية. وما تبقّى يعود إلى بعض الأرصدة

الخاصة(جدّاً). أمّا بقيّة الانتاج الزراعي من أرزّ، وفاصوليا سوداء، وبطاطا، وقمح، فلم تكن موضع «عناية» الكبار.

أمّا وصمة العار الكبرى في جبين الإنسانيّة فهي أنّ ثلاثين مليونا من الأطفال المشرّدين (ياللهول) يجوبون الشوارع نهاراً بحثاً عمّا يجدونه، أو يسرقونه ليضعوه في أفواههم. ويتسابقون، ويتناحرون للوصول والسيطرة على إحدى مكبات النفايات خارج المدن. أمّا ليلاً، فكانت الأكثرية الساحقة منهم تفترش الأرض وتلتحف السماء. أمّا المحظوظون فكانوا يبسطون سيطرتهم على خربة ما، أو قبو مهجور يحمونه بدمائهم. اذ كثيراً ما كانت تسقط الضحايا في معارك التطاعن بالسكاكين، للاستئثار بإحدى هذه «الفنادق».

عاد المدنيون، والعود احمد:

تحت ضغط أصحاب الديون، من دول، ومصارف، وشركات، وقد تأكّد لهم في وقت متأخر أنّه في ظلّ الحكم العسكريّ، لن يتوصلوا إلى استعادة أموالهم المتراكمة في ذمّة الدولة البرازيلية، أُجبر العسكريون على إظهار بعض اللّيونة، فأعطوا الشعب في خطوة أولى، حق انتخاب حكّام للولايات، على الطريقة الأميركيّة. كانت هذه نقلة مهمّة بحد ذاتها. فبادر «تانكريدو» ورفاقه للاستفادة من هذه الفرصة، فحصد الأكثرية الساحقة من هذه المراكز، وعاد بقوّة إلى المنصّة العامّة. أخيراً وليس عن طيب خاطر، تخلّى أصحاب الزّيّ الموحّد، والأحزمة العريضة عن الحكم وأعادوا الحقّ إلى أصحابه بانتخاب رئيس جمهوريتهم. ونزولاً عند رغبة الليبراليين قرّر «تانكريدو» خوض المعركة سنة ١٩٨٤ . وكان للجيش مرشحهم الرسميّ «بول سليم معلوف»، اللبناني الأصل، وهو في الثالثة والخمسين من العمر، صناعيّ كبير واسع الثراء. ومن قبيل الاحتياط، راهنوا، أيضاً، على أحد رفاق طريقهم منذ ١٩٦٤ ، «جوزي سرني». إلّا أنّ تانكريدو ناڤذ» الملقّب بالمستقيم اكتسح الجميع، فأكل من اليسار والوسط، بالإضافة إلى اليمين

والأحرار، ونال في ١٥ كانون الثاني ١٩٨٥ (٤٨٠) صوتاً من أصوات كبار الناخبين، من أصل (٦٨٦) صوتاً منهم (٢٦) تمنّعوا عن التصويت. ومن اللاّفت للنظر، أنّه عند ظهور النتيجة، لم يحرّك الجيش ساكناً، ولم ينبسْ ببنت شفة. ولكنّ العجيب في الأمر وفي خطوة حكيمة وناجحة اتخذ «ناڤذ» منافسه، مرشح الجيش، جوزي سرني، نائباً للرئيس، إذ كان برأيه مطّلعاً على المرض.

كان من المقرر، أن يتسلّم «ناڤذ» مهامّه الرسميّة في ١٥ آذار ١٩٨٥ . فكرّس الشهرين التاليين لدراسة الخطوات التي سيتخذها لمعالجة ما كان يسميه: المعضلة الاجتماعية، الاقتصادية، والماليّة. وفي اقتباس له عن الزعيم البريطاني الكبير، الذي قال للشعب الإنكليزي إثر انتصاره في الحرب العالمية الثانية: «أنّني أعدكم بالدماء والدموع». قال «ناڤذ» للشعب البرازيلي، المحصّن نسبياً والذي تعوّد الفقر والمعاناة، بصفته أبو جمهورية البرازيل الجديدة: أطلب منكم العرق والتقشّف.

وقد أتيح له أن يؤلّف، بسرعة ولكن دون تسرّع، نواة إدارته. فعينّ ثلاثمائة موظف، من أصل الف وخمسمائة من كبار الإداريين. كما جدّد تعاقده مع مئتين من الرجال الموثوقين. لكنّه لم يسند أيّة مسؤولية من أيّ نوع كانت، لمن كانوا مستعدين لموالاة مغتصبيّ السلطة وجلاديّ الأمّة. ولكنّه لم يتمكن من مواصلة الطريق التي سار فيها، والتي كرّس حياته من أجلها.

خلال شهر كانون الثاني ١٩٨٥، ورغم مشاغله الكثيرة، أخذ ناڤذ يشعر بألم في أمعائه، من النوع الذي كان يصاب به من وقت لآخر. لكنّه لم يخبر أحداً، إذ سرعان ما زال عنه. ثم عاوده في منتصف شباط، وكان قد أتمّ استعداداته للسفر في جولة للتعارف، على أوروبا وأميركا والمكسيك. لكنّ الطبيب المرافق له لم يتمكن من تحديد السبب، ونصحه بتعليق الجولة والعودة لاجراء فحوصات متقدّمة. لكنّه رفض ذلك إطلاقاً بقوله: «ليس لديّ الوقت ولا الرغبة في العلاج». ولدى عودته إلى برازيليا، عاوده الألم بشكل أقوى. ومن جديد رفض الخضوع للفحوصات التي اقترحها الطبيب. في العاشر من

آذار، تألّم كثيراً بشكل ظاهر. فطلب من طبيبه تهدئة الألم. ورغم المهدئات لم يتوقف الألم، بل ازداد حدّة. وتحدّد موقعه، في الجهة اليمنى من البطن. ممّا جعل الطبيب يعتقد بوجود التهاب مزمن في الزائدة الدودية. علّق إذْ ذاك الرئيس قائلاً: «إنها مزحة»! خصوصاً أنّ الاحتفال بتسلّم السلطة وما يتبعه من قَسَم من قبل الرئيس والوزراء سيجري في قاعة النواب. وهذا الاحتفال هو أحد أكبر الرموز لقيام الجمهورية الجديدة. ولا يرضى الرئيس التغيّب عن حضوره لأيّ سبب من الأسباب.

لكنّ حالته الصحية، وقرار الأطباء شكّلا عقبة لا يمكن تجاوزها. فالألم زادت حدّته، مصحوباً هذه المرّة، بارتفاع في درجات الحرارة لمدة ثلاثة أيام بلياليها. ممّا جعل طبيبه الخاص يستدعي الدكتور «هنريك ولتر بينوتي»، والدكتور «بينهوريو دا روشا» اللذين قرّرا التدخل الفوريّ. ويوم الخميس في ١٤ آذار، أصدر تعليماته بتحضير غرفة العمليات. وهكذا وجد نفسه «أنتونيو بريتو» المتحدث الرسميّ باسم الدولة والذي كان قد أعلن قبل يومين أنّ الرئيس يعاني من التهاب بسيط في الحنجرة، مجبراً على التصريح، متلعثماً بأنّه قد أجريت للرئيس جراحة بسيطة لاستئصال الزائدة الدودية. ثمّ في تصريح آخر، بعد يومين أعلن «بريتو» بأنّه لا يمكن تأجيل مراسم التسلّم والتسليم. فإنّ السيّد «جوزي سرني» سينوب عن الرئيس في هذه المهمّة، وهذا ما قررّته اللّجنة التي عهد إليها بمراجعة الدستور. وهكذا أقسم «سرني» اليمين القانونية ثم استمع إلى قسم الوزراء السبعة والعشرين. ووافق الجيش على هذه الاجراءات القانونية، وتمكنت الجمهورية الجديدة أن تتخطّى أول امتحان يعترض سبيلها.

كذلك ودائماً في الحالات المماثلة، فإنّ النشرات الطبيّة المتعلّقة بالرئيس تكون بأكثرها كاذبة، أو على الأقل مجتزأة وغير دقيقة. «ناقذ» قد استعاد صحّته تماماً بعد العمليّة». هذا ما نشر على مسامع السفراء الأجانب والصحفيين المجتمعين في صالون الشرف. لكنّ بعض الموجودين تهامسوا متسائلين عن الحقيقة.

أمّا الجماهير المتراكمة في ساحة «إيسبلادا» فكانت عند سماعها نشرة مطمئنة، تهدر هازجة وهي تلوّح بالأعلام الوطنية، ذات اللونين الأخضر والأصفر. وفي هذه الأثناء، تلقى «جوزي سرني» الوشاح الرئاسيّ من يد الجنرال «فيكيريريدو»، وهذا الوشاح، هو رمز السلطة. وألْقى «سرني» في الختام محاضرة قصيرة راجياً العليّ القدير، ان يمنح الصّحة وطيلة العمر للرئيس «ناڤذ» ليتمكن من القيام بمسؤولياته الجسيمة. وهنا تجدر الاشارة إلى أنّه لم يسمح حتى لزوجته السيّدة «ريزوليتا» وأولادها، بالدخول إلى غرفة المريض.

كانت الجراحة التي أجريت للرئيس «تانكريدو ناڤذ» في ١٤ آذار ١٩٨٥ على جانب كبير من الأهميّة والخطورة، خلافاً لّما كان يعتقده الأطباء. كانوا يعتقدون، أنّ الأمر، لا يعدو استئصال زائدة دودية بسيطة. لكن لدى فتح بطنه، فوجئوا بتقرّحات والتهابات، لا يمكن حصرها وخصوصاً في الكولون نزولاً حتى مخرج الجسم، ممّا يشكل خطراً جديّاً على حياته. وعندما قرأ لفيف من الأخصائيين التقرير عن حصيلة الجراحات التي أجريت، لم يترددوا في القول أنّها كارثة! فلو لم يتحرش الجرّاحون بهذه الأورام فتركوها وشأنها مكتفين بالمعالجة وفرض رجيم خاص من الغذاء لكان أفضل بكثير، أما الآن فقد سبق السيف العذل.

صباح الاثنين في ٢٥ آذار، كان «ناڤذ» قد أصبح في حالة يرثى لها، ولم يعد لديه، حول ولا قوّة لرفض الاشتراك بتمثيلية، كان قد اعدّها الفريق الطبيّ المعالج، لطمأنة البلاد والعباد. وقد تجمّع مئات الألوف في ساحة البرلمان، واصلين الليّل بالنهار. عيونهم جاحظة وآذانهم صاغية يتسقطون أخبار رئيسهم المحبوب «تانكريدو ناڤذ»، الرئيس الذي عقدوا عليه الآمال والأحلام، بعد ما يقارب النصف قرن من الحكم الفرديّ الغاشم، والذي خلاله، ذاقوا طعم الجوع، وعرفوا معنى التشرد والبطالة، فوصلوا إلى حالة من الفقر المدقع، اضطر الملايين منهم للتخلي عن أطفالهم وفلذات أكبادهم. أمّا التمثيلية، التي جرت فصولها في إحدى قاعات المستشفى، فقد بدا فيها

الرئيس بمعطف منزليّ أخضر اللون وقد التصق بزوجته، يحيط بهما الأطباء، أمام عدسات التلفزيون والمصورين، وقد علت شفاهم ابتسامات مصطنعة، أقلّ ما يقال فيها، أنها لا تعكس الحقيقة.

وفي المساء أعلن معلّق «أوكلودو» اكبر محطة تلفزة في العالم، إذْ يشاهدها أكثر من ستين مليون مشاهد، قال: أيّها البرازليون، هذا رئيسكم المحبوب يتمتّع بكامل صحته وسيعود إلى مزاولة أعماله، في ٢١ نيسان. فعمّت البهجة والسرور البلاد، وطافت الألوف الشوارع حاملة المشاعل، وهي تهزج وترقص. كما ألصقت على الجدران ملايين الصور والنشرات المؤيّدة، في الوقت الذي كان المحتفى بشفائه، مسجى على مائدة العمليّات تعمل في أمعائه مباضع الجرّاحين ومقصاتهم، تقطيعاً وتوصيلاً. خلال اسبوعين، أجريت له ثلاث جراحات كبيرة، اقتطع من أمعائه خلالها وخصوصاً، من القولون، عدّة أقسام، لإستئصال بؤر سرطانية ملوّثة. ومن ثم نقل الرئيس إلى مؤسسة معالجة الأمراض القلبية، إذ أصيب بعدد متلاحق من الأزمات القلبية. أمّا في الثاني من نيسان، فقد خدّر للمرة الرابعة، وأجريت له جراحة «فتاق مختنق» في الجهة اليسرى. هذا حسب ما زعمه الأطباء. أمّا الحقيقة فكانت، لاقتطاع المزيد من أمعائه، حيث عادت فظهرت بؤرة ملوّثة، تتفاعل بسرعة من جرّاء جراثيم تغزو أحشاءه، وذات مقاومة لا حدود لها، لا تتجاوب مع المضادات الحيويّة المعروفة، حتى ذلك التاريخ. كلّ ذلك لم يمنع الجراح، لدى خروجه من غرفة العمليات من التصريح، بأنّ الجراحة التي أجريت، كانت ناجحة تماماً. ولم يَنْسَ اللازمة الروتينية فأضاف: إنّ الرئيس بحالة جيّدة.

أمّا في الحقيقة، فكانت حالته سيّئة للغاية، فالرئيس يعاني سكرات الموت. إذْ في اليوم التالي أجريت له جراحة خامسة، وفي هذه المرّة وجد الأطباء أنّ غشاء الأمعاء قد أصيب بالتهاب عامّ، وهبوط متقدّم في الضغط، كما أنّه يعاني من نقص في كفاءة الجهاز البوليّ. وصباح الثلاثاء في التاسع من نيسان، أجريت «الحفلة» الخامسة من فصول التقصيب، تقطيعاً في لحمه. وكانوا قد أحدثوا ثقباً في رقبته لمساعدته على التنفس.

عجائب القدر:

عجيب هذا القدر؛ فقد كان وكأنّه في سباق محموم، مع «تانكريدو ناڤذ» رجل الدولة الذي كان ينتظره الشعب البرازيلي بفارغ الصبر، والذي لم يتمكن من التعبير عن نفسه، خلال عشرين سنة، سوى من زوايا المنصات المتواضعة، أو في مجالس محدودة، والذي وصل متأخراً جدّاً، إلى منصة بلاده، بعد أن تقطّعت أنفاسه تعباً، إلى درجة أنهّ لم يتمكن من ممارسة الحكم، حتى ليوم واحد، إذ لاحقه القدر الغاشم فقضى عليه، كغيره من رؤساء الدول.

على مثال الجنرال «فرنكو» في إسبانيا الذي قضى، فريسة نزيف قوي في المعدة، لم يتمكن الأطباء من إيقافه. كذلك المرشال «تيتو»، في يوغوسلافيا، الذي تناهشته الغرغرينا، وقد قطعوا له فخذه، بالرغم من أنّه كان يلفظ أنفاسه. أيضاً، اندروبوف، في الاتحاد السوفياتي، الذي احتضر، خلال أسابيع طويلة، في صراع مرير مع اشتراكات معقّدة في أعصابه. وأيضاً وأيضاً، خليفته «تشرنانكو» الذي فتكت به، آفة في الكبد من نوع (ب) القاتلة.

في هذا المجال المتعلّق بموت رئيس جمهورية البرازيل، هناك ما يحيّر المراقبين وهو سؤال، لم يجدوا له جواباً أو تفسيراً مقنعاً. ففيما يخصّ الجنرال فرنسيسكو فرانكو، وقف الأطباء في وجه الموت، بطلب وضغط من أنصاره ومحازبيه. فأطالوا من عذاباته ومدّة احتضاره، ومنعوه عن الموت المحتم، ليستعملوا من جثّته أو بالأحرى، مومياته، سلاحاً في التأثير إيجابياً، على نتيجة الانتخابات المقرّرة. وقد برهنت النتائج، فيما بعد، أنّهم كانوا محقّين في اعتقادهم. كذلك غياب «تيتو» أحدث فراغاً أذهل القادة اليوغسلافيين، إذ وجدوا أنفسهم عاجزين عن إدارة دفّة الحكم. كذلك في حالة أندروبوف ومن بعده تشرنانكو. فقد كانوا يطيلون في تعذيبهم له، ريثما يتفقون على أمير جديد.

أمّا في حالة «تانكريدو ناڤذ» فلم يكن ثمّة أيّ من هذه الأسباب

الموجبة. إذْ ما قيل قد قيل، وما قُرِّر قد قرّر. فأنّه لم يحكم ولا لساعة واحدة. كان رئيساً على الورق فقط، أمّا الرئيس الفعليّ والعمليّ، فهو من الدقيقة الأولى التي تسلّم فيها وشاح الرئاسة، نائبه «سرني». ولا مجال لأيّ اجتهاد أو انتخاب حسب الدستور البرازيلي. فالأمور تسير على قاعدة مات الملك وعاش الملك وهكذا مات هذا الملك المحبوب رسميّاً في الساعة ٢٢ و ٢٣ دقيقة في ٢١ نيسان سنة ١٩٨٥، فسُمِح له أخيراً بالراحة والسلام.

محمد رضى شاه ايران Muhammad Reza, Shah d'Iran

ملك الملوك شاه إيران محمد رضى بهلوي:

«شاه شاه»، ملك الملوك، محمد رضى بهلوي، «شخصيّة لمّاعة وبرّاقة لكنه خطر، مصاب بالعظمة والكبرياء، معقّد نفسانيّاً من معاملة والده الظالم خلال طفولته، وبالدور الذي أسند إليه من قبل الحلفاء، إذ جعلوا منه ألعوبة أو «خشخشية» بين أيديهم. كما أنّه كان شديد الخجل من أصله الوضيع. وهذه الصفات مستخرجة من تقرير سرّي، لوكالة الاستخبارات الأميركية C.I.A. نشرته الصحافة الأميركيّة، فأحدث ضجّة كبرى في الولايات الأميركية المتحدة في تموز ١٩٧٥. وقد وصل محققوا هذه الوكالة الشهيرة إلى أبعد من ذلك. فقد أشاروا في تقريرهم، من ضمن ما أشاروا، إلى أنّ الملك الإيراني، كان مصاباً بالخوف من عدم الكفاءة الجنسيّة كما أنّه مصاب منذ صغره بعقدة النقص.

لم يجد فريق العلماء والمحلّلين النفسانيّين صعوبة كبيرة، في تحليل وتمشيط نفسيّة الشاه. إذ كانوا يراقبون تصرفات «ملك الملوك» بدقّة، خلال ثلاثين سنة. ومن هنا فقد أتيح لهم وضع تقارير ثمينة عن طفولته وعن حياته خلال مختلف حقبات حياته. ولدى نشر هذا التقرير في تموز ١٩٧٥، لم يكن سوى حفنة صغيرة من الأشخاص، على علم بأنّ الشاه مصاب بمرض عضال اكتشف لديه منذ سنة تقريباً وهو رهن المعالجة.

تحيّر الأطباء الإيرانيون الملحقون بالحاشية الأمبراطورية في تفسير فقر الدم الجدّي لدى الشاه، والشعور بالتعب المزمن، سنة ١٩٧٤، بعد موت

الرئيس جورج بومبيدو، الرئيس الفرنسي بوقت قصير، وإذ وقفوا حائرين عاجزين، استدعوا طبيبين باريسيين، سرعان ما اكتشفا المرض الخطير والنادر، فبادروا إلى معالجته فوراً. وكان عليهما، أن يعودا، سرّاً، إلى طهران في أوقات منتظمة، للتأكّد من نتيجة المعالجة، وبالتالي من صحّة الشاه.

لم يكن الشاه يجهل أيّ شيء عن خطورة وضعه. فقد شرح له الأطباء الأمر بصراحة ودقّة، إذْ كان على معرفة، بأنّ المرض يتفاقم، وينال منه تدريجياً، ولكن ببطء شديد، من جرّاء المعالجة العلميّة الفعّالة. وكما فعلت عجوز إسرائيل «غولدا مائير»، طالب الشاه بالسريّة التامة، حتى بالنسبة إلى أقرب الناس إليه، بمن فيهم أطباؤه الإيرانيون.

وبقي متشامخاً متكبّراً وقويّاً بالظاهر. ولكنّه كان حزيناً ضعيفاً، فارغاً من الداخل، في الوقت الذي كان كلّ شيء في الدنيا يبتسم له، خصوصاً وأنّ جهوده لانتشال بلاده من القرون الوسطى، أخذت تعطي ثمارها، وتوحي بمستقبل باهر.

الشاه المتعجرف:

هل هو متعجرف؟ نعم، بكل معنى الكلمة. وكيف لا يكون كذلك؟ كيف لا يكون كذلك وقد دانت رقاب ملايين البشر لحكمه المطلق. يأخذ ما طاب ولذّ له من مالها ودمها. كما أنّه، ومنذ ١٩٦٥ يتملّقه الشرق والغرب ويتمرّغون عند أقدامه. فالاتحاد السوفياتي، كان يستقبله بالمراسم الأمبراطورية التقليديّة، المراسم التي لم يستقبل بها أيّ من ملوك ورؤساء الدول. كما أنّ الولايات الأميركية المتحدة كانت تفرش له البساط الأحمر في كل من زياراته المتعدّدة. كما أنّ جميع البلاد الصناعية المتقدّمة كانت تفتح له ترسناتها وتضع رهن إشارته، أسلحتها الأكثر سريّة وتطوّراً فيختار ما يشاء منها لجيشه، الذي رعاه واهتمّ به؛ ثمّ أنّ كبار رجال الأعمال من صناعيّين ومصرفيّين ووسطاء، يتدافعون في طهران على أبوابه متمنيين أن يلتفت إليهم، ولو من طرف عينه اليسرى.

لقد أحسن استغلال «المنّ» البترولي الهابط عليه من السماء. وقد أُفْلِتَ من عقاله، ما بين ١٩٧٠و ١٩٧٤ . فارتفعت أسعاره عشرات الأضعاف. وكان هدفه الوحيد، وهمّه المقيم بأن يجعل من بلاده، وقبل ١٩٨٠، القوّة العسكريّة الخامسة في العالم. كان يؤكّد، أنّه قبل مرور عشر سنوات، سيصل بشعبه إلى مَصَفّ الشعوب الأكثر مدنيّة وتطوراً. وللوصول إلى هدفه كان (والحق يقال) يغدق الأموال دون حساب. اعتقد بأنّه يوازي «قورش الكبير» مؤسّس الأمبراطوريّة الفارسيّة ويتشبّه بداريوس الأول، المصلح الفارسي الشهير. فهو محمد رضى شاه فارس والعجم، نور الآريين. وقد جلب الماء لفلّاحيه، واستصلح لهم الأراضي وأشرك العمّال في ملكية المصانع والمؤسسات. أمّا الحسناوات الإيرانيات، فقد منحهنّ الحريّة التي يتشوقن إلى تذوّقها ووعدهنّ بالمساواة مع الرجال.

ما أعجب القدر! إنّ تقرير جهاز المخابرات الأميركية .C.I.A لم يتعدَ الحقيقة في هذا المجال. فقد كان محمد رضى، الذي أصبح فيما بعد «شاه شاه» يرتجف أمام والده. ولا غرابة في ذلك، إذ كان ذلك الوالد، عملاقاً ضخماً يتمتع بقوّة ثور، عدا عن كونه أُميّاً، عمل حّماراً «مكاري» لسنين عديدة قبل أن يتطوع جنديّاً. وفي هذا المجال، نجح، ومع السنين أصبح ضابطاً على رأس فريق من القوزاك. وفي غفلة من الزمن، اغتصب السلطة من أصحابها المنغمسين باللهو والفجور، فبطش بهم، وأباد عائلة «كادجار» ونصّب نفسه شاهاً، ومن هذه الحقبة لم يعرف محمد رضى الطرّي العود سوى الخوف.

ومن والدته وشقيقته، لم يعرف سوى التسلّط والسيطرة.

سنة ١٩٤١، اقتلع البريطانيون والده من الحكم بحجة تعاونه مع ألمانيا النازية وقذفوا به خارجاً. ثمّ، رفعوا محمد رضى إلى العرش وهو في الثانية والعشرين من عمره، يملون عليه تصرفاته وسلوكه، ولقاء ذلك، لم يتقاضَ منهم سوى تمريغ الأنف.

امّا طفولته فكان طبيعيّاً ان تنعم بالضمان. ولكنّه كان لعبة بين يديّ أمّه

وشقيقته المتسلّطة، إذ كان لعبة بين يديهما توجّهانه كيفما تشاءان. ولهذه الأسباب، نشأ خجولاً ضعيف الشخصيّة، يفضّل العزلة، والتصوّف، إذا صحّ التعبير. وبهذه العزلة والتصوّف، يعوّض، إلى حدٍّ ما، عن عدم الثقة بالنفس.

وممّا جاء في كتاب «محمد رضى بهلوي، شاه إيران» للكاتب الإيراني، «فريدون شاهجام»، بأنّ الشاه، يوم كان طريح الفراش يعاني من حمىّ التيفوئيد وهو في الثامنة من العمر، أتى إليه الامام علي، كرّم الله وجهه، متمنطقا بسيفه الشهير (ذو الفقار) وسقاه جرعة من شراب. فأفاق من نومه سليماً معافى. وفي مرحلة ثانية، إثر سقوطه عن ظهر جواده وأغمي عليه، رأى في أثناء ذلك العبّاس، عمّ الرسول ﷺ. وخلال الصيف نفسه تراءى له، الإمام المهدي. وقد نجا من محاولتين لقتله بشكل معجزة. من هذه الإشارات والوقائع تأكّد أنّه مدعو للقيام بمهمة مقدسة، وأنّه في حماية الله ولن تنال منه يد الشرّ والعدوان.

بعد أن انتهت الحرب العالمية الثانية وسكتت أفواه المدافع، خرج الشاه الشاب، وقد بلغ السادسة والعشرين من عمره، من حرج البريطانيين، فارتمى، كليّاً، في حرج الأميركيين، الذين كانوا لا يبغون سوى بترول بلاده فقط. في غير ذلك، تركوا له الحبل على هواه. وبتشجيع حاشيته وبشكل خاص شقيقته، جعل من نفسه ملكاً. ولكنّه وجد نفسه محاطاً بالاعداء. فالأكراد من جهة والأذربيجانيون من جهة أخرى، أقاموا لأنفسهم جمهوريات خاصّة بهم. كما أنّ رجال الدين والزعماء المحليين كانوا يناصبونه العداء ويقيمون المصاعب في وجهه، ويعود كلّ ذلك، إلى كراهيتهم لوالده. لقد اعتبروا آل بهلوي، مغتصبين للحكم. كما أنّ الحزب الشيوعيّ الإيراني، كان يتحرّك علناً، وفي وضح النهار، ويمنح دعمه لرئيس الوزراء (مصدق) الشرس، الذي كان يحلم، بإرسال الشاه في نزهة طويلة منفيّاً خارج البلاد، فأصبح ملك الملوك وكأنّه في قفص لا حول له ولا قوّة.

خلال أيلول ١٩٥٣ وتحت ضغط الجماهير، غادر طهران هارباً تحت

جنح الظلام. لكنّه عاد إليها منتصراً، بمساعي جهاز المخابرات الأميركية، الذي بسرعة مذهلة، خطّط وجهّز، وموّل انقلاباً ناجحاً. وبإعادته إلى سدّة العرش أمّنت الولايات المتحدة لنفسها البترول لمدّة طويلة. كما نصحه هذا الجهاز بالتصرّف بشكل قويّ لكي يثبت للناس بأنّه صاحب الأمر، وبأنّه بمأمن في ظلّ راية النجوم. ومن هنا، انتقم لنفسه، وبشكل خاص من «مصدق» وأعوانه.

وفي مجال الانتقام أجرى عملية تطهير للجيش، الذي تسلّل إلى صفوفه عدد لا يستهان به من الشيوعيّين. كما لاحق جميع المصابين بالعدوى الماركسية أو بالعدوى الوطنية. وقد عهد بهذه الأعمال «المشرّفة» إلى بوليسه السرّي، السافاك المطلق الصلاحيّة؛ الذي اختطف، وزجّ في السراديب، وعذّب، وأعدم. ممّا جعل الشعب يركع على ركبتيه، في أقطار الأمبراطورية، وبجميع فئاته: الاقطاعيين في ملكياتهم، والنبلاء في حصونهم، والعلماء في مكاتبهم، حيث يعلّمون الأبجدية العربية، ومن ثم القرآن الكريم، ومبادىء الدين الحنيف، ولم يغفل عن العمّال في مصانعهم، والفلّاحين في حقولهم؛ وهكذا أعاد «إلى الرشد» ما لا يقل عن خمسمائة الف معارض، ممّا يدعو إلى التوقّف وإعادة النظر.

بعد أن أمن شرّ كلّ من يخالفه الرأي، شدّ من قامته فرفع رأسه وشمخ بأنفه ولسان حاله يقول، بأنّ التاريخ لا يصنع دون زحن عظام بعض الرجال. وفي هذا المجال، بزَّ الشاه الجديد، والده وتفوّق عليه بقساوته وقمعة.

سنة ١٩٦٣، قام بما سمّاه حينئذ، بثورته البيضاء، التي لم يسفك خلالها الدم، وقد أصبحت شغله الشاغل. فتبنى خطة طموحة، متقدمة، مبنية على تحرير المرأة. وتعهّد بعثات طلابيّة للدراسة في الغرب، واستصلاح الأراضي الزراعية وتطوير قنوات وطرق الرّي، وتحديث البلاد والشعب. وقد وضع نصب عينيه الارتفاع بشعبه إلى مَصَفّ البلاد الراقية، ولكنّه سار في تنفيذ هذه الخطّة بأسرع ممّا يلزم، فكان اكثر السكّان يتحسّرون على الأزقّة التي

هدمت والحارات القديمة التي اندثرت لتقوم مكانها الطرقات الواسعة والأبنية الشاهقة، كانوا ينظرون إليها بغضب واشمئزاز، كذلك بالنسبة إلى الفنادق الفخمة والمتاجر الضخمة، ودور الأوبرا والسينما والجامعات والمصانع الحديثة. وبكلمة مختصرة، كانوا ينظرون شزراً ويلعنون سرّاً كلّ حديث وفخم وينعتونها بالشيطانيّة. وزاد ذلك من عمق الهوّة التي تفصل بين الفقراء والأثرياء الجدد. فالفقراء ينظرون بعيونهم فقط، إلى الخيرات المكدّسة في المخازن الكبرى دون أن يملكوا إلى شرائها وإقتنائها سبيلاً، كما أنّ الطبقة البورجوازية الإيرانية والمحظوظين من المتزلفين حول الشاه، لا يفوتهم ترويج الإشاعات التي توغر صدر الشعب، لا سيّما رجال الدين، ضدّ الشاه وتبذّله. على الأقل هذا ما كتبه، «أمير تاهيري» رئيس تحرير جريدة «كاهان» الإيرانية، في كتابه، وكان الشاه على علم بهذه العداوة، ولم يكن في يديه، سوى سلاح «السافاك» فاستغلّه إلى أبعد الحدود.

الشاه والهموم التي تعصف به:

تأزمت الحالة السياسيّة في البلاد وأخذت تنذر بشرّ مستطير. هذا من جهة أمّا من الجهة الأخرى، فقد أصبح حزيناً مهموماً بعد أن اكتشف لديه الأطباء الفرنسيون مرضاً خطيراً غير قابل للشفاء. ومن هنا لم يكن ينتبه لصوت الجرس الذي يعلن عن موعد الاستحقاق. فالتوسّع الاقتصاديّ المجنون خلال النصف الأول من السبعينات، توقّف فجأة. وبقدر ما كانت تتفاقم أزمة بيع البترول، وبالتالي هبوط أسعاره عالمياً، بقدر ما كانت تزداد صعوبة أمناء الصناديق في تسديد الفواتير والمستحقات. من هنا توقّفت المشاريع الطموحة الطويلة الأمد وغيرها من الإصلاحات فعرفت البلاد أزمة اقتصادية خانقة وتضخماً ماليّاً لم تعرفه إيران قبل ذلك.

غرق الشاه في صمت مطبق، فلم يعد يراه، أو يسمعه الشعب الإيراني إذ لم يعد كعادته، يفصح عن نفسه ومشاريعه المستقبليّة، سوى للدبلوماسيّين والصحفيّين الأجانب. رغم ذلك، لم يتخلَ الشاه عن عجرفته المعهودة، فكان

يحسب نفسه، أحد عمالقة القرن العشرين، أو ديغول العجم.

لكن حتى المقرّبون إليه، والبورجوازيّون، والطبقه المتوسطة وجماهير العمّال والفلاّحين، سيتكفلون بإعادته إلى رشده، ووضعه في مواجهة الحقيقة المرّة: إذ كان الجميع يصغون بانتباه شديد، إلى دعوات الثورة التي يطلقها ويلحّنها الزعماء المحليّون والدينيّون.

انفجرت الفتنة في العديد من المقاطعات والبلاد الإيرانية خلال كانون الثاني ١٩٧٨ . وقد تكاثرت وتضخّمت يوماً بعد يوم، حتى عمّت أرجاء البلاد، وضمّت مختلف طبقات الشعب. لكن لا الجيش تدخّل، ولا السافاك تحرّك لإخمادها، أو تخفيف حدّتها، علماً، بأنّه كان من الممكن خنقها في مهدها، وهذا ما حيرّ الدبلوماسيين الأجانب. لماذا ترك الشاه الأمور على علاّتها؟ ووصفه بعضهم، بالطفولة والعجز.

واقعيّاً، لقد انهار واستسلم، ففقد معنوياته وعنجهيّته وأحنى ظهره على أمل أن تمر العاصفة من فوقه بسلام، وكأنّه أصبح عجوزاً هرماً بين ليلة وضحاها! وقد تصوّر المحلّلون والمراقبون، بأنّ الشلل والتقاعس اللّذين أصيب بهما الشاه، لا يعودان فقط، إلى ضغط الأحداث، إنّما بسبب تفاقم حالته الصحيّة، ممّا أفقده الكثير من ردّة الفعل والثقة بالنفس.

في تشرين الأول ١٩٧٨ ، كان الشاه يجلس يوميّاً، في مكتبه الفخم المسدل الستائر، حيث لم يعد يتمكن من العمل، لأكثر من ساعتين أو ثلاث يوميّاً، على أبعد تقدير. لكنه لا ينسى ولا يتقاعس عن تناول الأدوية في مواعيدها بدقّة، فيدفعها إلى جوفه مع قليل من المياه المعدنيّة، المستوردة من فرنسا. ولم يكن يدير سوى أذن واحدة، إلى مستشاريه السياسيّين المتحجّرين الذين أكل الدهر عليهم وشرب، وقد بلغ كلّ منهم من الكبر عتيّاً لا يشعرون ولا يعرفون ما يحاك في الشوارع والأزقّة. أمّا من كانوا على معرفة تامّة بما يدور ويجري في البلاد، من كبار الضواري والكواسر، الذين كانت تتألّف منهم شلّة المدح وجوقة التملّق، لعشرات السنين، تخلّوا عنه، وابتعدوا كليّاً

عن زيارة القصر، وقد اتخذوا ما يلزم من الترتيبات لتهريب أموالهم، واللّحاق بها إلى الخارج عند اللزوم. وعمليّاً، فإنّ عملية تهريب رؤوس الأموال إلى الخارج قد أخذت طريقها بسرعة. فخلال أقلّ من شهر، تمّ تهريب أكثر من مليارين ليرة سترلينية إلى البنوك الأجنبية حيث أودعت تحت أرقام سريّة، وبأسماء «فنيّة».

تصاعد الضغط أكثر فأكثر في الشوارع، فأصبح الشاه، معزولاً، وحيداً، محجّماً لا يعرف كيف يتصرّف، فلم يجد أمامه، سوى السفير الأميركي، فكان يتّصل به في كلّ ساعة، يسأله النصح والإرشاد، للتخفيف من حدّة العصيان. فلم يكن من سفير الولايات المتحدة الأميركية، البلاد الصديقة، التي كانت تزيّن شوارع عاصمتها وترفع الأعلام الإيرانية، وتفرش له أرض المطار بالبسط الحمراء، كلّما عنّ له زيارتها للإستجمام والترويح عن النفس إلاّ أنْ شمّع الخيط للهرب حالما تسمح له الفرصة بذلك، وقبل فوات الأوان.

نزولاً عند رغبة، ممثّل الباب العالي الأميركي، التي صيغت بشكل نصحية وديّة، ترك الشاه البلاد متخليّاً عن الحكم، الذي لم يعرف كيف يديره، ولم يحسن الدفاع عنه كما ترك وراءه لقبه: شاه شاه، شمس الآريين. فغادر أرض بلاده في السادس عشر من كانون الثاني سنة ١٩٧٩، ومنذ هذا التاريخ لم يبقَ له من الحياة، سوى ثمانية عشر شهراً تماماً.

الشاه ومراحل النفي والتشرد:

في المرحلة الأولى من التشرّد، أمضى الشاه أسبوعاً من الراحة في مصر. ثم تقبّل دعوة ملك المغرب، فأمضى في مراكش ثلاثة أسابيع استعاد على أثرها، ظاهريّاً، بعض صحّته. لكنّه سرعان ما اكتشف، لدى تحسّسه لعنقه، تدرّناً ملتهباً. ولدى استدعاء الأطباء، اكتشفوا لديه تضخّماً في الطحال؛ كما أن خبراً سيّئاً جديداً، كان بانتظاره. فبعد أن أكّد له الرئيس الأميركي، «جيمي كارتر»، أنّه سيكون على الرحب والسعة في الولايات المتحدة

الأميركية، عاد وطلب منه المغادرة، والبحث عن مأوى آخر، خوفاً على سفارته ورجالها في طهران، من رجال الثورة الذين أخذوا يهدّدون، منذرين متوعّدين. كما أنّ تدخّل «دفيد روكفلر» «وهنري كيسنجر» صديقيّ الشاه، لم يُجدِ نفعاً، في ثني البيت الأبيض عن قراره وبقاء الشاه في الأراضي الأميركية. ومن المعتقد بأنّ الرئيس ومؤسسة .C.I.A لم يكونوا على علم بخطورة المرض الذي يعاني منه. ومن هنا لم يسمحوا له سوى بالإقامة موقتاً، للإستشفاء في إحدى مشافي جزر «البهاما». فنزل بها في الثلاثين من آذار، لكن لم يطل به المقام حتى تململ. إذْ أنّ سلامته لم تكن مضمونة، كما أنّ ثمن استشفائه كان خياليّاً ومستغرباً. لقد طلب منه (٢٤٠٠٠) اربعة وعشرين الف دولار يوميّاً. يا للجشع والاستغلال. ربمّا كان هذا الثمن يشمل السريّة، والتستّر على حقيقة مرضه، إذ شُيّع بأنّه مصابٌ بنوع بسيط من الأورام السرطانيّة. وكانوا يحقنونه بأنواع مختلفة من المضادات الحيويّة التقليديّة؛ من بعدها أعلنوا عن اكتشافهم ورماً سرطانيّاً في كبد الشاه ممّا ساعد على السماح له بالعودة إلى الأراضي الأميركية، بصورة استثنائيّة إنسانيّة، بعد أن كان قد أعلن الرئيس الأميركي، في صيف ١٩٧٩، بأنّ استقبال الشاه غير وارد إطلاقاً. وأنّه لا يقبل البحث بالأمر؛ لكنّ هذا الإصرار من قبله، لم يكن مراعاة لرجال الثورة في إيران، فقط، بل خوفاً من الليبراليين الأميركيين ومن الحزب الذي ينتمي إليه شخصيّاً، الحزب الديمقراطي، الذي أوصله إلى البيت الأبيض، إذ كان هذا الحزب قد نعت «محمد رضى بهلوي»، في أحد اجتماعاته، بالمجرم والطاغية. ولكنّ «جيمي كارتر» تغاضى عن رأي اليمين الأميركي، بمن فيهم الحزب الجمهوري، الذي كان يعتبر الشاه الإيراني حليفاً مخلصاً للولايات المتحدة. لكنّ كارتر لم يكن ينظر إلى الأمر، سوى من جهة واحدة، واضعاً نصب عينيه، كسب ودّ حكّام إيران الجدد، وتأمين تدفق نفطهم إلى بلاده. لكنّه وجد نفسه وسط ضغوط، وضغوط معاكسة، فقرّر الهرب بحجّة فرصته السنويّة. لكن قبل مغادرته البيت الأبيض، والتي كانت مقررة في العاشر من آب، فوجىء برسالة من شقيقة الشاه، تطلب مراعاة حالة أخيها الصحيّة،

والسماح له بالدخول إلى البلاد للإستشفاء والمعالجة. فما كان من «كارتر» إلّا إخلاء الساحة واللجوء إلى منتجعه البعيد «تاركاً الشقا على من بقى». فلم يكن من أحد مساعدي وزير الصحّة، سوى الردّ على الرسالة، بأنّ الشاه، بالحقيقة ليس في خطر، وسينظر في الأمر لدى عودة الرئيس.

وبناء على طلب الشاه، لحق به الطبيبان الفرنسيان اللّذان عالجاه في طهران سابقاً، إلى حيث هو حاليّاً في «كرنافيكا». فأخذا أمر معالجته على عاتقهما. وقبل وصولهما، أرسل من قبل الإدارة الأميركية، الدكتور «بنجامين. هـ. كاين»، للتحقّق من حالة الشاه. ولدى عودته، ورفع تقريره الذي يؤكّد فيه إصابة المريض بسرطان الكبد، وذلك في أيلول ١٩٧٩ مقترحاً معالجته في «مركز كورنل الطبّيّ» في نيويورك. ولدى سماع الرئيس كارتر كلمة سرطان، غيّر رأيه رأساً على عقب وصرّح قائلاً: إذا كان ذلك ضروريّاً، علينا استضافة الشاه ومعالجته فوراً، حتى شفائه التام مهما طال الزمن. ولدى عودته إلى أميركا ودخوله المركز الطبيّ في نيويورك، أجريت له الفحوصات والتحاليل المخبرية المتقدمة، وعقد كبير فريق الأطباء المعالج الدكتور «مورتون كولمان» مؤتمراً صحفيّاً، أعلن فيه أنّ الشاه بحاجة للإستشفاء والمعالجة خلال ستة أشهر على الأقل، ومن المرجّح خلال سنة كاملة. وهنالك على بعد آلاف الكيلومترات في طهران، هاج الإيرانيون وماجوا، فاجتاحوا السفارة الأميركية حيث احتجزوا ثلاثة وخمسين رهينة، معلنين أنّهم سيحتفظون بهم حتى تسليم الشاه وإعادته إلى بلاده، للإجابة عن كل ما قام به من أعمال، أمام القضاء والعدالة الثوريّة.

خلال ذلك كان يجرى للشاه، كلّ ما يلزم من المعالجة والعناية، لكن في كلّ مرة كان الأطباء يظنون أنّهم قد انتهوا من المعالجة وأنّ الشاه دخل في مرحلة النقاهة، يكتشفون علّةً جديدة عليهم معالجتها. وكانت الأسابيع والأشهر تمضي بسرعة علماً أنّه منذ الرابع من تشرين الثاني، كانت أميركا بأكملها في حالة اشمئزاز وغضب بخصوص الرهائن في طهران، وتتمنى التخلّص من وجود الشاه على أمل التسريع في إطلاق سبيل الرهائن. من هنا،

أعلن الأطباء «ديستان وكيف» ، وطبيب السفارة الأميركية في المكسيك، أنّ الأطباء الفرنسيين كانوا يعالجون الشاه بشكل صحيح ومرضي. ولأسباب بقيت مجهولة، طلب الشاه من كارتر في نهاية ١٩٧٩، إرساله من جديد إلى المكسيك؛ ولكن في أثناء الطيران كان على الطائرة، أن تهبط في التكساس، في سان أنطونيو.

في هذه المرّة، جاء دور المكسيكيين الذين أغلقوا أبوابهم في وجهه، خشية أن يصيب موظفيّ سفارتهم في طهران، ما أصاب موظفيّ السفارة الأميركية من حجز وارتهان.

باناما تقبل استضافة الشاه المحتضر:

بعد هبوط الطائرة التي تقلّ الشاه المريض، في تكساس، اضطرارياً نشطت الاتصالات الديبلوماسيّة على أعلى المستويات، وجميع الاتجاهات. فلم يجدوا سوى «بناما» تقبل باستضافة المليك المشرّد، ولم يعد فقط الهارب الذي وضع ثمناً لرأسه، بل أصبح رجلاً بائساً يشعر أنّ الحياة تغادر جسده المسجّى تدريجيّاً.

في آذار ١٩٨٠، أُعلم الشاه المنفي بأنّ الحكومة البانامية تتهّيأ للتسليم تحت الضغوط الإيرانية. وتقوم بالاجراءات اللاّزمة لإخراجه من بلادها؛ ربمّا كان ذلك، مجرّد إشاعات تنشرها طهران للتأثير سلباً على صحّته. وقد أعلن له الأطباء أنّ استئصال الطحال أصبح ضروريّاً، ومن الممكن اجراء العملية محليّاً. وبردّة فعل ملكيّة، طلب الشاه، أن تجرى له الجراحة على يد الدكتور «ميكائيل اليس دبغي» من هيوستن تكساس، وهو نجم جراحة القلب، الذي عالج الكثير من الكبار والحكّام.

رغم أنّ هذا الطبيب، لم يكن أخصائيّاً في الجراحة الداخلية، فقد سارع ملبيّاً رغبة الشاه. ولدى وصوله، وجرْياً على عادته في الهجوم والمشاكسة لم يترك الفرصة تفوته. فأحدث فضيحة كبيرة باعلانه، أنّ مريضه الكبير، لا يلقى العناية والمعالجة المناسبتين، كما قلّل من فعاليّة الحماية المتخذة لسلامة

مريضه، فَقرّر نقله إلى بلاد أخرى.

من جديد، انطلقت النداءات وطلبات الرحمة والشفقة، وللمرّة الثانية لبّى الرئيس المصري «أنور السادات» طلب الضيافة. وكان على الدكتور «دبغي» إجراء الجراحة في القاهرة. في ٢٨ آذار ١٩٨٠، استؤصل الطحال. وبالفعل كان متضخماً كثيراً، إذ بلغ وزنه كيلوين اثنين. ومنذ تلك اللحظة لم يعرف الرّاحة، فمن جراحة إلى جراحة، ومن نزيف، إلى أعنف وكان حوله عشرة من أكبر الأطباء والأخصائيّين: سبعة مصريين وثلاثة فرنسيين. لكنّ رصاصة الرحمة، كانت بالنسبة إليه ذبحة قلبيّة قاتلة. فأسلم الروح في الساعة التاسعة وخمسين دقيقة، من يوم الأحد الواقع في ٢٧ تموز سنة ١٩٨٠ . هكذا تذهب الأمجاد الدنيويّة.

«فرنسوا ده ڤاليه François Duvalier

من المعروف والمسلّم به، أنّ الحكم يستهلك رجاله؛ ويضعف الحكّام. وفي هذه العجالة، نحاول شرح هذه الظاهرة.

إنّ من يمارس الحكم، لمدّة طويلة، ينشأ عنده، ويتفاعل أكثر فأكثر نوع من الهذيان والضياع، كما شرحت ««مادلين كراويتز» المجازة في الحقوق العامّة، الذائعة الصيت.

إنّ أكثر الحكّام يبدون في هذا المجال نفس الأعراض، أهمّها، عدم الاهتمام بنصائح مستشاريهم. فهم لا يأخذون سوى ما يناسبهم من هذه النصائح والآراء. كما أنّ هؤلاء الحكّام، في حالات متقدمة يعزلون أنفسهم، فيعيشون في شبه بوتقة مغلقة، أو برج عاجيّ، إذ يقلّ صبرهم، ولا يتحمّلون النقد أو أيّ نوع من المعارضة. ويصبحون في بعض الحالات، حقودين، محبّين للانتقام. وينتهي، تقريباً، بجميعهم المطاف، فيصبحون منبوذين ومكروهين من شعوبهم.

إنّ الحكم، يجتذب عادة، المتصلّبين بآرائهم، والخطرين في معاملاتهم وتعاطيهم مع الناس، وخصوصاً مع منافسيهم؛ فعندما يصلون إلى الحكم، تتفاقم لديهم هذه الظواهر، خصوصاً أنّهم في مركز القوّة يحصدون في أرض خصبة، وينهلون من نبع غزير وقد شرح الباحثون وعلماء النفس أسباب هذه الظواهر والحالات؛ فبشكل عام، عرف هؤلاء الرجال طفولة خالية من الحبّ والحنان، وفي حالات كثيرة دون أهل. ثم تعرّضوا لتأثير مدرّسين ومربين، متشكّكين متردّدين، فتعلّموا الكذب إخفاءً لحقيقة مشاعرهم وعواطفهم،

كذلك تعلّموا الشراسة، للدفاع عن آرائهم الخاطئة، والأنانية للحفاظ على مصالحهم ونزواتهم الخاصة. فكانوا لا ينظرون إلى الأشخاص إلّا من أعلى، ولا يعالجون المواقف إلّا بطريقة ارتجالية، دون دراسة أو تمحيص. وكثيراً ما يجنحون نحو التبذّل. فكانوا يبحثون عن المسرّات تعويضاً عن شعورهم بالضيق، والقلق العميق. كما أنّ كلّاً منهم يتظاهر بالبطولة والشجاعة، إلّا أنّه يخفي وراء هذه المظاهر الخلّابة، جبناً. فيولّي الأدبار لدى أقلّ مواجهة. وتتمحور جميع تصرفاتهم وتعاطيهم شؤون الحكم حول قاعدة واحدة، لا تقبل الجدل: «لكي تحكم إقضِ على كلّ من تسوّل له نفسه رفع صوته، أو إبداء رأيه». ومن هنا، كان أساتذة التاريخ، لا يجدون صعوبة، في إعطاء صورة نموذجية، عن أمثال هؤلاء الرجال، لتلاميذهم. فخير مثل في هذا المجال هو: «لوسيوس دوميتيوس أهنوبربيوس» الذي أصبح فيما بعد، الأمبراطور «نيرون» المشهور بحريقه لروما.

منذ الثالث عشر من تشرين الأول سنة أربع وخمسين بعد المسيح، وهو تاريخ جلوس هذا الحاكم الفريد، على عرش الأمبراطورية الرومانية (نيرون) وحتّى يومنا هذا كان لكلّ قرن، نيرون أو أكثر.

في القرن العشرين، والكلّ يعرف، قاسى العالم، الظلم والإستبداد على أيدي، بعض هؤلاء الأمراء الأشرار، فذاقوا الأمرّين خلال حكمهم. ومن معاصرينا، إثنان من «خيرتهم» «فرنسوا ديڤاليه» «وفرديناند ماركوس»، الذي كان لكلّ منهما آثاره السلبيّة على حياة ومستقبل شعبه. فقد استغلّا هذه الشعوب في أول الأمر، ثم أذلّاها وقهراها ثمّ سحقاها كلاهما شرّير دموي، خلّف وراءه مآسي لا يمحوها الزمن من ذاكرة من تعرّض لنتائجها.

ففي البحر الكاريبي إلى حيث يتسابق، في هذه الأيّام، أثرياء الغرب، لقضاء عطلاتهم والترويح عن أنفسهم، فإنّ الخمسة ملايين نسمة الذين يشكّلون سكّان «هايتي» لم، ولن ينسوا الظلم والاستبداد اللّذين مارسهما عليهم، «ديفاليه»، بين ١٩٥٧ و ١٩٧١؛ أربع عشرة سنة من الرّعب. أمّا في جنوب ـ شرقي آسيا، فالسبعة وثلاثون مليون فيليبيني، الذين تحرّروا منذ

شباط ١٩٨٦، بعد عشرين سنة من القمع والاستبداد، الذي فرضه عليهم رئيسهم «الشفوق» ماركوس كانوا يرتجفون رعباً لمجرد التفكير، بأنّه ربّما نجح بالفرار من منفاه الذهبيّ في هاواي، جنّة عدن الأميركية في قلب الباسيفيكي، والعودة إلى مانيلا للموت في بلاده، كما يدّعي. ويتساءلون ألا يقوم من قبره، ومعه يعود الضيق والمعاناة؟ فهو مصّاص دماء، وغول نهم، ما أكثر ضحاياه. فهو وزميله ده ڤاليه كلّ منهما «نيرون» يتشابهان في الشهيّة إلى القوّة والاستبداد والقسوة مع الشعب، ممّا جعلهما، في مَصَفّ المرضى الذين يصلون إلى الحكم بعض الأحيان.

ده ڤاليه الاعرق بالارهاب:

أوّلاً، «ده ڤاليه» إذ أنّه الأكبر من حيث العمر والأوسع شهرة من حيث الظلم والإرهاب. من الغريب، أنّ هذه الشخصيّة الممقوتة، لم تعمّر طويلاً. فقد رحل وهو في الرابعة والستين من عمره. ولم يلفت إليه الأنظار، عمليّاً، في النصف الأول من حياته الشقيّة، هذا على الأقلّ في «بورت ـ أو ـ برنس». ولم يُؤْتَ على ذكره في الندوات، حيث تبحث، وتصنع سمعة الرجال، لا سيّما السياسيّين منهم، كذلك لم يكن للغرب رأي في سلوكه.

من هو فرنسوا ده ڤالية؟

رجل صغير أسود، يضع على أنفه نظّارات «ميوبية» سميكة العدسات. متهدّلاً، يتحرّك ببطء ومسكنة. كما أنّه يتكلّم بصوت خافت مبحوح. ومن هنا يلقّبه أصدقاؤه النادرون، بالزاحف، أو الزحّاف، إذ كان يحرّك رجليه زحفاً وليس نقلاً. وكان يقيم في منزل العائلة الذي يقع في طرف «زقاق روي» الكائن في ضواحي العاصمة الفقيرة. أمّا والده فهو طبيب ريفيّ متواضع، ترك مزاولة عمله المشرّف، ليصبح قاضي صلح، حيث لم يحقق أيّ نجاح أو رفاهية.

وكان يبدو، أنّ ولده فرانسوا، وهو نسخة طبق الأصل عن والده،

اقتدى به في كل شيء. وعلى سنّة والده وطريقه، نال شهادة الطبّ. إلّا أنّه لم يمارسه، فلم يتخذ له عيادة. كما أنّه لم يلتحق بإحدى المستشفيات أو المستوصفات، بل كان يجوب الأرياف بخطوات بطيئة حاملاً حقيبته.

في الرابعة والثلاثين من عمره، سنة ١٩٤١ـ لكنّه من النوع الذي لا تبدو عليه حقيقة عمره وفي جميع الأحوال لم يكن له ماضٍ معروف ـ في تلك الحقبة من الزمن، حلّت بجزيرة هايتي كارثتان أصابتا عشرات الآلاف من الأهالي: الملاريا «والبيان Pian». وهذا الأخير مرض جلديّ شديد العدوى والانتشار، يعود إلى نوع من الطفيليّات التي تنغرس في مسام الجلد. وهذا الوباء معروف في جميع البلاد الحارّة تقريباً. وهكذا وجد فرنسوا ما يشغله مع بعض جروح يعالجها. أمّا الملاريا فكان يحاربها بالكينا والبيان Pian بأملاح البسميت، إذ أنّ المضادّات الحيويّة لم تكن قد وجدت وكان يؤثّر بشكل خاص على الريفيّين البسطاء بالتلويح بمساحيقه ومراهمه ومن هنا لقّب «بابا دوك» كما أشيع بأنّه يتعاطى السحر فاستغلّ تلك الشائعات لمصلحته.

أصبح معروفاً من سكان البراري والأدغال. فالبعض كان يقدّره، أمّا البعض الآخر فكان يخافه ويخشى سحره، إذ كانوا يؤمنون بالسحر، والشعوذة، والأرواح الشرّيرة، إلى ما هنالك من الخرافات والمعتقدات، التي لا أصل لها ولا صحّة. لكنّه كان يحصد ثمار هذه المعتقدات فيرضي طبيعة الاستئثار والتملّك التي تجيش في صدره. في العاصمة «بورت ـ أو ـ برنس»، كانوا لا يهتمون بهذه الخرافات والخزعبلات التي يمارسها هذا الطبيب الأسود الصغير، وكان عليه إخفاء حقده وكراهيته للملّونين، الذين يتحكّمون بخيرات البلاد، والذين يعاملونه بطريقة فوقيّة، مع أمثاله من الزنوج.

كان من الممكن أن تحرّكه السياسة، لكنّه كان يعرف أنّه غير مهيأ بعد ولم تأتِ ساعته، مع أنّ الظروف مؤاتية. فالجزيرة في غليان ضدّ الحكومة التي يرأسها «إيلي ليكوست» حليف أميركا. وكان ليكوست قد نزع ملكيّة الفلاحين في «بانيو» «والكاب» «وكونيف» «وسانت مرك» وشبه جزيرة الجنوب، وأجبر المزارعين على استبدال مزروعاتهم التي ينتجون منها جميع

موادّهم الغذائية، بمحاصيل استراتيجية تحتاجها الولايات الأميركية المتحدة التي اشتركت في الحرب العالميّة الثانية؛ وكان من جرّاء ذلك، أن دخلت هايتي في أزمة إقتصاديّة خانقة، ممّا أشعل نار الفتنة في البلاد إذ تحركت جميع الأحزاب والتنظيمات من مختلف الفئات والاتجاهات. وفي هذه الأثناء، لجأ صاحبنا «ده ڤالية» إلى الأدغال خوفاً من أن يصاب بما لا تحمد عقباه، عملاً بالقول المأثور، عند تغيير الحكّام إخْمِ رأسك.

الشعب الهايتي يطيح «بليكوست»:

انتفض الشعب بأكثريته في جزيرة هايتي، سنة ١٩٤٦، فكسر وخلع، سرق ونهب. وفي أوج هياجه هاجم الدوائر الحكوميّة، فعبث بمحتوياتها واستولى على ما يمكن أن ينفعه وأحرق ما لا نفع له من ملفّات ووثائق، حتى وصل إلى القصر الرئاسي. إلاّ أنّه كان خالياً من سكّانه إذ كان الرئيس وربعه، قد ولّوا هاربين، من وجه الأمواج المتدافعة سخطاً وغضباً. كلّ هذا، دون أيّ تدخّل من قبل رجال السلطة، ممّا يوحي، بتواطؤ محتمل، بين الجيش والثائرين. وهكذا تسلّم زمام الأمور، بصورة مؤقّتة، الكولونيل «بول ماكلوار» على رأس لجنة حاكمة، لكنّه بعد برهة من الزمن، سلّم مقاليد السلطة «لإستيمه دومرسيه». وكان الطبيب الصغير الأسود، متربّصاً يدرس ويتتبّع الأمور عن كثب. وعندما تأكّد من نجاح المعارضة، اندسّ بين صفوفها، وفي غفلة من القدر أصبح وزيراً للصحّة في الحكومة الجديدة. فعلّق «سمّاعته» مستغنياً عن خدماتها نهائياً إذ تأكّد بأنّ هذه الحقبة، مناسبة جدّاً للمغامرة والمغامرين.

كان هدفه البعيد غزو المنصب الأعلى في الحكم، فكان يرسم ويخطّط. لكنّ الوصول، وتحقيق أحلامه، أخذا منه إحدى عشرة سنة؛ إعتباراً من سنة ١٩٤٦. قام بكلّ ما أتيح له من الأحابيل والمؤامرات ودائماً في السرّ والظلام يحوك وينسج. من هذا المنطلق، وفي هذه الغاية، عقد صداقة مبنيّة على تبادل المنافع مع الجيش والشرطة، كما استحدث لنفسه موطىء قدم عند «بول

ماكلوار» الذي عاد إلى الحكم في هايتي، ووضع قدمه الثانية، عند «كليمان جومال» زعيم المعارضة. أمّا ما تبقى من ولائه، فقد منحه تحسّباً لكلّ طارىء، للسفارة الأميركية. وكانت حيطته وحذره موضع تندّر وتهكّم. لكن، يضحك جيّداً من يكون آخر الضاحكين..

في كانون الأول ١٩٥٦، أُطيح «ببول ماكلوار»، الذي كان قد سمّى نفسه جنرالاً على أيدي فريق من الجيش. فلجأ إلى الولايات المتحدة، هرباً من نقمة رفاقه القدامى، وبهذا خلا العرش فاحتلّه عسكري آخر: الكولونيل «كريبو». فكرّت «سبحة الانقلابات» والانقلابات المضادّة خلال الثلاثة أشهر الأولى من سنة ١٩٥٧ وكانت الأمور تدور والرّياح تجرى بما تشتهي «سفينة» ده ڤالية». ففي (٢٢) كانون الأول انتخب «البابادوك» بصورة دستوريّة، وبأصوات الريفيّين رئيساً للبلاد. ومنذ هذا، أصبح رقم ٢٢ رقم سعد «ده ڤالية». ومنذ انتخابه أعطى طبيب «زقاق روي» القديم، البرهان تلو البرهان عن الطريقة التي سيحكم بها البلاد. فلجأ في أوّل عهده، إلى الديماغوجية، فأسكر أهل الأرياف بالوعود، مشجّعاً الشعب على الأعياد، والكرنفال. لكنّه صرّح بأنّ العنف ضروريّ، لإعادة الأمور إلى نصابها وتثبيت الحكم، أو بالأحرى حكمه، حتى جعل منه ديناً. وبالرغم من أنّه وصل إلى العرش بمساعدة الجيش، بادر فوراً إلى تصفية مجلس القيادة. أمّا عميله «كبيارو» في هذه القيادة، الذي كان على سبيل المكافأة والشكر قد سمّاه جنرالاً سرعان ما زجّه في السجن، ثم نفاه خارج البلاد.

في الثاني من أيار، أعلن حالة الطوارىء والأحكام العرفيّة؛ وفي التاسع منه، منح الولايات الأميركية المتحدة قاعدة للصواريخ في بلاده. في العاشر من الشهر، حاول تجّار العاصمة الإضراب إحتجاجاً، فسحق محاولتهم بقوّة البوليس، كما أباح لرعاعه اقتلاع أبواب المتاجر المضربة ونهب محتوياتها، تحت سمع وبصر رجال الأمن، الذين لم يحرّكوا ساكناً، بناءً للأوامر العليا. وربّما، شارك بعضهم في السلب والنهب. ففي اليوم التالي وبحجّة أنّ هذه المظاهرات وما رافقها من العنف والتخريب كان قد اعدّ لها ونظّمها رفيقان سابقان له، لم

يفوزا بالانتخابات «كليمان جومال ولويس دجوا»، فأودعهما السجن، حيث اغتيل الأول، أما الثاني فنجا بأعجوبة فنفاه إلى المكسيك. وفي شهر تموز ومستعيناً «بكليمان باربو»، اخترع «بابادوك» ميليشيا من المتطوعين للأمن القوميّ، التي تألّفت من اللصوص وخرّيجي السجون فألبسهم الثياب الزرقاء، وزيّن صدورهم بميدالية ترمز إلى صفتهم، وزوّدها بالمسدسات والسواطير، ولم ينسَ النظّارات السوداء لمزيد من الوقار كما أنشأ فريقاً أنثوياً مماثلاً، دعين (فتيات لابو) أي فتيات القانون وعقد لواء رئاستهنّ إلى «روزالي بوكه» زوجة «ماكس أدولف» وزير الصحة، التي دعيت فيما بعد «أدولفين» فلبست أغلى الثياب المشتراة من محلّات كبار مصمّمي الأزياء الباريسيين، هذا عدا عن لباس المظليّين الذي كانت تلبسه لتتبختر به وتهزّ ردفيها كأوزّة ممتلئة، وقد بسطت سلطتها على العديد من المؤسسات، حتى طاولت سجن «فورت ـ ديمانش» الرئيسيّ وجهنّم التي يعذب فيها المعارضون. وبفضل هذه التنظيمات والمؤسسات الإرهابيّة أقام فرنسوا ده ڤاليه، خلال سنتين، في جزيرته دكتاتورية غير متطوّرة. كانت نوعاً من أنواع «نيوفاشيستيه» البلاد القاريّة، كما أطلق عليها الشاعر الهاييتي «رينه دبستر» الذي أُرغم مع الكثيرين، على الهرب واللجوء إلى فرنسا ومن ثمّ إلى كوبا. وهكذا عرفت هايتي، «برعاية وفضل» هذا الرئيس عشرين سنة من عدم الاستقرار، ولكنّها في النهاية، أعطت العالم نموذجاً صارخاً عن الغرغرينا التي تميّز بها حكم هذا الديكتاتور الصغير.

ده ڤاليه يصفّي المعارضة:

ابتداءً من سنة ١٩٦٠، قضى ده ڤاليه على جميع التكتلات، والمؤسسات، التي لم تكن حتى الآن قد رفعت يديها مستسلمة. فقد حلّ نقابات أصحاب المهن الحرّة، من أيّ نوع كانت، كنقابة التجّار، والصناعيين، والمهندسين والأطباء والمحامين وغيرها. وكمّ أفواه الصحافة المعارضة وخنق أصواتها، ليس هذا فقط، بل ألغى ترخيص بعض هذه

الصحف وأغلق أبوابها. وبهذا لم يبقَ في البلاد من وسائل الإعلام، سوى من يسبّح بحمده، ويمجّد صفاته وإنجازاته، ومن رأى العبرة بأخيه فليعتبر. لم يكتفِ «ده ڤاليه» بهذا الحدّ من القمع والتخويف؛ فقد طاولت مخالبه المؤسسات التربويّة والتعليميّة، كما نهش المقامات الدينيّة، فطرد من بلاده، الإرساليات اليسوعيّة بكافّة أنواعها، من مدارس، وملاجىء أيتام ومستوصفات وخلافه، وهي عديدة جدّاً، ولها خدمات متنوعة لا تعوّض ومآثر جليلة لا تنسى. ويكفى أنّها قد علّمت وثقّفت أجيالاً من الهايتيّين منهم ما لا يقلّ عن تسعين بالمئة من الأطباء والمهندسين ورجال القانون، دون أن ننسى، بأنّ «ده ڤاليه» شخصيّاً كان واحداً منهم. وهنا، تحضرنا الأقوال المأثورة: «اتقِ شرّ من أحسنت إليه» «وأبت النفس الخبيثة أن تخرج من هذه الدنيا، قبل أن تسيء إلى من أحسن إليها».

وقد خصّ الدين ورجاله بضربة قاسية، فطرد بطريرك البلاد والمونسنيور «بواريه»، وعشرات المئات من الكهنة ورجال الدين، وأغلق الكليّة الإكليريكيّة الكبرى، وبهذا، انقطعت شعرة معاوية، بين هايتي وحاضرة الفاتيكان ووضع يده على أملاك الكنيسة وصادر أموالها.

بعد أن استعاد الرئيس التاريخي «ده ڤاليه» أنفاسه ونشاطه، وجّه اهتمامه للإصلاحات الداخليّة، فأتت على صورة ما سمّاه تطهيراً، في صفوف الجيش والموظفين، فكانت دركونية بكل معنى الكلمة، إذ طرد العناصر المستقيمة الصالحة التي ربّما، في يوم من الإيام رفعت صوتها أو إصبعها في وجهه... الوسيم. لم يكتفِ بكلّ ذلك، بل في عمليّة تفتيش ومطاردة مسعورة، اعتقل، المونسنيور «أوغيستان» وهو أحد رجال الدين الأتقياء، وبكلّ بساطة، اقتيد إلى المطار وأُجبر على مغادرة البلاد في العاشر من كانون الثاني ١٩٦١. وأخيراً، شرَّع مذهب «الڤاندو» فأعاد جزيرة هايتي إلى عبادة الأوثان، وبلغ به الأمر، إلى تقزيب بعض «سحرة» هذا المذهب فجعلهم مستشاريه الرسميّين يستفتيهم في كل صغيرة وكبيرة. وقد صبّ جامّ غضبه، وخصّ بالجزء الأكبر من لعناته جماعة «المولّدين» الخلاسيّين، إلّا أنّه أبقى على

قسم كبير منهم في مناصبهم الإداريّة الهامّة، إذ أنّهم يشكّلون الطبقة الوحيدة، المتعلّمة والمثقّفة في البلاد.

سنة ١٩٦٣، إثر محاولة فاشلة، لقتل ولديّ الرئيس «ده ڤاليه» أثناء انتقالهما في السيّارة الرئاسية ضمن العاصمة «بورث أو برنس»، أسند «بابا دوك» تخطيط الجريمة، إلى أحد رجال المعارضة، وهو ضابط كبير في الجيش، فطارده رجال الميليشيا حتى أبواب سفارة الجمهوريّة الدومينيكيّة، حيث التجأ وزوجته. وكادوا يقتحمونها مستخفّين بالأعراف والقوانين الدوليّة. لكن أثناء ذلك لم يَفُتْهُمْ إعمال سواطيرهم تقطيعاً وتهشيماً في أوصال ورؤوس جميع أفراد عائلة الفار، ومن بينهم طفل رضيع كما قضوا على جميع خدمه. إثر مهاجمة سفارة الجمهوريّة الدومينيكيّة، انقطعت العلاقات الدبلوماسيّة بين الجارتين، هايتي والدومينيك، كما أنّ الولايات الأميركية المتحدة فرضت على الجزيرة القطيعة والحصار الاقتصادي. وهكذا خلال ست سنوات من حكم «فرنسوا ده ڤاليه» الديكتاتوري المتعسّف تخلّى جميع الحلفاء والأصدقاء عن هذه الجزيرة التعيسة، التي أصبحت معزولة ومحاصرة، «مع شيطانها».

ماذا عن صحة ده ڤالية؟

ماذا نعرف عن صحّة «فرنسوا ده ڤاليه»، في هذه الحقبة من حياته؟ من المعروف، أنّه كان مصاباً بداء السكّري منذ زمن طويل، لكنه كان مستهتراً أو مشغولاً عن مداواة هذا الداء العضال، كما أنّه بالإضافة إلى ذلك، ومنذ سنة ١٩٤٦، تاريخ تعاطيه السياسة فعليّاً، وتحوّله كليّاً عن المهنة التي تعلمها ومارسها خلال مدة ليست بقصيرة، وأصبح متّهماً بممارسة «اللواس» وهي إحدى طقوس الغابات الوثنية، طرأ تغيير جذريّ على تصرفاته وانفعالاته. ففي بعض الحالات، كان يغرق في صمت رهيب وتعتريه رجفة شديدة تنهك أوصاله لساعات عديدة، يعود بعدها، إلى رشده والسيطرة على نفسه. كما أنّه لم يعد بحاجة حتى لأتفه الأسباب، كي ينفجر غاضباً في ثورات رهيبة تدخل الرّعب إلى قلوب من حوله، فيولّون الأدبار، مبتعدين عن مرمى حممه، ولمدّة

طويلة لا يتجرأ أحدهم على الدخول إلى مكتبه، حيث يحتفظ، في متناول يده بمسدسه «الكولت» من عيار (٤٥) المحشو بالرصاص بشكل دائم. وكان لأسباب مجهولة، وفي عادة فريدة، لا يتخذ قراراً هامّاً، إلّا أثناء استحمامه، معتمراً قبّعته؛ وبالعودة إلى أقوال المقرّبين منه، كان يلعب مسرحية «هاملت» فيتساءل عن المستقبل، محملقاً في «رأس أحد أعداء الوطن» المقطوع.

منذ سنة ١٩٦٤، أخذ يبتعد عن الناس شيئاً فشيئاً فينطوي على نفسه داخل قصره، ومن وقت لآخر، يدخل في حالة مدهشة من الثرثرة والهذيان التي لا معنى لها، ومن أقواله: «أنا كائن روحيّ، أنا علم الهايتيين، لا يمكن استبدالي أو مشاركتي». وعندما نودي به رئيساً لمدى الحياة، «تكرّم» في خطبته الجوابيّة في الكونغرس، وقال: «إنّني أسمح لكم، بإعادة تكريسي، من وقت لآخر». وكان لزاماً على كل من يقدّم إليه التماساً أو استرحاماً أن يبدأ كتابه هكذا «إلى حامي الشّعب، زعيم الثورة الأعلى، نبي الوحدة الوطنية، زعيم العالم الثالث، منسّق التجارة والصناعة في البلاد، المحسن إلى الفقراء، ملهم النفوس، مسدد خطى وأغلاط الهايتيين»، وبهذا فقط، ربّما استجيب طلبه، كما كان على الصحف، أن تكرّس، من وقت لآخر، صفحاتها الأولى لصورته بالألوان، بكامل أبّهته، وخصوصاً، أوسمته المجهولة المصادر، ولتدبيج مقال عامر بما تجود به القريحة، من أكاذيب وأساطير؛ وإذا حدث، أن تلكأت إحداها عن هذا الواجب، الذي هو بمثابة «فعل إيمان» تكون كمن سعى إلى حتفه بظلفه، فيصدر قرار إغلاقها وتشريد أصحابها ومحرّريها.

في أول آب ١٩٦٤، نزل في مرفأ «دام ـ ماري» فريق من المعارضين المنفيّين بقيادة «فيللدروين» مؤلف من ثلاثة عشر عنصراً، اعتقلوا جميعاً. وأُعدم إحدى عشر منهم فوراً. لكن «بابا دوك» لم يكتفِ بهذا الانتقام، فذهب شخصيّاً على رأس شلّة من قتلته إلى سجن «سان ديمانش» حيث «يستضيف» كبار خصومه السياسيّين حيث قتل ثلاثين منهم وعمد إلى إلقاء جثّة أهمّهم «هنري لاراك» الذي تزعّم أحداث ١٩٤٦، في ساحة العاصمة، لمدّة عشرة أيام، حيث فسدت وأكلتها الحشرات. كما أنّ فصائله، المظفّرة، تفنّنت، بناءً

لأمره، في تعذيب سبعة وعشرين معارض من «مجرمي» المرفأ الذي أتى منه فريق «فيللدروين». وبناءً لرغبته أيضاً، قذفوا بوالدة «فللدروين» البالغة من العمر الخامسة والثمانين، عبر النافذة! وبعد ثلاثة أشهر، أمر بتجميع جميع طلّاب وتلاميذ العاصمة والملحقات، من الجنسين، في ساحة العاصمة، حيث قتل «دوين ونوما» الباقيان من الكوندوس أمام عيونهم، وذلك على سبيل العبرة، ومن «رأى العبرة فليعتبر».

ما من شيء يستطيع توقيف هذا الطاغيّة عن أعماله الإرهابيّة، ويؤكّد البعض بأنّه يتلذّذ برؤية الدماء التي تسيل من أجسام ضحاياه، وبرهاناً على ذلك، ترأس شخصيّاً فرقة الإعدام، في السابع عشر من أيار ١٩٦٧ بساحة «بورث أو برنس». فأعطى أمره بصوت عالٍ لإطلاق الرصاص، على تسعة عشر ضابطاً، اتّهموا بتدبير مؤامرة للإطاحة به. كان من بينهم صهره «الليوتنان كولونيل ماكس دومينيك» إلّا أنّه أعفى عنه في اللّحظة الأخيرة ونُفي خارج البلاد.

لقد سجّلت سنة ١٩٦٧ منحنى مهمّاً في تاريخ حكم «بابا دوك» الدمويّ. فالمقرّبون والمحيطون به وقد تأكّدوا من مزاجيته ومحبّته للإرهاب خافوا من أن ينقلب علَيهم، «فجوزيف ـ شارل كليمان» رجل أعمال النظام، حاول الهرب إلى الولايات المتحدة. «وجان تاسي» رئيس الجهاز السرّي، ورأس سياسة «ده ڤاليه» لجأ مع أفراد عائلته إلى السفارة الأميركية، ومن ذلك التاريخ تطوّعت المعارضة في مقاومة سريّة ونَظّمت صفوفها بشكل أفضل، وأصبح مقاتلوها لا يتردّدون عن مقارعة جلاوزة النظام والتصدّي لتعسّفهم، ولا يتورّعون عن استفرادهم وقتلهم أو حتّى مهاجمتهم في عقر دورهم وتصفيتهم تحت جنح الظلام، ممّا زاد من هلع الطاغيّة الصغير، فتحصّن في قصره وسلاحه في متناول يده لا يفارقه، كما توصّل إلى إخفاء رشاشين تحت وسادته، وأجبر زوجته على مغادرة البلاد، وأعاد النظر في صفوف المقرّبين منه، وأطلق عنان منظّماته وميليشيته الإرهابيّة. وفي أيار ١٩٦٨ حوّل «كاب هايتيان»، وهو مرفأ مهمّ على الشاطىء الشماليّ للجزيرة، إلى مقبرة لسكّانها

الذين يبلغ عددهم ثلاثة وثلاثين الف نسمة. أمّا الجيش المنقسّم على نفسه فلم يتمكن من الثورة على الطاغية.

في حزيران ١٩٦٨ أمطرت طائرة مجهولة، القصر الجمهوري بوابل من القنابل، لكن دائماً عمر الشقي بقي، فلم يُصَبْ «ده ڤاليه» بسوء ونجا بأعجوبة. وفي نيسان ١٩٧٠، قصفت إحدى بوارج البحريّة الهايتيّة القصر بالمدافع ثمّ ولّت الأدبار إلى الولايات الأميركية المتحدة، فلم يكن منه إلّا أنّ أمر زبانيته بالمزيد من القمع والسحق، فكانت مجزرة رهيبة. وفي هذه المرّة أوقفه المرض عن متابعة نشاطاته، إذ أصيب سنة ١٩٧٠ بذبحة قلبيّة، هي الأولى في تاريخه الصّحيّ.

ده ڤاليه مُصاب بذبحة قلبيّة:

أصيب «ده ڤالية» في تشرين الأول ١٩٧٠ بذبحة قلبيّة هي الأولى بالنسبة إليه وكانت إنذاراً جدّياً وكافياً لاستدعاء أطبّاء أميركيين، قرّروا أنّ جسم «ده ڤاليه» منهك بشكل عام، من جرّاء إهماله في معالجة داء السكريّ المصاب به منذ زمن طويل. وهذا ما تشهد عليه الحالة المخيفة التي وصلت إليها صمّامات القلب. وفي هذا المجال لم يخفِ الأخصّائيّون الأميركيّون تخوّفهم الشديد بعد الفحوصات الدقيقة التي أجريت ووضع التقرير النهائي. تأكّد «ده ڤاليه» من خطورة وضعه، ففقد أمله، وتعبيراً عن فقدان الأمل، لم يغير شيئاً في طريقة حياته، ولم يحاول متابعة العلاج، وكان بذلك كمن يحاول التعجيل في نهايته ولسان حاله يقول، (أنا غريق فما خوفي من البللِ).

بعد ثلاثة أشهر، أصيب بذبحة قلبية ثانية. ليس هذا فقط، بل كانت مصحوبة بإصابة طفيفة في الدماغ. وفي هذه المرّة أيضاً، تجاوزها ولكن بصعوبة، وأصبح بحالة يرثى لها من الضعف والتعب، فيبدو عجوزاً هرماً. كأنهّ قد تجاوز التسعين من العمر، مع أنّه لم يتجاوز الرابعة والستين من عمره، كما أنّه أضحى مسمّراً في مقعده، نصف مشلول، لا يغادر غرفته إطلاقاً، محاطاً بحراسة مشددة، لكن لم يَفُتْهُ إصدار بعض الأوامر.

«ده ڤالية» يحوّل النظام الى الملكيّة:

في الخامس عشر من كانون الثاني ١٩٧١، طلب «ده ڤاليه» من ممثلي الشّعب، تحويل البلاد من النظام الجمهوريّ، إلى نظام العائلة الحاكمة، وهي واقعيّاً ملكيّة وراثيّة، ممّا سمح للرئيس «ده ڤاليه» بتسميّة خليفته، فوقع اختياره على ابنه «جان كلود». وشرّع هذا الاختيار، باستفتاء شعبيّ «منظّم» جدّاً في ٣١ كانون الثاني.

بعد أقلّ من ثلاثة أشهر قضى «ده ڤاليه» نحبه إثر ذبحة قلبيّة ثالثة وقد أعلن عن موته في ٢٢ نيسان ١٩٧١ في عاصمته «بورث أو برنس»، ومن المؤكّد أنّ الموت قد حصل قبل هذا التاريخ ببضعة أيّام. ربّما هذا التأخير في إعلان الوفاة، سببه الخوف من هياج شعبيّ، أو ربّما لإضفاء بعض المصداقيّة على تنبؤاته وادّعاءاته بأنّ رقم ٢٢ هو رقم التحولات المصيريّة في حياته، بالفعل، بالرجوع إلى تاريخه نرى، أنهّ انتُخب رئيساً في ٢٢ أيلول ١٩٥٧، واستلم الرئاسبة في ٢٢ تشرين الأول من السنة نفسها، ثم رئيساً مدى الحياة في ٢٢ أيار ١٩٦٤.

ترأس مراسم دفن الطاغيّة، المونسنيور «لوك كرانده» بطريرك «بورث أو برنس»، وقد حرص القيّمون على الأمر، بأن يرافقه الرقم ٢٢ المفضّل لديه حتى مثواه الأخير، إذ كان حرس الشرف، أثناء الدفن يتألّف من ٢٢ عسكريّاً و ٢٢ امرأة من الميليشيا النسائيّة فنُقل النعش إلى المقبرة الوطنيّة الكبرى، حيث دُفن في ما يشبه قصراً، كان قد بناه مهندسون فرنسيّين بتكليف من وريثه، الذي ورث عن والده ثروة طائلة كان قد وضعها في المصارف السويسريّة. أمّا للشّعب الهايتي، فقد ترك لهم الشقاء والعذاب وبلاداً تعيسة ومكب نفايات.

«فردیناند مرکوس Ferdinand Marcos»

في قصر منيف على شاطىء البحر، في محيط «هونولولو»، في جزيرة هاواي، يقضي «فرديناند مركوس»، الرئيس السابق لجمهوريّة الفيلبين، وزوجته «إيملدا» حياتهم الهادئة في المنفى، منذ شباط ١٩٨٦، دون أن يتخلوا عن عاداتهم وتقاليدهم، ومن هذه التقاليد، حضور القدّاس، كلّ صباح، في كنيستهم الخاصّة، التي أقاموها في حديقتهم.

صباح كلّ يوم، كان صوت «الفراشة الفولاذيّة» السيِّدة الفلبينيّة الأولى، سابقاً، يرنّ في أرجاء القصر، تصدر أوامرها إلى الخدم والحشم، أو في نقاش مع المحامين المكلّفين بالدفاع عنها وعن زوجها، وبحماية مدّخراتهم «المتواضعة» التي لا تقدّر بأكثر من عشرة مليارات دولار «فقط»، عدا عن بعض الأموال الغير المنقولة من عقارات واستثمارات في الولايات المتحدة وأوروبا، جمعت من عرق الفلبيين ودمائهم خلال عشرين سنة من الحكم، (من الديكتاتورية الزوجيّة) على الأقل، هذا ما يقولوه رجال الحكم الجدد.

إلّا أنّ الولايات الأميركيّة المتحدة، التي بقيت حتى الآن متفهمة لأوضاع «مركوس» وتشمله بحمايتها ـ أوليس أنّه صنيعتها ـ أخذت تتخلى عنه، بعد أن أنهى مهمّته ولم يعد لها فيه نفع. ومسايرة منها للحكومة الفليبينيّة الجديدة اتخذت بحقّه أكثر من أربعين من الاجراءات القانونيّة. فالقضاء الأميركي جمّد أرصدته في المصارف وختمت بالشمع الأحمر صناديقه في كاليفورنيا وحجزت أملاكه المبعثرة في جميع الولايات كما أنّ سلطات «برن» نصحت المصارف السويسريّة، أيضاً بتجميد أمواله، وهو القسم الأكبر من ثروته.

وكان للسيّدة «إيملدا» إلى جانب ذلك أسباب أخرى، للصورة السوداء التي سيطرت على مخيّلتها، أهمّها، تأزّم حالة زوجها الصحيّة في أواخر هذه السنة «١٩٨٨»، فإنّ مركوس لم يعد، سوى خيال لما كان عليه سابقاً قبل مغادرة «مانيلا» وذلك بسبب المصاعب التي يعاني منها في أعصابه، زد على ذلك أنّه في أوائل سنة ١٩٨٨ أُخضع لجراحة إستئصال «الغدد الدرقيّة» المتضخّمة جدّاً، كما كانت له مصاعب في الجهاز البوليّ منذ سنة ١٩٨٠، أُدخل بسببها إلى المستشفى. منذ ذلك الحين، لم يستعد مركوس كامل صحّته التي فقد الكثير منها، وكما يظهر، أنّ ذلك كان له تأثيرٌ سلبيٌّ على نفسيّته وسداد أحكامه وآرائه. ومن هنا كان لا يتخلّى عن رغبته بالعودة إلى دياره «مانيلا»، حيث، باعتقاده سيرُحّب به، ويُستقبل استقبال الفاتحين، علماً بأنّه لو فعل ذلك، لاقتيد فوراً امام المحاكم. وهذا الانحطاط في قواه العقليّة، يعود إلى التاريخ الذي تخلى فيه عنه الأميركيون.

كانت الإشاعات والأقاويل التي تتناوله، تنتقل بسرعة البرق، وبصورة علنيّة أكثر فأكثر، حتى عمَّت جميع شواطىء الباسيفيك. لم يعد يُكتفى بنعته بالكاذب، والغشّاش، والقاتل، والتي برهنت الأحداث على صحّتها منذ ١٩٦٥؛ كما أنّه لم يعد من الكافي، التلذّذ بتفنيد مصادر ثروته، التي جُمعت «بطرق مشبوهة». وكانت هذه الإشاعات، تؤيّد بعشرات الدعاوى بهذا الخصوص، والعالقة أمام القضاء. فقد تعرّفوا إلى ماضيه البعيد، إلى أيّام شبابه، الذي يشوبه الضباب والغموض. فالإشاعات، طاولت إنجازاته وبطولاته، إن في صفوف الجيش، أو في المقاومة خلال الحرب العالمية الثانية فشكّكت في صحّتها. وبالعودة إلى المصادر المختصّة، وفي هذا المجال، الجيش الأميركي، ثبت (أنها بطولات كاذبة لا صحّة لها) وقد وضعت للاستهلاك الشعبيّ فقط؛ وهكذا، سُفِّه وحُقِّر من قبل حلفائه القدامى.

من هو فرديناند مركوس:

يعود «فرديناند مركوس» بأصله إلى عائلة جد متواضعة، من مقاطعة «إيللوكاس» في شمال الأرخبيل الفيليبينيّ. ولدى بلوغه الثانية والثلاثين من

عمره سنة ١٩٤٩، قفز من المجهول إلى المعترك السياسيّ. كان من نوع الذين يقتحمون الدنيا، فيمضون في طريقهم قُدماً، غير مبالين بمن يأخذون بطريقهم، أو بالإساءة التي يتسبّبون بها لسواهم، وكان يجنح بطبيعته نحو العنف والمغامرة، التي ربّما تأصّلت في نفسه خلال الحرب السريّة، التي نشطت في بلاده خلال الحرب وكان من الذين تسكّعوا طويلاً حول القواعد العسكريّة الأميركيّة.

من الصعب وصفه وتحليله؛ لكن ظاهريّاً، كان ماركوس يختلف تماماً عن رجال السيّاسة المحيطين به؛ ولا غرابة في ذلك، لكثرة ما تعاقب على أرض بلاده من مستعمرين وغزاة خلال أربعمائة سنة، أدخلت الكثير من التغيير والتباين في أشكالهم وألوانهم وخصوصاً، في تقاطيعهم. فالاستعمار الإسباني، الذي دام طويلاً، والذي لم يعد ينتهي، ضخّ الكثير من الدماء في عروق الشعب الفيليبيني، الذي يعود بأصوله إلى العرق «الهندو ـ ماليزي»، من بعدها جاء الاستعمار الأميركي في أواخر القرن التاسع عشر، تخلّلها لمدّة سنتين فقط الاحتلال الياباني، بين ١٩٤٢و ١٩٤٤ وأخيراً، رسميّاً، نالت استقلالها منذ ١٩٤٦ . لكنّ الجمهوريّة الفيلبينيّة، بقيت من الناحية السياسيّة والاقتصاديّة، في قبضة الولايات الأميركية المتحدة؛ فهي إحدى (مداجنها) (مزرعة دواجن) كما يسميّها رجال الأعمال الأميركيون والمتواجدة بكثرة في الباسيفيك وأميركا الوسطى والجنوبية.

منذ الاستقلال، تعاقب على رئاسة هذه الجمهوريّة الفتيّة ستة رؤساء قبل وصول «فرديناند مركوس» إلى قصر (مالاكانغ) في «مانيلا» وهم «سرجيو اوسمنا» ثم، «روكساس والبيبديو كيرينو» ثم «رامون ماكسيسي»، «كارلوس كارسيا» ثم «ديوستادو ماكاباكل»، وأخيراً «مركوس»، الذي نعت جميع أسلافه بأنّهم لم يكونوا، سوى خيالات وألاعيب، وكان يرى نفسه أنّه من معدن ومستوى آخر، ولكنّه لم يأتِ بجديد خلال حكمه، ولم يزحزح قيد أنملة السيطرة الأميركية عن بلاده، إلّا أنّه، «والحق يقال» حوّل جميع المنافع والمكاسب إلى مصلحته وجيوبه الخاصّة.

بالعودة إلى أول الطريق، كانت سنتان من انضمام «مركوس» إلى المقاومة، كافية لإيصاله إلى النيابة سنة ١٩٥١، حيث أظهر الكثير من المرونة وفنّ التحبّب والاستحواذ على مشاعر الشّعب، وفي كثير من الأحيان كان يلجأ إلى فنّ النكتة والتوريّة، في خطاباته وأحاديثه، ممّا يثير إعجاب المستمعين وتصفيقهم. وكان يتقمّص دور المدافع عن الحريّات العامّة والديمقراطيّة الجديدة التي تحرّرت من التبعيّة الأميركية. لكنّه في الوقت نفسه، يحرص على تطمين واشنطن، سرّاً، على ولائه وصدق نواياه. ففي البرلمان، كان يحصر جهوده، في حماية الحقوق المدنيّة، وحماية حقوق قدامى المقاتلين وعائلاتهم. كما اكتُشف في شخصه السند الأمين للتجارة والصناعة لكن سرعان ما تغيّرت الصورة، إذ كان يكافح لخلق قواعد صارمة وجائرة على جميع الصعد، وخصوصاً فيما يتعلّق بالإدارة والسياسة.

لدى زواجه سنة ١٩٥٤ من «إيملدا روميلدز» ملكة جمال سابقة، الملقبة «زهرة اللّايات» نسبة إلى الجزيرة مسقط رأسها، والتي أنجبت له ثلاثة أولاد، دخل مركوس في منحى جديد من الحياة السياسيّة. إذ عرفت زوجته كيف تغيّر من مظهره وهندامه، فصقلته وشذّبت من عاداته وتصرفاته ونمّت لديه طموحات جديدة، ولكي ينال إعجابها وتقديرها، كان يحوك المؤامرات والمكائد الناجحة، كما كان يستسلم لسيطرتها ورغباتها حتى في شؤون الإدارة والحكم. أمّا التحوّل الثاني في مجرى حياته، فكان إثر انتخابه نائباً سنة ١٩٥٩، وبعد مدّة وجيزة، انتسب إلى الحزب الليبرالي المتوسط، فقاد المعركة الانتخابيّة، التي أوصلت «ديوسدادو ماكاباكال» إلى الرئاسة.

بعد أربعة سنوات، سنة ١٩٦٥، انتقل إلى حزب الوطنيّين اليمينيّ. أمّا من جهة المعتقدات وتبديلها، فلم تكن تعيقه عند الضرورة. ومن حزبه الجديد، انتقل إلى رأس الدولة، فهل كان ذلك شرعيّاً؟ فمعركة الانتخابات كانت قاسية ودمويّة، سقط خلالها عشرات القتلى ومئات الجرحى، وقد اتّهم الرئيس «ماكاباكال» مركوس بالغشّ والخداع في حينه. ومنذ ذلك الحين، لم يعد يتخلّى عن الرئاسة، فقد تشبّث بها حتى بأسنانه فكان على منافسيه اقتلاعه

منها بالقوّة، وخلال حكمه تحولت جمهوريّة الفيلبين إلى الحكم الديكتاتوريّ الفرديّ.

أمّا الصعوبات التي تخلقها الدكتاتوريات، فهي ذاتها في كلّ زمان ومكان: أزمة اقتصاديّة، تضخّم ماليّ، اختلال في الميزانية والمدفوعات، تراكم الديون الوطنيّة، وصولاً إلى الفقر والبؤس. وبفضل الرئيس «مركوس» عرفت الفيلبين هذه الحالة من الضيق وعدم الاستقرار، بالرغم من أنّ الرئيس مركوس، كان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالولايات المتحدة. لكنّ الجمهوريّة كانت في أيدي حفنة من المحظوظين، أمّا المعارضة فكانت تتألف بأكثريتها من المزارعين، الذين يعانون سكرات الموت، وقد أفلتوا من براثن الشيوعيّة، إذ أنّ الشيوعيّين والشيوعيّة، كانوا قد أبيدوا منذ مدة طويلة، أمّا الكنيسة الكاثوليكيّة فكانت على رأس الهرم، والجيش متواضع وبلا رأس يلتزم الصمت. أمّا مركوس فكان يردّد بمناسبة، أو بدونها، أنّه على استعداد للتضحية بحياته فداءً للوطن، مجرّد كلام «لا يغني ولا يشبع من جوع». فخلال أربع سنوات من حكمه، تفاقمت حالة الفقر، وازدادت التعدّيات وأعمال العنف ولم يبقَ من النظام الديمقراطيّ سوى الاسم. وقد عمد مركوس مرّة ثانية إلى التزوير والفوز بالانتخابات. وهذا كان منتهى السعادة للأميركيينّ ورئيسهم «جونسون»، الذي صرّح في إحدى المناسبات بأنّ مركوس هو ذراعه القويّة في آسيا. أما خليفته «نيكسون» فقد هنّأ نفسه بالعلاقات الخاصّة، التي تربطه، بأكبر مسيطر على أمور آسيا، ولم يطل بمركوس الزمن، حتى حوّل الديمقراطيّة المزعومة، إلى امبراطوريّة، ممّا أوغر صدر واشنطن غيظاً واستنكاراً.

كان الدستور يحرّم على مركوس «تزوير» ولاية ثالثة، وكان نفسه يعرف جيّداً بأنّه لن يستطيع الفوز بها مهما تفنّن في الخداع والتزوير وخصوصاً بعد أن فقدت البلاد المساواة وتكاثرت أعمال العنف. وبغياب الإصلاحات والعدالة تحرّك الشّعب بقيادة الحزب الليبراليّ وعلى رأسه «بنينيو اكينو» الذي نجا سنة ١٩٧١ من محاولة اغتيال، بأعجوبة. وكانت هذه المؤامرة تحمل

بصمات مركوس وقد قضت القنبلة المستعملة على ثمانية قتلى ومئة جريح زاد نقمة الشعب واستنكاره، وزاد من شعبيّة «أكينو» فأصبح مؤهّلاً ا بالرئاسة بأكثريّة ساحقة سنة ١٩٧٣ . ولم يكن من مركوس إلّا أن أفلت مظاهرة، أتت باهتة هزيلة، لكنّها تُبدي طابع مركوس وتحمل بص بوضوح.

منذ ١٩٦٨ أعاد الطلّاب تنظيم حزب شيوعيّ تجديديّ، وضمّوا بعض المناضلين، لا حول لهم ولا قوة، سمّوا أنفسهم الجيش الش الجديد. وكان هذا الجيش بمن وما يضم يتألف من أربعمائة من الجائع والمعروفين من السلطات. ولم يجد «جوآن بونس أنربل» وزير الدفاع كبير في التقاطهم والإلقاء بهم في أعماق السجون ساعة يشاء؛ ممّا شكل حجّة ت استغلّها مركوس، فأعلن الأحكام العرفيّة في ٢١ أيلول ١٩٧٢ . وممّا زا حجّة ماركوس، تَمَرْكُز الشيوعيّين وراء خطوط قتاليّة؛ فبعد هبوط الظّلا انقضّ الجيش بعديده وعدّته على مانيلا العاصمة، فأوقف الطلّاب والسياس والصحفيّين وكلّ من صادفه من المتذمرين أو من غير الموالين، أمّا «ب أكينو»، الهدف الرئيسيّ فقد زُجّ به في قلعة «بونيفاسيو» حيث أمضى ، سنوات قبل أن ينفى إلى الولايات الأميركية المتحدة حيث بقي حتى ٩٨٣، وهكذا حُرِّرت الديمقراطيّة، وتحررت أيدي «فرديناند مركوس».

عُرفت «مانيلا» وما زالت، بأنها «شيكاغو» الباسيفيك، حيث الجر والخروج عن القانون من الامور العاديّة، لكنّها تفاقمت وازدادت نس بشكل يلفت الأنظار.

اعتباراً من تشرين الأول ١٩٧٢، انتقلت عدوى الإجرام والاسته بالقانون إلى جميع الجزر الفلبينيّة التي تحولّت إلى ملاعب لنشاطات ة مركوس، يسرحون فيها ويمرحون، دون رادع أو وازع؛ كما تحوّل، نفسه، إلى زعيم عصابة مسلّحة فتابع عمليات القمع، التي أسماها، التط السياسيّ. فلجم الصحافة، وعلّق نشاطات المؤسسات الدستوريّة والعدليّ كما نقل السلطات الإدارية إلى أيدي العسكريينّ. وفي المقابل، فإنّ ه

الاعمال والاجراءات التعسفيّة أدخلت الطمأنينة والارتياح، إلى قلوب القوى المالية الأجنبيّة، ففتحت المصارف صناديقها. كما تمّت دراسة مشاريع كبيرة ووضعت عشرات التصاميم ممّا يستدعي مليارات الدولارات؛ لكنّ أكثرها بقي حبراً على ورق. أمّا الأموال العائدة إلى الدولة، فقد تبخّرت. وفي مطلع ١٩٧٥، أقامت الصين علاقة دبلوماسيّة مع مركوس. لكن في واشنطن، فإنّ «نيكسون» لم يحرّك ساكناً وكذلك من بعده «جيرالد فورد»، في وجه تحوّل النظام الفليبيني إلى الراديكاليّة. فقط «جيمي كارتر»، حَرِدَ، ولكنّه لم يحتج. وفي الوقت نفسه، تكثّفت عمليات الاعتقال الكيفيّة والمزاجيّة، كذلك التعذيب والإعدام، دون الرجوع إلى القضاء، وبالآلاف، حتى قُضي على المعارضين.

سنة ١٩٨١، تحقيقاً لأحلامه القديمة، وفي خطوة تغييريّة، رفع الأحكام العرفيّة عن البلاد؛ لكنّه قبل ذلك، كان قد فصّل على مقاسه، دستوراً جديداً، يعطيه حق الحكم بموجب قرارات وأوامر رئاسيّة، دون الرجوع إلى البرلمان أو الوزارات المختصة. وهكذا، أصبح بإمكانه، دون خوف، إجراء انتخابات (حرّة ونزيهة) ولكن بالرغم من كلّ ذلك، فقد قاطعتها المعارضة. ودون أدنى شك، نجح مركوس وأعيد انتخابه حتى أيار ١٩٨٧.

لقد عرف مركوس وأتباعه كيف ينقذون المظاهر. فقد أجادوا الإخراج وتوزيع الأدوار، إلى درجة، جعلت «جورج بوش»، نائب الرئيس «ريغن» الذي انتخب حديثاً، يهنّىء ماركوس قائلاً: «نحن نحبّ، سيّدي الرئيس، احترامكم للقواعد والاجراءات الديمقراطيّة». وتأكيداً على حبّه واحترامه للديمقراطيّة والحريّة، سارع إلى إعطاء برهان ساطع على ذلك، ممّا أذهل العالم.

في هذه المرّة، كان أيضاً «صديقه الحميم» «بنينيو أكينو»، السجين منذ ١٩٧٢ في قلعة «بونيفاسيو» زعيم المعارضة، إذ أعاد محاكمته، فحكم عليه بالاعدام سنة ١٩٧٧، ثم عفا عنه، ليعود فينفيه إلى الولايات المتحدة، حيث

أصيب بذبحة قلبيّة. ولدى خروجه من المستشفى، نظّم «أكينو» وقاد حرباً صليبية سياسيّة ضد «مركوس» دامت ثلاث سنوات، ممّا جعل مركوس يفقد صبره فيسمح له بالعودة إلى الفيلبين. فأخذ الطائرة في ٢١ أيلول ١٩٨٣، وفيها صرّح لأحد الصحفيّين المرافقين، أنّ «مركوس» مريض جدّاً، لا يمكنه السيطرة على الأوضاع السياسيّة والاقتصاديّة، وإنّ نهاية هذا الدكتاتور قد قرُبت. ولدى وصول الطائرة إلى «مانيلا»، حدث ما كان يخشاه العديد من الشعب، ولكن ليس بهذه السرعة، إذ لم تكد قدما أكينو تطأ أرض بلاده، حتى سقط صريعاً برصاصة في نقرته! وهذه الجريمة النكراء، نظّمها، الجنرال «فابيان ڤير» رئيس الأركان، ذراع مركوس اليمنى وابن عمّه المخلص.

وهنا لا بدّ من القول، بأنّه عندما سمح مركوس بعودة «أكينو» إلى «مانيلا»، لم يكن من قبيل العدالة أو الرحمة، إنّما لكي يصبح في متناول يده، إذ كان قد ضاق ذرعاً «بثرثرته» وحملته، فيتخلّص منه هكذا إلى الأبد.

مركوس يعاني من امراض عديدة:

لقد قتل مركوس، خصمه العنيد «بنينيو أكينو»، فنفض يديه «ومشى في جنازته». لكنّ الحرب بينهما لم تنتهِ إذ كان «أكينو» قد حرص قبل موته، وكأنّه كان يعلم مسبقاً بأنّه لن يعمّر طويلاً في متناول براثن مركوس وأنيابه، أن يوزِّع على وسائل الاعلام العالميّة، كلّ ما كان يصله عن مركوس من مصادره الموثوقة، ومنها ما يتعلّق بصحّته، وفي هذا المجال نشرت العديد من الصحف، أنّ «مركوس» يعاني من أمراض عديدة، فهو مصاب بقصور في الكبد تمثّل ببقع زرقاء في الوجه واليدين، كما أنّه يعاني من آلام مبرحة في المفاصل مصحوبة بالحمى ومن جرّاء ذلك أُصيب بالضعف وأصبح هزيلاً متعباً كما شوهد منذ أواخر السبعينات، لديه مشاكل في جهاز البول والأعصاب وأصبح منتفخ الوجه كما شوهد عند الرئيس «كندي» و «بومبيدو»، ممّا استدعى تعاطيه كميّات كبيرة من الكورتيزون. ومنذ ١٩٨٠ عمد بعض الأطباء الأميركيين إلى غسل دمه سريّاً في قصره، حيث تتواجد

عيادة حقيقيّة مجهّزة بكلّ ما يلزم وحتى بكلية اصطناعيّة! وقد تفاقم الأمر شيئاً فشيئاً، حتى أصبح بحاجة لاستعمال هذه الكلية لأكثر من مرّة في الأسبوع. علماً بأنّ الاستعاضة عن عمل عضوي في الجسم بعمل اصطناعي، له سلبيّاته ومخاطره، وفي حالة مركوس، ترجمت هذه السلبيّات بصعوبة في المشي والتنقل وكان يشاهد، وكأن مساعديه، يحملونه ويساعدونه على الانتقال، من مكان إلى مكان، داخل قصره.

أخيراً، لوضع حد لآلام مريضهم، وانقاذاً «لحياته الغالية جدّاً» قرّر الأطبّاء أن يزرعوا له كلية طبيعيّة، وما أسهل إيجادها، بالنسبة لمريض من هذا المستوى. فكان مركوس الثاني بعد أخيه في الديكتاتوريّة، «أندروبوف» من رؤساء العالم، الذين أجريت لهم زراعة في الجسم، أثناء حكمهم. وقد أجريت له هذه الجراحة بسريّة تامّة خلال تشرين الثاني ١٩٨٤ . لكنّ غياب مركوس ثلاثة أسابيع لفت أنظار الدبلوماسيّين ورجال الصحافة الأجانب. وبعد شهر من ذلك وفي محاولة لقطع دابر الإشاعات والوشوشات دعا إلى مؤتمر صحفيّ حيث كشف الطاغيّة عن صدره، وتحفّظ عن إظهار ظهره، حيث عملت مباضع الجرّاحين مدّعياً بأنّه قد تغيّب عن الأنظار للنقاهة والمعالجة من صعوبات بسيطة في صدره. ومن الجدير بالذكر، أنّ الرئيس الأميركي «جونسون»، قد سبقه في تمويه مماثل بست عشرة سنة، إذ كشف على صدره أمام رجال الإعلام وأطلعهم على جرحه الناجم عن استئصال المرارة. في الواقع فإنّ هذه الجراحة أخذت أكثر ممّا يلزم من الوقت، ممّا سمح للجراحين باستئصال ورم سرطاني من حباله الصوتية. لكنّ مركوس فاق جميع أقرانه من الحكّام بالكذب والخديعة في إخفاء مصاعبه الصحيّة، وفي هذا المجال كلّف أحد أتباعه بقتل أحد الجرّاحين الاخصائيّين بالمجاري البوليّة، طعناً بالخنجر، لأنه أفشى سرّه لأحد الصحفيّين الأميركيّين. وهو الدكتور«بوتانسيانو باكاي» إذ أفصح له عن طبيعة العمليّة ومكان وزمان إجرائها.

إنّ عمليّة زراعة الكلي التي أجريت «لمركوس»، لم تُنهِ مشاكله الصحيّة.

فقد عالجت إحدى مشاكله فقط، لكنّه، كسواه ممّن يحصلون على زراعة في جسمهم، أصبح رجلاً من زجاج منذ تشرين الثاني ١٩٨٤، وعليه أن يبقى تحت رقابة طبيّة صارمة، وأهمّ ما هو عرضة له، الأورام السرطانية.

إنّ اغتيال زعيم المعارضة «بنينيو أكينو»، كان له آثارٌ سيّئة جدّاً وأدخل البلاد في أزمة خطيرة، كما جاء في تقارير السفراء الأجانب، بالإضافة إلى أنّ الطاغيّة، قد دخل في مرحلة من العجز المبكر في الثامنة والستين من عمره، ولم يعد بإمكانه سدّ الثغرات التي تكاثرت، على جميع الصعد.

من هنا، ولأول مرّة، أقحمت الولايات المتحدة أنفها في الشؤون الداخليّة «لمانيلا»، فبعد تقويمها للأمور، رأت، أنّ الطاغيّة العجوز، لم يعد يشكّل ضمانة كافية للقاعدتين الضخمتين للقوات الجويّة الأميركية، الباهظة التكاليف.

بداية نهاية طاغية:

جيش الشّعب الذي بدأ هزيلاً، ازداد قوّة، لدرجة أنّه لم يعد باستطاعة جيش مركوس مواجهته والتصدّي لتحركاته. كما أنّ البطالة والفقر عزّزا موقف المعارضة، فأرتال الفقراء تحتلّ الأرصفة في «مانيلا»، ممّا أثار الخوف والحذر في صفوف المستثمرين الأجانب، فغادروا البلاد حفاظاً على أعمالهم وأموالهم.

أصبحت الفيلبين البلد الأكثر فقراً في جنوب شرقي آسيا، فهي ترزح تحت ديون طائلة بلغت خمسة وعشرين مليار دولار، كما أنّ صادراتها من الموادّ الخام، تقلّصت بشكل مفزع، ممّا جعل «واشنطن» تطالب بإجراء إصلاحات على الفور، الامر الذي أربك الطاغيّة العجوز، ولم يكن لديه من علاج، سوى اللجوء إلى سلاحه المفضّل الذي طالما استعمله بنجاح، الإنتخابات «المنظمة». ولكن في هذه المرّة، ولشدّة استغرابه ودهشته، في اللحظة الأخيرة، برزت له منافسة، غير منتظرة «كورازون أكينو»، أرملة الشهيد «بنينيو أكينو»، الذي اغتاله مركوس كما مرّ معنا.

لكنّ مركوس استعاد جأشه، فصرّح بأنّه سيشقلبها ويسحقها. هذا، ظنّاً منه بأنّها لا تشكّل حجر عثرة في طريقه، نظراً لضعفها وفقرها وعدم خبرتها. وفي مجال التعليق على ترشيح «كورازون أكينو» لنفسها، أطلق رائعته الأدبية الفريدة:

«إنّ مكان النساء في المخادع فقط»

لكنّ هذه السيّدة، الضعيفة، العديمة الخبرة، تخلّت عن الدور الذي أراده لها مركوس، وتفرّغت لمصارعته، فصرعته، وبطحته. لقد صرعت سيّد الفيلبين المطلق، الذي استبدّ بالشعب واستأثر بالثروات على مدى عشرين سنة، رغم غشّه وتزويره، ورغم مساعدة لبوءته غير المروّضة، التي لم تتورع عن الشتم واللطم وشراء الأصوات والتهديد وإطلاق قتلتها وبلطجيتها. لكن رغم كلّ ذلك، توجّهت الأنظار إلى «فلتة الشوط» «كورازون أكينو». فالشّعبُ، ورجال الأعمال، كما الكنيسة والجيش ينظرون إليها بإعجاب وأمل. ومن جهّتها فكانت تعرّض بمركوس وتوجّه إليه أصابع الإتهام، في جميع المحافل واللقاءات، فتنعته وتعيّره بالكذب والغشّ والجبن والقتل كما وعدت الشّعب، بأنّه «في حال نجاحها» ستحيله إلى القضاء وتحاسبه على كل جرائمه. في ٧ شباط ١٩٨٦، تأكّدت «كورازون» من فوزها في المعركة، لكنّ المزوّر الأكبر، زعم بأنّه الفائز والمنتصر، فكانت كذبة العمر، أضافها إلى تاريخه المجيد، لكنها كانت أضخم من أن تبتلع بالسهولة المعهودة. وفي واشنطن لم يتمكّن، «رونالد ريغان»، في هذه المرّة، من إغماض عينيه والوقوف مكتوف الأيدي.

أمّا «إيميلدا» فعمدت إلى توزيع سخرياتها اللاّذعة ونكاتها البذيئة بحق «كورازون»، وزعمها الانتصار. كما طلبت برقيّاً أحد عشر ثوب إحتفالات، لدى أكبر دور الأزياء في العالم، لكي تشارك بشكل لائق في تتويج زوجها العظيم المقرر في ٢٥ شباط ١٩٨٦ . لكنّ مركوس شخصيّاً، لم يكن واثقاً من النتائج، إذ كان على معرفة تامّة بأنّه ذهب بعيداً، وبأنّ الولايات المتحدة لن تبقى على الحياد، فيما لو اغتصب الحكم، كما فعل سابقاً.

خلال الثمانية عشر يوماً، التي تفصل بين الانتخابات «والتتويج»، لازم القصر مختبئاً وراء فصائل النخبة من جيشه. لكنّ الهدير المتصاعد من الجماهير الغاضبة التي تجوب الشوارع ليلاً نهاراً، كانت تنبئه بالخبر الصحيح، كما أنّ إثنين من أهمّ المقرّبين إليه «جوان بونس أنربل» وزير الدفاع، «وفيدل رموس» رئيس الأركان، انضما إلى منافسته، كذلك سلاح الطيران، لم يخفِ مساندته «لكورازون». وفي ضربة قاضية اختلط الشّعب بالثلاث فرق المتمركّزة حول ملجأ الطاغيّة، فانضموا بدورهم إلى المتظاهرين بعدّتهم وعديدهم.

في الرابع والعشرين من شباط ١٩٨٦، اتّصل مبعوث «ريغان» (السيناتور «بول لاكسالت» سيناتور ولاية نيڤادا، وهو من أصل فرنسيّ) بالرئيس المخلوع ودار بينهما الحوار التالي: هل نمت جيّداً هذه الليلة؟ فأجاب مركوس لقد أمضيت ليلة بيضاء، إنّني أخشى بأن تجتاح الغوغاء القصر، ماذا عليّ أن أفعل؟

ـ إنّ الرئيس ريغان لا يحبّذ فكرتك بمشاركة «كورازون» في الحكم لأنّها غير عمليّة. ولكن الولايات المتحدة، ترحّب بك وبأفراد عائلتك على أراضيها.

ـ سيدي السيناتور بمَ تنصحني!؟

ـ اقلب الصفحة، اقلبها دون مشاكل، لقد دقّت الساعة. دقّت! فقرة جديدة أحسّ مركوس بأحشائه تتمزّق فعليّاً لقد دقّت الساعة، لأنّه علم، بأنّ الولايات المتحدة، قد أوعزت إلى قيادة الجيش الفلبيني بالإنحياز إلى السيّدة «أكينو»، وبأنّه من غير المستحسن اللجوء إلى العنف وأنَّهُ لن يُنظر بعين الرضى، إلى كلّ من يساعد الرئيس الفاشل. وقد بُعثت بنسخة عن هذه البرقية إلى مركوس. فلم يبق له من مخرج سوى ترك السّاحة والاختفاء عن الأنظار. وهذا ما فعله، فقبيل الساعة (٢١) الثلاثاء في ٢٥ شباط، شاهد مئات الآلاف من الفليبيين المحيطين بالقصر، أربع طائرات هليكوبتر، تحطّ في باحة القصر الداخليّة لبضع لحظات فقط، ثم تطير وقد جعلت وجهتها

القاعدة الجويّة الأميركيّة «في كلارك فيلد»، وقد حملت الملك الدمويّ وملكة الاستعراضات، وقد ولّيا الأدبار هاربين دون تناول طعام الظهيرة. (وقد ارتدت إيملدا أحد الأثواب الاحد عشر التي أمرت بها، وكان الثّوب الأبيض، ولم تنسَ أن تأخذ معها ستين شكلة «بروش» صنعت من أندر وأغلى الأحجار الكريمة). من القاعدة الجويّة، إلى جزيرة «غوام» في المقاطعة الأميركية، حيث أُدخل مركوس فوراً إلى المستشفى يعاني تعباً وهبوطاً عامّاً. وهنا لا بدّ من الإعتراف بأنّ مرض مركوس لعب الدور الأساسيّ في هذه القضيّة، فكان أضعف من أن يقرّر بنفسه، فاستسلم دون قيد أو شرط، إلى رغبة الرئيس الأميركي ريغان، الذي كان في تلك الحقبة من الزمن، لا يزال مؤهّلاً، صحيّاً، وبالتالي عقليّاً لاتخاذ قرار حاسم من هذا الوزن.

وهكذا نهاية الظالمين.

«سكو توري Sekou Touré»
«غوام نكروما Kwame Nkrumah»
«عيدي امين دادا Idi Amin Dada»

من جملة ما يُروى للأطفال الصغار البسطاء بالطبيعة، نظراً لصغر سنّهم وقلّة خبرتهم، كذلك للشعوب النامية المحدودة الثقافة، أنّ الكواكب تضيء، فوق الأمكنة، التي يولد فيها الأمراء. ومن المفروض، طبعاً، أن تسبق ولادة أميرما، بعض الأساطير، والظواهر الغير القابلة للتفسير. ولترسيخ هذه الخرافات والأساطير في العقول البريئة، يُفترض حدوث شيء ما، أو بروز شخص غير عاديّ بناحية من النواحي، وجميعها من قبيل الصدفة فقط.

أمّا وصول الحكّام إلى السلطة فلا تسبقه، أو ترافقه عادة، أسطورة أو ظاهرة غير عاديّة. لكن من الطبيعي أن يكون لوصولهم، سبب أو أكثر: ظروف سياسيّة معينّة، اقتصاديّة، ماليّة واجتماعيّة كما أنّ للعوامل الحزبيّة أو العائليّة أو القبليّة فعاليتها، وأنّ بعض هؤلاء الرجال، يتقدّمون من الجماهير بصفة المصلحين أو الفاتحين، والبعض الآخر، يلعب على الحبلين، فيدّعي الصفتين معاً، فإذا رافقه بعض النجاح في مهمّته، فستكون مرحلة مشابهة لشهر العسل، بينه وبين الشعب؛ لكن سرعان ما تنتفخ أوداجه فيمتلىء غطرسة وغروراً، فيتصرّف كقيصر، أو، «طاغية».

بعض هؤلاء الأوتوقراطيينّ، كانوا، أو، أصبحوا مرضى. وفي مطلق الأحوال فإنّ سيرتهم الصحيّة، ستعطي تفسيراً واضحاً، لتصرفاتهم الشاذّة. ومن هؤلاء الحكّام الأفريقيين الثلاثة: الغيني، «سكوتوري»؛ الغاني، «غوان

نكروما»؛ والأوغندي، «عيدي امين دادا».

لم يتوانَ التاريخ عن دراسة وتحليل الأسباب التي جعلت غينيا، سنة ١٩٥٨ البلد الأفريقي الأوّل، الذي رفض التعاون والوسيلة التي اختارتها بقيّة البلاد الأفريقية الفتيّة للتخلّص بهدوء من سيطرة المستعمر الفرنسي السابق.

وقد تبينّ للباحثين، أنّ ثلاثة عوامل، حوّلت هذه المياه الراكدة، إلى حالة من الغليان: اكتشاف الثروات الطبيعيّة والمناجم الغنيّة؛ والنمو المدهش للتجمّع الديمقراطي الأفريقيّ، الذي ألّفه سنة ١٩٤٦ «فيلكس هوبوآت ـ بوانيي» بمساعدة الحزب الشيوعيّ الفرنسيّ؛ حتى عاد فشمله برعايته أحد الوزراء الفرنسيينّ عبر البحار، الذي أصبح فيما بعد الرئيس «فرنسوا ميتران». أمّا العامل الرئيسيّ في هذا التصرف الثوريّ، فهو الظهور الفجائي لشخصية فريدة «أحمد سكوتوري» وهو زعيم قبيلة، عرف كيف يحرّك العواطف الشعبيّة، ويستغلّ الظروف المؤاتية. فمن زعيم قبيلة، إلى زعيم لكلّ القبائل، وبالتالي إلى زعامة البلاد. ومنذ أن قفز إلى الحكم، أطلق ميكانيكيّة الحزب الواحد وما يتّصف به من التعصّب العقائديّ، والعنف البوليسيّ المبرمج، في مواجهة البورجوازيّة المعارضة التي أقلقها حالة الفقر التي سيطرت على البلاد، بالرّغم من ثرواتها الطبيعيّة التي كانت تذهب إلى الجيوب الخاصّة. ومن جرّاء التّسترّ ونفي الحقائق اليوميّة، وصل الأمر بالطاغيّة إلى ارتكاب أبشع الأغلاط. فكان يرى في كل اجتماع لأكثر من شخصين، مؤامرة تُحاك ضدّه، فيعمد إلى الاعتقال والتعذيب. لكن سرعان ما عاجله الموت إثر انفجار صاعق في الشريان الأورطيّ. وبعد موتّ الطاغيّة بأسبوع فقط، جرى انقلاب عسكري أطاح بكل ما بقي من آثاره. وهذا مثال صارخ لما يتسبّب به الحكم الفاسد.

من هو احمد سكوتوري:

ولد أحمد سكوتوري، على الأرجح سنة ١٩٢٢ في «فاراناه». وهي دسكرة على الحدّ الفاصل بين الصحراء والأدغال، وتبعد ما يقارب الخمسمائة كيلو متر من «كوناكري». والده، «الفاتوري»، قصّابٌ، رزق من زوجته

الأولى، التي ماتت أثناء وضعها، خمسة أطفال. ولدى زواجه مرّة ثانية، رزق ثلاثة ذكور، منهم «سكو» الذي أصبح مشكلة العائلة، إذ كان خبيثاً مشاكساً يعتدي على إخوته وأخواته، فيستولي على أشيائهم ويضربهم، وخصوصاً على من هم أصغر أو أضعف منه. وقد لازمته هذه الصفات وأهمّها حبّ التملّك حتى نهاية العمر.

كان يسّميه مواطنوه باللّقيط، إذ كان يستنكف عن توضيح أصله. وكان في بعض الأحيان، عند اللزوم، يدّعي بأنّه ابن زعيم سوداني كبير يدعى، «ساموري توري»، تقول بعض الأساطير أنّه كان تاجر رقيق. والبعض الآخر، كان ينسب إليه مقاومة المستعمرين. وبالإختصار، كانت هذه المرحلة من حياته مجهولة وغير واضحة المعالم. بالنسبة للعلم، فلم يحصل على أكثر من شهادة العلوم الإبتدائيّة من مدرسة القرية، في الرابعة عشر من عمره. وتبريراً لعدم متابعته الدّراسة إلى أبعد من ذلك، كان يثور فيلعن ويشتم مدرسته القديمة، متّهماً إيّاها بمنعه من الإلتحاق بالصفوف العليا. ولكن من الأرجح، أنّه قرار والده، الذي ألحقه كصبيّ لأحد الحدّادين ومن ثم خرّاط، وقد احتفظ بضغينة، لا تفسير لها ولا مبرر ضدّ معلّمه. وعندما اشتدّ ساعده، وطال باعه، وتنفيساً لحقده وضغينته، أعدم ابن معلّمه، الخرّاط السابق، «الدكتور ماريكا» بتهمة مزورة، وحكم جائر ومعدّ له مسبقاً سنة ١٩٧١، بعد وصوله إلى الحكم المطلق.

طُرِد من مدرسة الصنائع بسبب المشاجرة وعدم الطّاعة. وفي الثامنة عشر من العمر بعد القيام بكثير من الأعمال اليدويّة الصغيرة، التحق كأجير بسيط، بشركة «النيجر الفرنسية» وسنة ١٩٤٤ التحق كمساعد في مصلحة البريد، وانتسب إلى الحزب الشيوعيّ، وكان يوحي بالنشاط في الإجتماعات النقابيّة، ممّا سمح له بالوصول إلى مركز سكرتير عام لموظفيّ البرق والبريد. وكانت هذه خطوته الأولى في السياسة، ممّا أفسح له الطريق إلى المؤتمر الكبير للعمّال في باريس، ثم أبواب الدول الشرقيّة، فكان يزورها وكأنّه من أهلها. في «غينيا»، مسرح نشاطه، أصبح من المحرّكين للإضرابات والمظاهرات.

فعرف السجن لبضعة أيام، وطُرد من عمله في إدارة البريد في ٢٥ كانون الثاني ١٩٥١.

ومنذ ذلك الحين، أفلت من عقاله، ولم يعد له من عمل سوى إزعاج المؤسسات الرسميّة والتهجّم على الشركات الاستثمارية وخلق المشاكل والمصاعب في وجوههم. كلّ ذلك، بحجة البروليتاريّة وتحصيل حقوق العمّال وتحسين أحوالهم الماليّة والاجتماعية. من هنا عقدت عليه الآمال وعُرف كأحد قادة الشباب الأفريقي المناضل. وأخذ يتّجه أكثر فأكثر نحو الوطنيين المناضلين. سنة ١٩٥٦ انتخب نائباً غينيّاً في التجمّع الوطنيّ الفرنسيّ. ومن هذا «المدرج»، أصبح سكوتوري معروفاً في المحافل العماليّة والنقابيّة. ثم في نقلة جريئة أطلق شعار: «الكونفيدرالية» الأفريقية للعمّال المؤمنين. وفي هذا المجال كان يزور باريس من وقت لآخر، حيث يعتلي منصّات خطابيّة. وأقحم نفسه في مجالات السلطة والتأثير على الرأي العام، وجمع ثروة لا بأس بها.

لدى عودته إلى بلاده، تزوّج، ولكن يبدو أنّه لم ينجح في هذا الميدان، إذ كانت زوجته المفضّلة، التي يكرّس لها كل جهوده، هي السياسة وأحابيلها وحرتقاتها. فعرف كيف يستفيد من الفرص المتاحة، ففرض نفسه: مساعد رئيس مستشارية الحكومة، ورئيس بلدية «كوناكري» سنة ١٩٥٧، وبسرعة فائقة استولى على الحكم في البلاد. وللمساعدة على فرض سياسته على البلاد، ألّف نوعاً من «الكومندوس» جمعهم من أعرق السّفّاحين والمجرمين. ومن حينه بدأ عهد الإرهاب، فأوّل ما كان يُصاب به المعترض أو المعارض، الضرب بالهراوات والقضبان الحديديّة. وفي الختام أسكت مناوئيه وتخلّص (إلى الأبد) من منافسيه.

لدى عودة الجنرال «ديغول» إلى الحكم، لمعالجة القضيّة الجزائريّة، لعب «سكوتوري»، ظاهريّاً ورقة التّجمّع «فرنسا ـ أفريقيا»، ولكن لبعض الوقت فقط. وعندما قام الجنرال «ديغول» بجولة على المستعمرات الفرنسيّة القديمة، زار بطريقه «غينيا»، فشعر «سكوتوري» بأنّ ساعته قد حانت ليفرض نفسه.

ففي الخامس والعشرين من آب ١٩٥٨ وفي إحدى الإجتماعات، تصدّى للمشروع الذي طرحه الرئيس الفرنسي فقال: «إنّنا نفضّل الحريّة مع الفقر. ولا نريد الثراء بدون كرامة».

بهذه الكلمات القليلة، وقع الطلاق بالثلاثة، وخلال دقائق قليلة، انقلبت الأمور في «غينيا» رأساً على عقب، وأصبح «سكوتوري»، «مرّة واحدة» شخصيّة تاريخيّة. أوليس، أنّه أنقذ شرف أفريقيا في وجه مستعمريها البيض؟

استُقبل «سكوتوري» في الأمم المتحدة، في نيويورك، استقبال الأبطال الفاتحين. وكما بسحر ساحر، فُتحت أمامه أبواب الحكّام ورؤساء الدول، وكأنّه كان ينتظر هذه اللّحظة بفارغ الصبر، فزار على التوالي: الرئيس الأميركي «ايزنهاور» ورئيس الوزراء البريطاني «ماك ميلن». كما زار، الرئيس السوفياتيّ «نيكيتا خروتشوف». وما الغريب في الأمر؟ ألم يصبح ندّاً لهم؟ وبهذا حلّت عقدة الزنوج التاريخيّة «عقدة الشعور بالنقص» تجاه البيض.

وفي تحليل سريع لتصرّف «سكوتوري»، رأى علماء النفس، دون كبير عناء، حبّ التسلّط والنرجسيّة. وقد رأوا، برفضه العنيف للإقتراح المطروح، بالإنضمام والتعاون، يصيب بلاده من الخير والبحبوحة ما يصيب بقيّة البلاد بما فيها فرنسا ذاتها. لكن بتصرف «سكوتوري» الفظّ، كان يعمل لإرضاء نفسه والشعور بأنّه من مستوى «ديغول». فأطلق لنفسه العنان، وبهذا عبّر عن حبّه للقوّة ورغبته الملحّة في التسلّط والإمتلاك، وذلك نتيجة طفولته البائسة، والاضطهاد الذي عاناه من قبل والده ومعلّميه، وقد شكّلت هذه الرغبات والصفات فيما بعد، عوامل سلبيّة ومعاناة مريرة للشعب الغيني.

بالكاد ولدت الجمهوريّة الغينيّة، حتى أعلن عن لون حكمه: الديكتاتوريّة. فمنذ كانون الثاني ١٩٥٩، ألغى حق الإعلام، فلا صحف، ولا مجلّات، كذلك الإذاعات؛ كما علّق حقّ ممارسة المحاماة، وكتّاب العدل، وحجّاب المحاكم. كذلك هدم هيكليّة النظام الإقتصاديّ السابق،

دون أن يوجد له بديلاً مناسباً، ولا حتى، النظام الإشتراكيّ الذي كان ينادي به، قبل الوصول إلى الحكم. وقد سيطر على البلاد جوّ من التآمر والمؤامرات الحقيقيّة، أو الخيالية، ممّا سمح للطاغيّة، الذي خرج حديثاً من البيضة، بالضرب، حيثما يشاء، وعندما يشاء.

اخترع «سكوتوري» لنفسه شخصيّة، مهمّة بنظر خدمه وحشمه. فأصبح كالطاووس إذا مشى، فيرفع رأسه ما أمكنه، ويبرز ذقنه. أمّا إذا حكى، يصّر على تأكيد نظرياته، بإعادة الكلمات عشرات المرّات، بأعلى صوته. وقد حدّد لنفسه نظاماً لا يحيد عنه؛ فيستفيق باكراً جدّاً، ولا يسمح لنفسه بأكثر من خمس أو ستّ ساعات من الراحة، ليظهر ويدّعي بأنّه لا يتعب. ولهذا كان دائماً، عصبيّ المزاج، متوتر الأعصاب. أمّا في الإجتماعات الشعبيّة الكبيرة، التي كان يدعو إليها ويحضّر لها بعناية تامة، فكان يتكلّم، ويتكلّم لساعات عديدة دون كلل، بالرغم من ملل الجماهير وانفضاضها من حوله زرافات ووحدانا. ولم تفته هذه الظاهرة، ولمداواتها فقد عمد إلى نشر جنوده، وقد «برطموا شفاههم الرقيقة» وتسلّحوا بالهراوات النحيفة، و «النظّارات الشرلوك هولمزية السوداء»، حول ساحة الاجتماع، فيرّحبون بالقادمين بابتسامات عريضة يحرصون فيها على إبراز نواجذهم الناصعة البياض، ويمنعون الخارجين من مغادرة السّاحة، قبل انتهاء الاحتفال، وذهاب الرئيس المحبوب جدّاً.

في اللّقاءات الخاصّة، كان يتحدث بكثير من الزلاقه. وكان يقاطع الآخرين دوماً دون اكتراث أو مراعاة آداب الحديث. فلا يكاد يخرج من موضوع حتى يسارع للخوض في سواه. وهو دون شكّ، يعاني من حالة متقدّمة في مرض الثرثرة. كما أنّه يكثر من التأشير والتلويح بيديه. وفي أوّل عهده بالحكم، كان يثير عواطف الشّعب بعباراته الوطنيّة الثوريّة، ووعوده الطنّانة الرنّانة، التي حملتها الريّاح بعيداً وبقيت دون ترجمة عمليّة. لكن لم يمضِ وقت طويل، حتى ملّ الشّعب الخطب والوعود، والتي لم يغفل في إحداها من مهاجمة البورجوازية في بلاده، مطلقاً التهديد والوعيد، كذلك كان

يخصّ المعارضة والمعارضين، بسيل من الشتائم والاتهامات. وقد صرّح أحد المتيمّين المعجبين به السيد «أدامولكون» أنّه أراد في أحد الأيّام، تصفية المعارضين البورجوازيين جسديّاً، وهكذا اعتمد طريقة التطهير .والإرهاب لإعمار الوطن.

عندما ضاقت سجون بلاده بنزلائها، اعتمد نظام المعتقلات. فأنشأ الدفعة الأولى سنة ١٩٦٣ . وذاع خبرها في أرجاء العالم، ممّا جعل الأوساط الغربية والإفريقية تتّخذ خطوات تحفظيّة، وتوقف التعامل معه. وكان أوّلها الولايات المتحدة الأميركية. وكرّت السبحة، فلم يبقَ من المتعاملين معه سوى الدول الشرقيّة، الطامعة في ثروات بلاده المعدنيّة. وفي «كوناكري» كانت، تحاك ضده المؤامرات. وقد نجا من محاولة اغتيال، بأعجوبة. كما اندفع عصيان مسلّح في تشرين الثاني ١٩٧٠، بمساعدة البرتغال لكنه باء بالفشل، وسمح للديكتاتور المتعطش للدماء بإرواء ظمأه، دون محاكم أو عدالة. فقط حصلت مذابح رهيبة في جميع المدن والأقضية حصدت عشرات الآلاف من الضحايا، فرزحت البلاد من الهول والهلع. وفقد الطاغية ثقته بجميع معاونيه والمقرّبين منه فتخلّص منهم، وأتى بأقاربه وأسند إليهم المناصب الرفيعة.

وقد جاء في تقرير منظمة العفو العالميّة، بعد زيارة مفاجئة «لغينيا» قامت بها خلال مرحلة التوقيف الجماعيّة بين ١٩٧٠ و ١٩٧٦، بأنّ المعتقلات، لا تكاد تفرغ بالتصفية، حتى تعود لتعجّ مجدّداً، إثر حملات جديدة. وقد أدانت هذه المنظمة الإنسانية، أساليب التعذيب المستعملة لإستخراج اعترافات وأسماء معارضين جدد. وكانت في أكثر الأوقات، كاذبة ومخترعة للتخلّص من العذاب فقط. كما أوضح التحقيق عن وجود وسائل تعذيب رهيبة في معتقل «بوريو» «بكوناكري»، ابتداءً بالصدمات الكهربائيّة على الرأس والأطراف والأعضاء التناسليّة. كذلك تُمارس الحروق والضرب والربط بالأسلاك المعدنيّة القاطعة. كما ورد في نفس التقرير، أنّ أعمال تعذيب أقسى وأمرّ، كانت تمارس في معتقل «كيم بوريما» في «كانديا».

وفي تحقيق جديد لمنظّمة العفو الدولية سنة ١٩٨١، جاء فيه. أنه منذ

الاستقلال في ١٩٥٨، اكتشف «سكوتوري» أربع عشرة مؤامرة ضدّ الثورة جميعها مزعومة وليست أكثر من غطاء للمزيد من أعمال الاعتقال والتصفيّة التي طاولت عشرات المئات من المواطنين، ممّا أثار الرأي العام في فرنسا وجمهورية ألمانيا الفدراليّة. فحملة الاعتقالات الأولى، إثر الهجوم المسلّح الفاشل على «كوناكري»، الذي قامت به قوّات برتغاليّه وبعض المنفيين الغينيّين سنة ١٩٧٠ . وكان بين الموقوفين ستة عشر وزيراً، والعديد من حكّام المقاطعات وكبار الموظفين، كذلك اكثرية ضباط القيادة في الجيش الغيني، وغيرهم من التجّار والمزارعين. أمّا الحملة الكيفيّة الثانيّة فكانت سنة ١٩٧٦ بعد محاولة ثانية للتخلّص من الطاغوت الدموي «سكوتوري».

وقد جاء في تحقيق لاحق، بأنّ عدداً كبيراً من الغانيين اختفى ببساطة. ومن المعتقد أنّهم أُعدموا سرّاً في أماكن بعيدة عن الأنظار. كما أنّ البعض الآخر، كان ضحيّة «الصوم الأسود». وهذه الطريقة، تقضي بحرمان الضحيّة من الماء والغذاء، حتى الموت، الذي لا يحصل، قبل خمسة عشر يوماً أو أكثر، يبقى خلالها الضحيّة بكامل وعيه، وكانت شائعة الاستعمال، في معتقل «بوريو».

ومن المفارقات «المضحكة المبكية» أنّه في عزّ موجات الإرهاب والتقتيل التي تسيطر على «غينيا»، رأت فرنسا أنّه من الأنسب عقد صلح مع الطاغيّة سكوتوري في عهد الرئيس «ڤاليري جيسكار ديستان» الذي قام بخطوات في هذا السبيل. لكنّها تعثّرت لسبب أو لآخر. ثم دُعي لزيارة باريس خلال أيلول ١٩٨٢، فاستقبله «كصديق» الرئيس فرنسوا ميتران في الإليزه: حيث سأله بعض الصحفيين، عن أعمال الإرهاب والتقتيل الجماعي. ورغم الأدلّة والبراهين، لم يخجل، بل بكثير من الوقاحة والإصرار انكرها جملة وتفصيلاً، زاعماً أنّها ليست سوى أكاذيب حيكت للنيل من شخصيته. وقد فاته أنّ التاريخ لن يجاريه في هواه. فلدى موته في ٢٦ آذار ١٩٨٤ تبارى الغينيون في تهشيمه والنيل من سمعته معدّدين «مآثره وإنجازاته التي لا تنسى».

وفي محادثات أُجريت مع بعض الأطباء الغربيين، الذين مارسوا عملهم

في «غينيا» خلال حكم الطاغيّة، أجابوا فوراً أنّ تصرفاته كانت غير معقولة ولا يقبل بها أي ضمير. كما يفيدون بأنّه كان مصاباً بداء الزهري «السفلس». ويؤكّدون على صحّة ذلك ويشرحون الأوضاع والمصاعب التي سبقت موته. وفي الولايات المتحدة في أوائل ١٩٨٤، كان «سكوتوري» يشكو في كثير من الأوقات، من آلام بسيطة مبهمة، لكنه لم يأتِ مطلقاً على ذكر مصاعب في القلب، أو من ارتفاع في الضغط.

في الثالث والعشرين من آذار، خلال مؤتمر لنقابيي إفريقيا الغربية، شكا سوكوتوري من آلام حادّة في ظهره، مصحوبة بتعرّق واستفراغ (تقيّؤ) شخّصه الأطباء، بذبحة قلبية حادّة. وفي ليل ٢٤ـ ٢٥ آذار، نقل الطاغيّة على متن طائرة ـ مستشفى الملك فهد عاهل العربيّة السعوديّة، إلى مستشفى «كليفلاند» «أوهايو العموميّة» في الولايات الأميركية المتحدة. لدى وصوله شخّص الأطبّاء عدّة إصابات: انقطاع أحد شرايين الأوسط، انسداد شريان آخر، وضغط كبير على القلب. باشر الجرّاحون عملهم فوراً، إلّا أنّ القلب المتعب توقّف نهائياً، ولم تُجدِ معه وسائل إعادته إلى العمل. وفي تقرير الوفاة أكّد الأطباء الأميركيّون، أنّ انقطاع شريان الأورط هو نتيجة إصابة مزمنة بداء السفلس.

لدى موت «سكوتوري»، ترك بلاده، «غينيا»، في حالة اقتصادية يرثى لها، رغم أنها تحتوي على ثروات طبيعيّة لا يستهان بها. فهي تحتوي على ثلثي (٢/٣) الاحتياط العالميّ من «البوكسيت»، كما أنّ صادراتها من مادة «الألومين» (الشبّة) تؤمن لها (٪ ٨٠) من مدفوعاتها الخارجيّة كما أنّ احتياطها من الحديد، لا يقلّ أهميّة. زد على ذلك مناجم الماس الّتي تنتج «ثلثي المنتوج العالمي من الجواهر، يضاف إلى كلّ ذلك، خيوط ذهب وأورانيوم. فلا عجب إذاً أنَّ بعد موته بأسبوع فقط، أطاح انقلاب سريع بكلّ ما بقي من آثار حكمه ونظامه، الذي بناه منذ خمسة وعشرين سنة على جماجم الأحرار والأبرياء.

وفي منشور وُزِّع في الثالث من نيسان ١٩٨٤، أعلن «لانسانا كونت» رئيس اللجنة العسكريّة للإصلاح الوطنيّ، قائلا: «أنّه لن يزعج بعد الآن في

غينيا أيّ شخص، بسبب أفكاره أو معتقداته. علينا تقويم الاقتصاد الوطنيّ وتحريره واستغلال الموارد الطبيعيّة بطريقة سليمة ومدروسة، وتشجيع المؤسسات الخاصّة وضمانة المبادرات الفرديّة». كما أنّه أفرج عن جميع المساجين والمعتقلين وتعهد العسكريّون بإرساء ديمقراطيّة حقيقيّة، تمنع في المستقبل وجود حكم دكتاتوري فرديّ.

وهنا لا بدّ من ترديد السؤال القديم الجديد، الذي حيرّ عقول العلماء ولم يزل دون جواب مقنع: «لماذا في هذه الأنظمة الإجتماعيّة الهزيلة، يسقط الحكم، من وقت لآخر، بين أيدي مثل هؤلاء الرجال الخطرين؟»

«غوام نكروما Kwame Nkrumah»

عندما ازدهر موسم الاستقلالات في إفريقيا السوداء في أواخر الخمسينات، تميّزت إحدى هذه الجمهوريّات الفتيّة بين أهمّها، وهي «غانا»، التي كانت تدعى سابقاً شاطىء الذّهب، والتي رزحت طويلاً تحت الإستعمار البريطاني.

بلاد مناجم كبيرة، تملك احتياطاً كبيراً من الذّهب، والماس، والمونغناز والبوكسيت، كما أنّها تملك ثروة حرجيّة غنيّة، كمثيلاتها من البلاد الواقعة على الخليج الغيني، وزراعاتها الغذائيّة، يفترض بها تأمين الغذاء لشعبها المؤلّف من عشرة ملايين شخص.

أمّا زراعاتها التجاريّة المعدّة للتصدير، فتؤمّن مصدراً مربحاً منتظماً «للنقد النادر» أو العملة الصعبة. ولا غرابة في ذلك، فهي المنتج العالميّ الأول «للكاكاو». وهي كجاراتها: السينيغال برئاسة «ليوبولد سيدار سنغور»، أو شاطىء العاج مع «فيلكس هوفوئيت بونيي» فقد بدت وعلى رأسها عقلاً نيّراً: «غوام نكروما». فهو خرّيج كليّة «أكرا» العليا (العاصمة). ثم صُقلت معلوماته ومواهبه، خلال عشر سنوات، قضاها في الجامعات الأميركية، ممّا يوحي بأنّ هذا الإنسان المثقّف يجمع كلّ الشروط المطلوبة ليصبح حاكماً فذّاً، فيقود بلاده بحكمة في طرق الديمقراطيّة الراقية ليوصلها إلى مصفّ الأمم الراقيّة.

عرف عن «نكروما» حبّه للأهداف المثالية، لكنّها اهداف خيالية أكثر من اللاّزم، ممّا يفرض التخوّف والحذر. فكان يحلم بتحقيق معادلة تجمع بين المسيحيّة والماركسيّة، ينتج منها طريقة إفريقية مثاليّة، يكون شخصيّاً على

رأسها، ممّا يشكّل نوعاً من الحكم الفرديّ، يخفي في طيّاته خطورة الوصول إلى التطرّف، وهذا ما حصل. فلم يكد يتمركز في سدّة الرئاسة، حتّى عمد إلى تطبيق خطّة زميله «سكوتوري» وهكذا انزلق «غوام نكروما» بدوره.

لمّا كان «نكروما» حذراً وشكّاكاً بطبعه، فكان من أولى اهتماماته تأمين سلامته الشخصيّة. وفي هذا السبيل، استحدث جهازاً مخابراتيّاً خاصّاً، على الطريقة الهتلريّة أو الستالينيّة، ممّا يعطي صورة واضحة، عن ميوله التوتاليتاريّة الفرديّة. فأشرك المعارضة في الإدارة، ثم عمد إلى تفشيلهم في مسؤولياتهم، الواحد تلو الآخر، بطرق وأساليب ملتويّة حتى تمكّن من عزلهم وطردهم من مناصبهم. وبهذا توصّل إلى الحكم بواسطة الفريق واللّون الواحد، ممّا جعله بطبيعة الحال، ينزلق نحو التعصّب والظلم. واستلهم في حكمه «كوكتيلاً» عجيباً، فتقمّص خليطاً من شخصيّة هتلر، لينين، موسوليني، وحتى غاندي. وبهذا كان يحاول أن يبرهن على إمكانيّة التعايش بين مختلف الأساليب والنظريات بشكل ديمقراطيّ، ممّا جعل بريطانيا والولايات الامركية المتحدة تعترفان بعدم فهم هذه الفلسفة الجديدة. لكن لم يطل به الأمر. فبعد ست سنوات من إعلان الجمهورية، أطاحت به مجموعة من العسكريّين، وفي منفاه أصيب بسرطان الأمعاء ومات من جرّائه في رومانيا.

في مذكّراته (التي كتبها سنة ١٩٥٧ عندما كان يتهيأ للإستيلاء على الحكم) فقرة، لم تلفت أنظار المراقبين السياسيّين. وفي هذه الفقرة، فسَّر نوعاً ما، عقده النفسيّة، العقد التي جعلته يضيع. فكان لها آثار سيّئة على بلاده. كان دائماً أسير عواطف تتصارع في أعماقه، منها: جموده أمام النساء؛ احتقاره، بما يقارب الإغراء، للمال؛ وخوفه المرضي من الأديان.

الضرورة تصنع من الخجول شجاعاً. وهذا ما حدث «لنكروما»، فاندفع إلى خندق السياسة، ليفرض نفسه. ما أقل الحكّام الذين تميّزوا بالفقر مثل «نكروما». فمن المعروف بأنّ الفقر لازمه منذ ولادته، في الواحد والعشرين من أيلول ١٩٠٩ في «نكروفول». وهي قرية صغيرة، حيث كان

مجبراً على تقاسم الذرة البيضاء مع طابور من أنصاف الأشقاء وأنصاف الشقيقات؛ نتاج تعدد الزوجات التقليديّ. وفي هذه الأحوال كان عليه أن يتدبّر أمره فيقلّع شوكه بيده، لذلك لجأ إلى تربية الدّواجن التي يبيعها ليحصل على ثمن الكتب والأدوات المدرسيّة.

لّما كانت المدرسة تُدار، وتشرف عليها الكنيسة الكاثوليكية، بصرامتها المعروفة، فقد ولدت لدى الفتى «نكروما»، الهلع والكراهيّة تجاه الدين ورجاله، فلم يكن يخشى الكهنة المزوّدين بقضبان يستعملونها لفرض النظام فقط، إنما يتّهمهم بإصابته بعقدة نفسية مريرة تجاه النساء، فكان يشعر بالخوف والشلل التام لمجرد وجوده مع امرأة.

وقد تجلّت هذه الظاهرة للمرة الأولى في مواجهة فتاة من عمره، فهي جارته، دأبت على انتظاره ساعات طويلة على الطريق الضيّقة التي تفصل بين بيتهما. فكانت تقترب منه لدى خروجه لتحدّثه فكان يصاب بالذعر. أمّا إذا قالت أنّها تحبّه، فالويل لها، إذ كان يشبعها لعناً وشتماً، ويسرع هارباً كما لو كان في أعقابه وحش مفترس، ولا يعود إلى الطمأنينة قبل الارتماء في أحضان والدته، التي لم يكن يفوتها أن تهزأ به. لكنّ الفتاة ثابرت على تصرّفاتها الجريئة، وعلى أمل تدجينه والتقرّب منه، كانت تجلب له بعض الطيّبات. وعلى الرغم من جوعه، كان يرفض «الطعم» فيبتلعه من حوله. وقد حاولت والدته تشجيعه للتغلّب على عقده، لكن دون جدوى. ولم تتمكن من معرفة السبب قبل خمس وثلاثين سنة. فكتب في مذكّراته قائلاً: «لم أتمكن من التحرّر وجهاً لوجه مع امرأة، لم يكن خوفاً، لكنّه شيء أعمق بكثير، كأنّه فخّ نصب لي، لأقع فيه فأفقد حرّيتي، كما لدّي نفس الشعور في التعامل مع الدّراهم والدين المنظّم. فالمرأة والمال والدين، أشياء لا يجب التعاطي معها، بنظري، إلّا بأقلّ قدر ممكن، وعلى الرجل أن لا يسمح بأن يكون لها أيّ دور في حياته، لئلّا يصبح عبداً لها فتسحق شخصيته؛ فلو أصغيت في حينه، إلى التصريحات الغراميّة، التي كانت تطلقها هذه الصبيّة، فعلى الأرجح، كنت أمضيت بقيّة حياتي بقربها في قريتي الصغيرة، كمدرّس في أحسن الأحوال،

لكن هربي منها، جعل الأقدار تجري بشكل أفضل».

في السابعة عشرة من عمره، أصبح «نكروما» مساعد مدرّس. كان صغيراً جدّاً عندما لاحظه مدير المدرسة، يقف فوق صندوق خشبيّ ليتمكن من الكتابة على اللوح الأسود. فأعجب بنشاطه وبإصراره على التحصيل والنجاح، وأرسله إلى دار للمعلّمين في «أكرا» العاصمة. وبعد مدّة وجيزة مات والده متأثراً بعدوى قاتلة؛ ولم يصل «نكروما» إلى قريته إلّا بعد الدفن نظراً لرداءة الطرق. وكان لموت والده نتائج سيّئة للغاية إذ أنّها تعني تفجير المنزل، فالعادات القديمة في شاطىء الذّهب، تقضي بأن تترك الأرملة وأطفالها المنزل وتلجأ إلى أحد أشقّاء زوجها.

في كليّة «أكرا» العليا، اكتشف «نكروما» فنّ الخطابة، فكتب: أحببت كثيراً فن الحديث والخطابة؛ لم يكن باستطاعتي مقاومة اللّذة التي أجدها في الدّفاع عن قضايا الأقليّة، حتى لو كنت لا أوافقهم الرأي، بل لأنّ ذلك كان من شأنه إطالة النقاش؛ كنت أجد في ذلك الفرصة لتوضيح وجهات نظري. ومن هنا، تأكّدت من أنّني أمتلك مقدرة على الإقناع، وبأنّ هذه المقدرة بحد ذاتها سلاح فعّال. من هذه القناعة التي تولّدت لديه، اتجه إلى ميدان السياسة فيما بعد.

بعد تخرّجه من كليّة «أكرا» العليا، عمل كمدرّس مجاز سنة ١٩٣٠ في المدرسة الكاثوليكيّة بمدينة «المينا»، ثم نقل إلى «أكسيم». وفي إحدى المراحل كاد يلتحق بالرهبنة اليسوعيّة، إلّا أنّه في اللحظة الأخيرة أحجم عن ذلك، وتحوّل بأنظاره نحو المغامرة بالذّهاب إلى الولايات الأميركيّة المتحدة حيث الفرص كثيرة.

سنة ١٩٣٥، وجد «نكروما» المساعدة الماليّة اللّازمة للسفر إلى أميركا من قريب له في «لاغوس» «نيجيريا». وللوصول إلى هدفه، عمل على ظهر باخرة شحن جوّالة، توقفت في العديد من المرافىء، حيث في كلّ مرّة كان رفاقه البحّارة يحاولون تدريبه في مجالات السكر والعربدة وما يتبعها. لكنّه كافح جاهداً للابتعاد عن هذه الأجواء المغرية. ومن هنا أصبح هدفاً لنكات

رفاقه. وكانوا يعيّرونه بالهرب من النساء رغم بلوغه السادسة والعشرين.

لدى وصوله إلى «ليفربول» أذهله نبأ اجتياح «موسوليني» للحبشة. فأحسّ بالأسى والمرارة، كما لو كان قد هوجم شخصيّاً. وعلِمَ بأنّ عالم البيض قد أعلن حرباً جديدة على الزنوج في العالم. وكتب يقول: «كنت أتصفح وجوه المارّة لأستشفّ ما يجول في خواطرهم، وأخذت أصلّي كي يمنحني الله القدرة على تحطيم هذه الأنظمة الظالمة». وبعد أيّام معدودة أبحر على ظهر مركب تجاريّ نحو العالم الجديد.

نكروما في رحلة العلم الطويلة:

بدأ «نكروما» حياته الجامعيّة الطويلة بجامعة «لنكولن» في «نبراسكا». ثمّ تابع دراسته في جامعة «بنسلفانيا»، حيث أجيز في العلوم الاقتصادية والاجتماعية. ولم يكتف بهذا فأجيز في اللاّهوت والفلسفة بدرجة ممتاز جدّاً وكان الأول في دفعته. ومن هنا، عُيِّن مدرّساً لهذه المواد، بالإضافة إلى تاريخ اليونان وتاريخ الزنوج.

عشر سنوات من الدراسة والكفاح، إذ كان مجبراً على تعاطي العديد من الأعمال والمهن الصغيرة والوضيعة في بعض الأحوال. ليس أقلّها نادلاً في علب الليل، وذلك لتغطية مصاريفه الدراسيّة والحياتيّة، علماً بأنّه كان يقبض منحة شهريّة من بيت الرعيّة الكاثوليكيّة في «واشنطن». أمّا في العطل الجامعيّة الطويلة، فكان يعمل خادماً، أو مساعد بحّار في البواخر السياحيّة. وفي هذا المجال كانٍ يتحاشى كثيراً الخدمة في الغرف حيث كان يجد في بعضها امرأة عارية كالدودة، وذلك ربّما لمراودته عن نفسه، فكان يجفل ويولي الأدبار هارباً، علماً بأنّه كان في الثلاثينات من عمره، ولم يتخطَ بعد هذه العقدة النفسيّة.

على ظهر هذه البواخر، كان الأجر جيّداً عدا عن الطّعام الوفير والفراش الوثير.

نكروما والحركات الدينيّة:

كان «نكروما» يفضّل الوحدة. فكان في شرق الولايات الأميركية المتحدة يتنقّل من مكان إلى آخر، منفرداً. وفي «نيويورك»، عندما لا يجد لنفسه غرفة يأوي إليها، كان يلجأ إلى حيلة قديمة جديدة، فيشتري بطاقة «مترو»، حيث يمضي ليله ذهاباً وإيّاباً، في أرجاء المدينة الواسعة. وفي هذا المجال، كتب في مذكراته قائلاً: إنّ الفقر والحاجة، كثيراً ما تقود الإنسان إلى أجواء جديدة. وفي هذا المسعى أقحم نفسه في التحرّكات الدينيّة عند الزنوج. فكان يحصل على الطّعام مجّاناً، كما كان يستحمّ ويغسل ثيابه بالإضافة إلى قصّ شعره دون مقابل. وفي هذه الأجواء الجديدة بالنسبة إليه، سمح لنفسه ببعض المغامرات النسائيّة العابرة، دون أيّ ارتباط أو مشاريع مستقبليّة. وقد عبرّ عن ذلك بقوله: (كانت بعض النساء تلقبني «بدون جوان» والبعض تتهمني بالضعف «وعدم الرجولة» ولكن بالحقيقة فأنا رجل طبيعيّ جدّاً، لكنني حذر أكثر من اللاّزم).

أثناء وجوده في الولايات الأميركية المتحدة، لم يتعاط إطلاقاً في شؤون التفرقة العنصريّة رغم تألّمه الشديد. ففي كلّ خطوة كان يرى معالمها ومظاهرها البشعة. من مطعم كُتِب على واجهته بالخط الأحمر العريض، ممنوع دخول الزنوج، إلى حافلات مخصّصة للزنوج، منعاً لاختلاطهم بالبيض. حتى في الحمّامات والمغاسل العامة، فقد كتب على بعضها (والحقّ يقال) بلباقة: «مخصصة للبيض».

نكروما يعود الى وطنه:

رأى «نكروما» أنّ عليه العودة إلى الوطن، لكن قبل ذلك، عليه أن يجهّز نفسه بالزاد اللاّزم، فأجرى اتصالات مع العديد من التنظيمات السياسيّة، خصوصاً الشيوعيّة والتروتيسكيّة، كذلك مع اتحاد الطلبة الأفارقة. ولمزيد من الاستعداد قرأ «هيغل»، «ماركس»، أنجل»، «لينين» «ومازّيني»

اعتقاداً منه، أنّ هذه النظريّات والمناهج تشكّل الحلّ الصحيح للاستعمار في أفريقيا.

في أيار ١٩٤٥، عاد «نكروما» إلى لندن، لإنجاز أطروحته والحصول على شهادة دكتور بالفلسفة. ولدى وصوله انتسب إلى الحزب الشيوعيّ في العاصمة البريطانيّة، فاشترك بالتحرّكات التي يقوم بها تلامذة إفريقيا الغربية. ومن هنا أصبح معروفاً في أوساط الوطنيّين الذين يعملون على إعادة تنظيم العالم... في النوادي والصالونات. ونتيجة لهذه النشاطات والاحتكاكات والاستماع إلى الخطب الطنّانة، شعر بأنّه قد نضج بما فيه الكفاية للعودة إلى عشّه، حيث يعمل في ورشته الخاصة فيطبّق نظرياته ومثله العليا.

عاد إلى وطنه، لكن، دون طبل أو زمر. فقير كما غادر بلاده منذ عشر سنوات. وفي سبيل تغطية مصاريف العودة كان على الشيوعيّين جمع التبرعات له سنة ١٩٤٧ . ولدى وصوله إلى «غانا»، كانت بانتظاره مفاجأة. فقد سبقته الشهرة إلى العاصمة «أكرا». ودون تأخير، عُهد إليه بسكرتاريّة التجمّع الوطني لشاطىء الذهب، وهي حركة وطنيّة محافظة. أخذ في تطبيق ما تعلّمه من رفاقه في لندن، على الأرض الإفريقيّة. وأظهر استعداداً حقيقيّاً للنهوض بمواطنيه، ممّا جعل السلطات البريطانيّة تضيق ذرعاً بتحرّكات الشّارع والإضرابات التي شلّت الحركة الصناعيّة والتجاريّة. فأوقفت المحرّك، لعضويته في الحزب الشيوعي البريطانيّ. لكن كما هو معروف، السجون تصنع الشهداء. إنّما البريطانيون لم يفهموا ذلك وقد ساهموا بطريقة غير مباشرة في إعلاء شأنه وترسيخ قدميه على الأرض.

لدى خروجه من السجن، ابتعد «نكروما» عن الحزب الشيوعيّ، إذ أنّ انتسابه إلى هذا الحزب، يشكّل حجر عثرة في طريق وصوله إلى السلطة. فأسس حركته الخاصّة «حزب التجمّع الشعبيّ». فلم يكن من البريطانيينّ سوى اعتقاله من جديد، فذاع صيته في أرجاء البلاد. وفي الانتخابات الوطنيّة الأولى التي أجريت سنة ١٩٥١، كان الانتصار من نصيبه ممّا جعله ينتقل مباشرة من زنزانته في السجن إلى القصر الحكوميّ، رئيساً للوزراء. لكنّه لم

يكن سعيداً بهذه النتيجة التي كانت بنظره نصف انتصار فقط، بالرغم من أنّ منصبه الجديد يسمح له بالمشاركة في إدارة شؤون البلاد مع الحاكم الذي يمثّلْ «الكومنولث». وقد دامت هذه المشاركة ست سنوات، حتى توصّلت «غانا» إلى الاستقلال سنة ١٩٥٧، وهي البلاد الأفريقيّة الأولى في هذا المضمار... ولّما كان «نكروما» لا يزال رئيساً للوزراء، حصّل من جرّاء ذلك نجاحاً شخصيّاً كبيراً جعله يكتسب ثقة بالنفس لا حدود لها.

بعد سنة، وفي ١٥ نيسان ١٩٥٨، دعا إلى المؤتمر الأوّل للبلاد الإفريقيّة المستقلّة، في «أكرا». وهو الحدث الأهمّ في التاريخ منذ عدّة قرون. ولدى افتتاحه هذا المؤتمر، لم يخفِ طموحاته في جعل عاصمته مهد الاستقلال في إفريقيا ومحجّ الاستقلاليين ومن الطبيعيّ أن يكون هو على رأسها وقد شجّعه الغانيون على ذلك عن حسن نيّة، دون أن يتكهّنوا بما ينتظرهم على يديه بعد إعلان الجمهورية سنة ١٩٦٠ . وفي حينه كان «نكروما» في الواحد والخمسين من عمره يشعّ صحّة وقوّة. رأى أنه سيكون قيصر افريقيا، وأن الخلود ينتظره. فهو النجم الذي تدور حوله القارّة السوداء، ولكن، لبضع سنوات من الحريّة والطمأنينة.

نكروما ينجرف نحو الدكتاتورية:

على طريقة «سكوتوري غينيا» وأمثاله، انزلق «نكروما» نحو التسلّط والحكم الفرديّ. وكان الشيوعيّون، حلفاء الأمس، أوّل من شعروا بالمرارة وخيبة الأمل، إذ أنّ الحكم الذي يمارسه الأمير الجديد، غير مقتبس عن اللينينيّة المستقيمة. فالواقعيّة التي اخترعها «نكروما» والتي ينفرد باعتناقها وترويجها ومصدر مفاخرته لها جذورها الفلسفيّة والماديّة.

وفي توجيهاته لشعبه كان يقول؛ «أنّه من الممكن للإنسان، أن يكون مسيحيّاً وماركسيّاً في آن واحد». وكان «يبهر» بنظرياته ما قد اقتبسه عن، «هنيبعل» «كروموبل»، «نابليون» توصّلاً إلى «هتلر» «وموسوليني». فكان يردّد الكثير من أقوالهم على مسامع الشّعب للتأثير على المشاعر، ممّا يسمح لهم

بالإحتفاظ ببعض خصوصياتهم وتقاليدهم، وتدعيمها بالواقعيّة الغربيّة الضروريّة للخروج من قرونهم الوسطى. أمّا على الصعيد الاقتصاديّ، فكان هو في وادٍ، والشّعب في وادٍ آخر. فالشّعب لم يفهم ولم يكترث للموضوع. فالرئيس جيّد، طالما يمكنه البقاء على المنصّة لساعات طويلة. من هنا أخذ «نكروما» بالإنحراف نحو استعمال القوّة: فمن لا يفهمه يصبح عدوّه. ومن لا يؤيّده فهو خائن. لا يتحمّل نقد المعارضة لأساليبه. فهو الرئيس المعصوم، لا يمكن أن يغلط، لا من حيث الإختيار، ولا من حيث القرارات.

عندما دعا «وليام توبمان» رئيس «ليبريا»، إلى مؤتمر حضره معظم الرؤساء الأفارقة، لم يتوانَ «نكروما» عن نعتهم بالخيانة والعمالة لأميركا التي اشترتهم. وكان يردّد أمام زوّاره وخصوصاً الأجانب منهم: «على جميع الأفارقة أن يعرفوا أنّني الممثّل الوحيد لإفريقيا والمتكلّم الوحيد باسمها، ولا يمكن لأيّ إفريقي أن يكون له وجهة نظر تتعارض مع وجهة نظري، ومن يخالفني في الرأي يكون قد دُفع له ليفعل ذلك».

وفي تطوّر جديد، دخل في مرحلة جديدة من الاستبداد والظلم، لم تعرفها البلاد من قبل. فكان يضرب ويطهّر وينفي، ليس من أعدائه فقط بل حتى من مؤيّديه ممّن لم يعد يعجبه، دون رحمة أو شفقة.

بالمقابل، كان شديد الاعتناء بمظهره الخارجيّ. فكان يتهادى في مشيته مرتدياً الأثواب والأزياء الفولكلوريّة الفضفاضة، على طريقة «تشرشل» «وخروتشوف». وكان يصغي بسعادة وسرور إلى الألقاب التي ينعتونه بها. فقد نُظمت له الأشعار والأغاني ونُصبت له التماثيل في كل مكان، وأعيد تسمية المدن والشوارع على اسمه، فأصبح «ستالين الأفريقي».

انتقل «نكروما» من الأرض إلى السماء. فسخّر الدين لتدعيم حكمه مدّعياً بأنّه مبعوث السماء لتنفيذ مشيئة الله. ومنها، على حدّ زعمه، السجن الإفرادي الشديد لمدّة خمس سنوات دون محاكمة، للمئات من الذين لا يعجبونه. وفي خطوة متقدّمة، أدخل تعديلاً على الدستور أصبح بموجبه رئيساً لمدى الحياة.

هل كان الحاكم الصارم الذي يجهد نفسه ليبدو مثالياً بنظر مواطنيه؟ فالنتائج التي توصّلت إليها لجنة التحقيق، التي كلّفت بتقييم ثروته، لم تكن في مصلحته. فكلّف من بعدها للتحقيق مجدّداً أحد قضاة المحكمة العليا، الذي أنهى مطالعته الخطيّة قائلًا: «من الوقائع التي وجدناها في الطريقة التي اعتمدها الرئيس السابق «نكروما»، للحصول على القسم الأكبر من ثروته، تبيّن أنّ هذه الثروة لم تكن شرعيّة ولا مشرّفة. فبصفته الوصيّ الشرعيّ على ثروة الشّعب الغانيّ كان يحوّل جزءاً منها إلى كيسه، عدا عن أنّه أصبح غير مؤهّل للقيام بمهامه الكبيرة كرئيس للبلاد، علماً بأنّ مرضه كان السبب الأخطر على مصير «غانا».

العلماء الاميركيون يحلّلون نفسية نكروما:

نادراً ما كان أحد «أباطرة» أفريقيا موضع اهتمام علماء النفس في الولايات الأميركية المتحدة. ربّما كان، لأنّه أمضى عشر سنوات في جامعاتهم. فعلماء السياسة وعلماء النفس، كرّسوا وقتاً طويلًا لتحليل حياته وتصرّفاته. فأحد هؤلاء العلماء «برتون» لاحظ أنّ «نكروما» نجا من عشر محاولات قتل على الأقل بين ١٩٥٥و ١٩٦٦ ، لذلك كان لديه ما يكفي من الأسباب والمبرّرات للخوف على حياته واتخاذ ما يراه مناسباً من الحيطة والحذر. من هنا استحدث نظاماً خاصّاً للحراسة يحيط به ليلاً نهاراً. وفي هذا المجال، أفادت صديقته السيّدة «جينونوفا ماريز»، بأنّه ابتداءً من ١٩٦٢، أصبح حذراً لدرجة الوسواس، بعد نجاته من عدّة محاولات اغتيال. وأصبح يُفضّل الوحدة والابتعاد عن الناس، ولا سيّما المناسبات العامّة التي تجعل منه هدفاً سهلًا للقتلة والقنّاصين. كما أنّ معتقداته القديمة المتوارثة بقوى الشرّ الخارقة للطبيعة لا تهيّئهُ إطلاقاً للمهمّات الصعبة الملقاة على عاتقه بصفته رئيس دولة. ومن المعروف عنه استشارة السحرة والمشعوذين قبل الإقدام على اتخاذ قرارات حكوميّة، مع العلم، بأنّ الخوف والبساطة لا تفسران الأنانيّة وحبّ التسلّط والبطش المستحوذة على «نكروما».

وفي تقريرهم النهائيّ عن «نكروما» أفادوا بأنّه أنانيّ بطبيعته، كما أكّد البروفسور «هينال» السويسريّ. ثمّ إنّ الأنظمة السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة الغير السليمة تساعد على خلق الطغاة. كذلك بحيث أنّه يدّعي الاشتراكيّة والتقدميّة إسوة بالعديد من أمثاله في إفريقيا وآسيا، وعلى سبيل المثل في «بورما»، لا يتركون المجال لأيّ احتجاج. إذ أنّهم يأخذون شرعيّتهم من التقدميّة المزعومة ويصبحون أسرى معتقداتهم الإيديولوجيّة، حيث لا يكفي أن يكون الرئيس أنانيّاً أو متسلّطاً ليصبح طاغية، بل يلزمه نظام سياسيّ، يسمح له بأن يصبح دكتاتوراً طاغياً. وهذا ما كانت عليه الحال لعشرات السنين مع «ستالين» في الاتحاد السوفياتي. كذلك في المانيا النازية أيّام «أدولف هتلر». ومن المؤسف جدّاً أنّ هذه الحقبة التعيسة من التاريخ يديرها رجال مرضى لكن الشعوب تتفاخر بالإنتساب إليهم.

زعيم اوغندا «عيدي امين دادا Idi Amin Dada»

في إحدى الضواحي المعزولة بالقرب من جدّه، المرفأ الأهم في المملكة العربية السعوديّة، الذي يستقبل حجّاج بيت الله الحرام، والمجمع الدبلوماسي والتجاري، يقيم «عيدي امين دادا»، المارشال السابق والرئيس السابق للجمهوريّة الأوغنديّة الثانية، يمضي حياة النفي السعيدة في إحدى «فيلّاتها» الفخمة.

يقال أنّه قد ابتعد عن تعاطي الخمرة، أنّه أصبح مثالاً يحتذى في سلوكه الإسلامي، فيقيم الصلوات في أوقاتها. ويجد لذّته الوحيدة في الاتصال الهاتفيّ بأصدقائه القدامى في إفريقيا، خصوصاً أنّ ملك السعودية يدفع فواتيره الباهظة. لكنّ مصاريفه قد تدنّت كثيراً بعد طلاقه سنة ١٩٨٧ لزوجته «ساره كيولابا» مغنيّة «الجاز» السابقة، وتبعثر اولاده التسعة والأربعون. ولم يبقَ حوله سوى أفراد حرسه الخاص.

غادر «كومبالا»، عاصمته، على عجل سنة ١٩٧٩، هرباً من الجيش «التانزاني»، ومن جنوده الأوغنديّين، الذين كانوا يتدافعون ويتسابقون للقبض عليه وتطويق عنقه بـ. . . حبل غليظ.

خلال هربه توقّف لبعض الوقت أوّلاً في «ليبيا»، حيث استضافه العقيد القذّافي ومن معه في فندق الأندلس القريب من طرابلس العاصمة في السادس عشر من نيسان. وخوفاً من أن يُصاب بمكروه وهو في ضيافته وحمايته، نقله إلى قلعة «ميسراتا» وهو مرفأ وقلعة بالوقت نفسه يقع على الحدود الغربيّة للصحراء الكبرى.

في نهاية سنة ١٩٧٩ ، ضاق القذّافي ذرعاً بحالات السكر والعربدة التي يتخبط فيها ضيفه الكريم ليلاً ونهاراً، فطُرد خارج بلاده، ولجأ إلى السعوديّة، حيث استضافه الملك فهد في إحدى ضواحي جدّة وتعهّد بمصاريفه، بعد أن كان قد أنزله في أفخم فنادق جدّة، فندق الرمال المواجه للسفارة البريطانيّة. فلم يعد له من عمل سوى معاكسة دبلوماسيّ السفارة وزوّارها، ممّا أجبر العاهل العربي على نقله، كما سبق، إلى إحدى ضواحي جدّة، حيث لا يتمكّن من ممارسة هوايته المفضلة (معاكسة النساء) نظراً لبعد مركز إقامته عن البشر.

وكان قبل لجوئه النهائيّ، قد أراد أن يجرّب حظه، فاتّصل هاتفياً بجريدة «الديلي اكسبرس» اللندنية وطلب من إدارتها إيصال تمنياته إلى الملكة ورئيسة وزرائها السيدة «مرغريت تاتشر»، ممّا ساعد على معرفة مكانه، وكاد يدفع حياته ثمن هذا التهوّر وعدم الحرص.

بعد ثلاث سنوات من ذلك رُصد في إمارة البحرين. لكنّه سرعان ما عاد مسرعاً إلى جدّة حيث عزلته السلطات في مأواه الحالي مع حراسة مشدّدة.

إنّ لهذا الطاغيّة المخلوع العديد من الأعداء الذين يرصدون تحرّكاته ويعدّون عليه أنفاسه وينتظرون بفارغ الصبر الخروج من وكره، دون أن يأبهوا بمرور الزمن ولسان حالهم يقول: «الصبر مفتاح الفرج» والانتقام لا بدّ منه. فالجرائم التي ارتكبها لا تعدّ ولا تحصى، وعدد ضحاياه بالآلاف، وهو من كان يردّد متباهياً: ما من أحد يستطيع مسابقة قذيفة بندقية.

وفي تقرير مؤسسة العفو الدوليّة أرقام مذهلة. فهي تنسب إليه (٣٠٠٠٠٠) ثلاثمائة ألف ضحيّة أوقفهم وعذّبهم ثم قضى عليهم خلال ثماني سنوات، وهي المدّة التي قضاها في «الحكم الجمهوري الديمقراطي» كما كان يسميّه.

وُلد هذا الطاغية المجرم في قرية «كوبوكو» التعيسة سنة ١٩٢٦ . كان والده من قبيلة «كاكوا». أمضى أكثر أيّامه في جنوب السودان. وبطريق المصادفة مرّ بقرية «كوبوكو» حيث عثر على امرأة من قبيلة «لوكباره» فوهبها جرواً ثم توارى عن الأنظار.

لم تكن والدته عاهرة بكل معنى الكلمة، لكنّها ترضى بمشاركة الحياة بسهولة مع روّاد البراري. كما كانت تتعاطى بعض الشعوذات المحليّة وهي شبه ساحرة. كما كانت تتبع الجنود المحليّين الذين تطوّعهم بريطانيا، من معسكر إلى معسكر. وكانت تصطحب معها ولدها «عيدي أمين» في حلّها وترحالها. ومن هنا، لم يعرف سوى هذا النوع من الحياة حتى بلغ العشرين من عمره، العمر الذي يُستدعى فيه للخدمة العسكريّة. وهكذا انضم بدوره إلى السلاح الملكيّ الأفريقيّ.

ولّما كان «عيدي أمين» يتمتّع بجسم قويّ من الوزن الثقيل، أصبح بطلاً في الملاكمة. كما شارك في لعبة «الركبي» لكنّه كان قليل الرغبة في التعلّم والتثقّف، ممّا يفسّر أنّه في سنة ١٩٦٢ عندما انتقلت بلاده إلى عهد الاستقلال، كان بالكاد يعرف القراءة والعدّ. لكنّه كان يتمتّع بذكاء فطريّ غرائزيّ، ممّا سمح له بالتقدّم في صفوف جيش لا يهتم بشؤون العلم والثقافة. «فعيدي أمين» أصبح رائداً في ١٩٦٣، وعقيداً في ١٩٦٤، ولواءً في ١٩٦٨ . أمّا النشاطات العسكريّة التي قام بها وعلى أساسها نال هذه الترقيات الفولكلوريّة المذهلة، فتثير الضحك والسخرية في المدارس الحربيّة. ولا تسمح له حتى بأن يصبح رقيباً لا أكثر.

في تلك الحقبة من الزمن لم تكن تتعلق قضية الترقية في الجيش سوى بالبطش ببعض القبائل التي تزعج «ميلتون أوبوت» الذي أصبح رئيساً للجمهورية. ومن المعتقد أنّ «عيدي أمين دادا» قام بمهمّة سريّة خطيرة لمصلحة الرئيس، فجعل منه قائداً عامّاً للأركان مرّة واحدة.

لكنّ الرئيس «أوبوت» ندم على فعلته هذه ندماً مريراً في كانون الثاني سنة ١٩٧١ . وفي أثناء غيابه في «سنغافورة» لتمثيل بلاده في مؤتمر «الكومنولث»، وإذا بالجنرال «عيدي أمين دادا» على رأس اثنتي عشر مصفّحة وبعض من لا عقل لهم استولوا على الحكم. وممّا دفع «عيدي أمين» على الإسراع في حركته، أنّ الرئيس قبل سفره كان قد استدعاه للتحقيق باختفاء مبلغ (٢,٥٠٠,٠٠٠) مليونين وخمسمائة ألف استرلينية. وقد هدّده بقوله:

لدى عودتي أريد أن تكون هذه المشكلة قد انتهت.

لو أنّ الرئيس أودع اللصّ القفص الحديدي قبل سفره لما عرفت «أوغندا» إطلاقاً الإرهاب والمجازر التي أطلقها هذا الضابط (بالصدفة)، والذي اغتصب الحكم، وأصبح ديكتاتوراً هرباً من مصير سيّء. لكنّه لم ينجُ طويلاً من يد القدر، إذ طارده حتى جعل منه هارباً منفيّاً لاجئاً على ابواب الناس «فللباطل جولة، وللحقّ ألف جولة».

إنّ الله وحده يعلم كم أطلق عليه من الأسماء «المشرّفة». فعلى سبيل المثل: العبد الزنيم، الطاغيّة الدمويّ، الضبع الأوغندي وغيرها، المهرّج الإفريقي. ولدى سقوطه، تناولته الصحف بألسنة حادّة ورسوم كاريكاتوريّة مضحكة من أطرفها ما نشرته إحدى الصحف البريطانيّة. فقد رسمته بشكل دبّ أسود كبير الهامة وقد غمس مخالبه في حنجور للحلوى، لكنّ يداً قويّة أمسكت بأذنه فأبعدته.

وهنا لا بدّ من التذكير، أنهّ يوم استولى «عيدي أمين» على الحكم، سارع رؤساء الدول للإعتراف به كرئيس شرعيّ وبنظامه «العادل». كما أنّ رجال السلطة في بريطانيا تبادلوا التهاني فيما بينهم. وقد وصفوه بالضابط الموالي لهم، بالرغم من أنهّم كانوا يعرفون أكثر من غيرهم عن ميوله الفطريّة للقتل والتنكيل، وعن عدم كفاءته المدنيّة والثقافيّة.

فأوّل ما قام به من الأعمال الدمويّة، بعد أن استتَّبَ له الأمر، ليس فقط التخلّص من وزراء الرئيس السابق «أوبوت» ومن مؤيّديه، بل عمد أيضاً إلى ما يسمّيه أمثاله من الطغاة تطهيراً. فطهّر الجيش والشرطة والإدارات العامّة منها والخاصّة. ولم ينسَ أنّه في صغره قد عانى من سيطرة قبيلتي «لانجي وأشولي»، فأطلق ضدّهما، أبشع حملات التصفية، فأبادهما عن بكرة أبيهما. وعلى سبيل التبريك والمكافأة على أعماله البطوليّة، سارعت بريطانيا إلى منح السلطان الجديد «عيدي أمين دادا»، مساعدة ماليّة وقدرها عشرة ملايين ليرة استرلينيّة. لكنّ واشنطن التي أزعجها انفراد لندن بتشجيع المآثر، سارعت بدورها إلى منحه ثلاثة ملايين دولار.

لكن، بالرغم من أنّ باريس لم تنغمس في تشجيعه على أعماله المجيدة فقد وفتْ قسطها للعلى، بتأييدها أحد أمثاله من مبيدي الشعوب مثل المرشال «جان ـ بدال بوكاسا» بطل جمهورية إفريقيا الوسطى.

بعد أن نال «عيدي أمين دادا» هذه المنح والهبات السخيّة من الدول الكبرى، تأكّد أنّها تغلق عيونها عن مجازره، وأنّ لهؤلاء البيض الذين كان يُعجب بهم نفس العقليّة التي لديه. وهذا ما كان ينتظره، فمضى قدماً في تنفيذ إنجازاته وأعماله البطوليّة.

خلال سنتين، مدفوعاً بغرائزه الدمويّة، لم يتورع عن إعدام المنفيّين العائدين من البلاد المجاورة، وخصوصاً من «تأنزانيا»، التي يترأسها «يوليوس نيريري» عدوّه «الحميم». كما أنّه لم يغفل عن توثيق علاقته مع بريطانيا العظمى، ومع الكيان الإسرائيلي مدفوعاً برغبته في بناء رأس جسر دبلوماسيّ في وسط القارّة الإفريقية.

كان «عيدي أمين دادا» يحلم بجيش قويّ حديث. وكان على شركائه «الميامين» مساعدته. وفي هذا المجال قصد إسرائيل حيث تدرّب على أيدي مدربيّ الجنرال «شارون» حتى نال شهادة «مظلّي» في الجيش الإسرائيلي. وعلى سبيل العرفان بالجميل وتوطيد العلاقات الأخويّة، دعا بعض الوزراء وكبار العسكريين لزيارة «كمبالا» عاصمته. كما أنّ «شمطاء إسرائيل» «غولدا مائير»، لم تتوانَ عن القيام بما تقتضيه اللبّاقة الاجتماعية، فقدّمت له احتراماتها في عاصمته حيث نوّهت بإنجازاته وقيادته الحكيمة و. . . حرصه على الحريّة وحقوق الإنسان. وأمضت شهر عسل مدهش متناسية أنةّ مسلم وقد تناسى «أمين دادا» بدوره أنّها يهوديّة صهيونيّة.

وكغيرها من العلاقات العابرة، سرعان ما اعتراها الفتور، فالركود المتفاقم في البلاد الصناعيّة بسبب الأزمة البتروليّة، فرض على القادة البريطانيينّ والإسرائيليّين ما هو أهمّ من تسليح الأمير الأوغندي، فتنكّروا لتعهداتهم.

لكنّ «عيدي أمين دادا» لم يتخلَ عن حلمه الكبير في أن يجعل من جيشه أقوى جيوش إفريقيا، فيصول ويجول كما تشتهي نفسه. وفي هذا المسعى كان

لا بدّ له من شريك متفهم. فاكتشف ضالته المنشودة بالزعيم الليبي المتحمس لمساعدة الشعوب النامية. فبادر إلى التقرّب من العقيد القذّافي الزعيم الليبي الشاب الذي تضيق صناديقه «بالبترودولار» فنجح «أمين دادا» في مساعيه، إذ دعاه العقيد القذّافي إلى زيارة طرابلس، حيث ترجّل مرتدياً أبهى الثياب العسكريّة، متأبطاً عصا «المشيرية» وقد زيّن صدره «ببساط» كبير من الأوسمة الاستعراضيّة. «ومن الطبيعيّ» أنهّ لم ينسَ نظّاراته السوداء. فاستقبل استقبال الفاتحين وأمضى بضعة أيّام من التكريم والحفاوة الاسطوريّة.

ما إن عاد إلى عاصمته «كمبالا» منتفخ الأوداج حتى تشدّد في إجراءاته. فبادر فوراً إلى طرد الإسرائيليين من أوغندا وأغلق السفارة الأميركية. كما أوقف عن الصدور أربع صحف ناطقة باللّغة الإنكليزيّة ورمى إلى ما وراء البحار ثمانين ألف آسيويّ من التجّار والصناعيّين الأسيويّين، دون سبب، سوى أنّهم يحملون جوازات سفر بريطانيّة، دون وعيّ بأنهّ بهذا يهدم البنية الاقتصاديّة في بلاده، ممّا حمل الدول الغربيّة على الاستهجان والادانة. لكنّ القارّة السوداء هلّلت له وكبّرت.

لكنّ الاتحاد السوفياتي لم يتأخر في إمداده بالخبراء والمستشارين السريّين، بأعداد كبيرة. سنة ١٩٧٤ انتقل «عيدي أمين دادا» من حقل السياسة إلى العناوين الكبيرة عن نشاطاته الاجتماعية في الصحف العالميّة بعد أن أمضى ثلاث سنوات على سدّة الحكم. فقد طلّق ثلاثاً من زوجاته الخمس مرّة واحدة: «كاي»، «نورا»، «وماليانو». إلّا أنّ واحدة فقط نجت بجلدها، ولكن دون نفقة. أمّا «ماليانو» فقد ألقي القبض عليها فسجنت، ثم أبعدت إلى الخارج. كما عثر على «كاي» جثّة مقطّعة. أما وزيرة خارجيته الجميلة والنشيطة، الأميرة «أليزابت باكايا»، فقد أعفاها من منصبها، بعد أن فوجئت تمارس علاقة مشبوهة مع شاب أبيض، في حمّامات مطار «أورلي» الباريسيّ.

في السنة الرابعة من حكمه، عاد أمين دادا إلى ممارسة هوايته المفضلة. فاعتقل أحد كبار علماء السلالات والشعوب البريطاني الجنسية، «دنيز هيلل» بحجّة ما ورد في أحد كتابات هذا العالم. واعتبره «دادا» مهيناً بالنسبة إليه.

فحكم عليه بالموت غير مكترث بالإدانة والاحتجاجات العارمة التي تصاعدت من العالم الأبيض. وأعلن أنّه لن يقبل بأقلّ من كتاب شخصيّ بخط «أليزابت الثانية»، ملكة المملكة البريطانية العظمى المتحدة وإيرلندا، ورأس الكومنولث، يحمله إليه رئيس الوزراء البريطانيّ. وعند الضرورة وزير خارجيتها، لبحث الأمر. وبعد شهرين من المراسلات والاتصالات، كان لا بدّ من ذهاب «ليونار كالاغهان» الذي أصبح فيما بعد رئيس وزراء بريطانيا، إلى «كمبالا»، لإنهاء هذه المشكلة. فأصيب العالم بالذهول. وأحد الرؤساء فقط اعتبر علناً بصوت جهوريّ، أن «عيدي أمين دادا» مجرم، سفّاك دماء، وفاشيستي أسود وأحد المعجبين بهتلر. إنّه الزعيم التانزاني «يوليوس نيريري».

ومنذ أيار ١٩٧٤ بعد أن فوجىء بوجود جاسوس شرقيّ في حاشيته وهو «كونتر غيليوم»، لم يعد «عيدي أمين دادا»، عمليّاً، رئيساً لأوغندا؛ إذ تفاقمت أمراضه النفسية. فقد اتّهم اثنين من علماء الطبّ في جامعة «ماكريري» بالتجسّس وترويج الإشاعات السياسية فطردهم إلى بريطانيا. ولكنّه بعد خمسة عشر يوماً استغرب غيابهم فأرغى وأزبد، عندما احتاج لبرنامج صحيّ. ولم يتذكر أبداً أنّه كان قد طردهم خارج البلاد. وقد لاحظ وزراؤه غيابه الذهنيّ من وقت إلى آخر. وأنّه لم يعد بإمكانه متابعة جلسات حكومته، وكغيره من المرضى لجأ إلى معاقرة الخمرة بكثرة ولم يتوصل المقرّبون منه إلى إقناعه بتخفيفها.

كذلك أفاد طبيبان أوغنديان لم يفصحا عن اسميهما بأنّهما قد عالجا «عيدي أمين دادا» من داء السفلس خلال ١٩٥٥، وقد ساعد على نشر الخبر أحداث ١٩٧٦ التي جرت في أوغندا.

كما نشرت جريدة «يادعوت احرنوت» الإسرائيليّة في عددها الصادر في ٩ تموز ١٩٧٦ أنّ الطبيب «مرسال عسائل» رئيس القسم النفسي في مستشفى «تل أبيب» قد عالجه لمدّة طويلة من أمراض نفسيّة متقدمة، وقد عزاها في حينه إلى خلل في الدماغ نتيجة إصابة قديمة «بالسفلس».

. كما كان لمحاولة اغتياله بالقنابل اليدويّة أثناء استعراضه لقوّاته الأمنية في باحة قصره، آثاراً سلبيّة على قواه العقليّة، بالرغم من خروجه سليماً. وفي ٢٥ تموز من السنة نفسها، قررت السلطات البريطانية أخيراً قطع علاقاتها الديبلوماسيّة المخجلة مع هذا الطاغيّة المهرّج.

في تشرين الأول ١٩٧٨ جمع حوله جيشاً من القتلة والمجرمين، واحتلّ قطعة صغيرة من الأراضي التنزانية، وهي مثلث «كاجيرا». وكان الرئيس «نيريري» بانتظار هذه الفرصة المناسبة. فأعاد تنظيم المعارضين الأوغنديين المنفيين إلى تنزانيا، كذلك الهاربين والمنفيّين إلى كينيا. كذلك استدعى المتواجدين في جميع أقطار العالم واستنهض الرئيس المخلوع «ميلتون أوبوت» وجعله على رأس هذا الجيش الكبير بعد أن جهّزه بأحدث الأسلحة. كما ساعده بجيشه الخاص وبكلّ ما يملك من دبّابات وطائرات وقادهم باتجاه «كمبالا» في ١٩ شباط ١٩٧٦ . وخلال أيّام معدودة استسلم الدفاع الأوغندي. لكنّ أحد الرؤساء أسرع إلى نجدته، فأرسل مقاتليه بالإضافة إلى الأعتدة والمحروقات، لكنّ ذلك لم ينفع فقد سحقت هذه القوّة الغريبة أيضاً على أبواب «كمبالا». فأسرع هذا الرئيس «الغيور» إلى لملمة ما تبقّى من جنوده على قيد الحياة.

وفي العاشر من نيسان أطلق «نيريري» الهجوم الأخير ولم يأخذ ذلك سوى بضع ساعات فقط. ومن طريف ما جرى خلال هذه الحرب الصاعقة، أنّ عيدي أمين كان قد تحدّى عدوّه «نيريري» لمنازلته بالملاكمة فقد قبل التحدّي. لكنّه عندما دخل قصر عيدي أمين غازياً منتصراً، لم يجده لكي يشدّه من أذنيه إذ كان قد ولّى الأدبار هارباً منذ أسبوع.

«ارنستو غيفارا Ernesto Gyuevara»
الملقّب ب. «غي» Dit Che

منذ أكثر من ثلاثين سنة انضمّت كوبا إلى المعسكر الشيوعيّ، وكان البيان الثوريّ الذي أذيع في حينه متوازناً وواعداً. من المؤكّد أنّه، قد صاغه بعض كبار المنّظرين. لم يكن «فيدل كاسترو» ماركسيّاً، كما يدَّعي، لكنّه كان مخترعاً لنوع خاصّ من الاشتراكيّة الفرديّة. ومع ذلك فإنّ احداً لم ينخدع.

على أقل من مائة وخمسين كيلو متراً من «ميامي»، من البلد الرأسمالي الأقوى في العالم، أصبحت هذه الجزيرة الكاريبيّة بمثابة حاملة طائرات جماعية للمعسكر الشيوعيّ، حيث أصبح يسرح السوفياتيون ويمرحون. وعلى العالم الحرّ أن يقبل بالأمر الواقع.

حاليّاً يتواجد في «كوبا» ما لا يقلّ عن عشرات الآلاف، وقد دسّوا أنفسهم في كلّ انحاء الجزيرة. كما أنّ معظم السفن التي تصل إلى «هافانا»، تجاريّة كانت أم حربيّة، يرفرف عليها العلم الأحمر ذو المنجل والمطرقة. «موسكو» تشتري السكّر الكوبيّ بأسعار مغرية، تفوق الأسعار العالميّة. كما أنّها تعطيهم البترول بأسعار مخفّضة. والمساعدات الماليّة تتدفق بشكل منتظم على «هافانا» من صناديق الكرملين الكبرى دون حساب. فهي تعطيها أربع مليارات من الدولارات الأميركيّة كلّ سنة. وهنا لا بدّ من الذكر، وهو شيء غريب، أنّهُ خلال صيف ١٩٨٨ توافد على «كوبا» مائتان وخمسون ألف سائح أميركي لينعموا بشمسها ويحصلوا على اللّون البرونزي المرغوب عند الرفيق

«كاسترو» بحيث غذّوا الصندوق الكوبيّ بما لا يقلّ عن مائة وخمسين مليون دولار. فيخوتهم كانت ترسو بحريّة تامّة في مرفأ «كايالارغو» الجزيرة التي جهّزت من أجلهم، ومن هنا لبضع سنوات، ستصبح «فلوريدا ـ مصغّرة». وعلى الأرجح، ستستقبل ضعفي أو ثلاثة أضعاف ما تستقبله فلوريدا من المفرّصين. ولا غرابة في ذلك، فتكاليف العطلة في كوبا لا تساوي ربعها في فلوريدا. فكلّ شيء بحسابه، والأميركي أستاذ في العلوم الاقتصادية.

كذلك فإنّ تغيّرات كثيرة تلفت الإنتباه قد حصلت في «كوبا». إنّ مذهب العملاق الكوبيّ قد توارى عن الأنظار. فلا دعايات شيوعيّة ولا تظاهرات أو محاضرات ايديولوجية. فقد أصبحت كوبا تصدر من الكركند أكثر بكثير ممّا تصدره من الثورة والثوّار. فكوبا تقيم علاقات دبلوماسيّة طبيعيّة مع الجميع. كما أنّ عدد المعتقلين السياسيّين قد تدنى بشكل ملحوظ والكنيسة عادت إلى نشاطها سرّاً، بتغاضٍ من قبل السلطة.

هل تغير فيدل؟ ظاهريّاً، خلال هذه المدّة، ابيضّت لحيته وتثاقلت خطواته، كما تخلى عن سيكاره المعطّر. هل ذلك على سبيل الوقاية؟ لكن فيدل كاسترو لا يجهل أنّ «الثورة» قد شاخت وأنّ الشعب قد ناله الضجر والملل، بالرغم من أنّه غير جائع كما في عهد «باتيستا». كما أنّهم ينصحون بالتعليم المجانيّ وكذلك الطبابة. لكنّ علماء النفس يعتبرون آلاف الشبّان غير صالحين للعمل، فهم مصابون عصبيّاً ونفسيّاً. كما أنّ الكثير منهم مصابون بالهستيريا.

ثمّ أنّ «فيدل» يتمنى الخروج من صومعته والتجوّل في أقطار المعمورة ومقابلة زعماء الدول الرأسماليّة. وقد صرّح قائلاً: «ما زلت أحلم «بغي» وبأنّه ما زال حيّاً وأنه سيعود. إنّ تأثيره ما زال في بلادنا أكثر من أي وقت مضى، وما زلنا نحاول أن نقضي على الإنحطاط الناتج عن نظرياته ومفاهيمه، بالرّغم من أنّ بعضها له من الأهميّة حتى يومنا هذا. فبدونها ما من كوبا وما من شيوعيّة». فإنّ فيدل كاسترو يتوق كثيراً إلى «ارنستو غيفارا» الملقّب «بغي» زعيم المقاومة، مغامر من الطراز الأول، متأثر

«بالمكسيميليانية». وقد اسهم اسهاماً فعّالاً في انتصار الثورة «الكاستريّة» في كوبا. كما أنّ «غي» كان يحلم بالمثل الثوريّة العليا لتطوير الظروف الاجتماعية في الدول الأميركيّة اللاتينيّة. وتحت هذا العنوان، أصبح «غي» صاحب مذهب للشبيبة في جميع أقطار العالم، وخصوصاً المراهقين منهم في الستينيات. فهو بنظرهم منظر الكفاح ضد العبودية والظلم ورمز الشجاعة والكرم. لكنّه اختفى كما يختفى أبطال الأساطير، إلّا أنّ مبادئه وأفكاره ما زالت حيّة ومصدر إلهام ووحي للكثيرين.

ولد «غي» في ١٤ حزيران ١٩٢٨ . وكان والده تاجراً ثريّاً في «روزاريو» إحدى المدن الأرجنتينية، وعائلته تنعم باليسر والرفاهيّة. وكان «غي» يشكو «الأزمة» في صدره منذ نعومة أظافره. لكنّ ذلك لم يمنعه من مزاولة الرياضة والدراسة. وكان يحبّ القراءة بنهم، وقد قرأ «فرويد» عندما كان رفاقه لا يهتمون بسوى الرسوم المتحرّكه. وقد أصيب والده بالإفلاس إثر نكبة تجاريّة مريرة، ممّا اضطره إلى الرحيل إلى «كوردبا» سنة ١٩٤٣ ومن هذا التاريخ انتهى عهد الرخاء بالنسبة إليهم.

من هنا كان على «غي» أن يعمل حارساً ليليّاً لتغطية نفقاته الدراسيّة في الجامعة.

وعند طلاق والديه، كان «غي» يتابع دراسته الطبيّة. ولكن، هل أنهى هذه الدراسة؟ هل نال إجازته؟ لا أحد يدري، فعدم التأكيد بمثابة النفي. ولّما كانت البطالة تقود إلى المرارة والغضب، فقد اشترك بالعديد من التظاهرات الصاخبة ضد «بيرون». ومن ثمّ أصبح تائهاً متشرّداً يجوب أرجاء الأرجنتين. ثم توسّع في تجوّله حتى بلغ أميركا الوسطى. وكان حيث مضى يحوم حول الجامعات، ويحتك بالحركات الطالبيّة وخصوصاً اليسار المعارض. وكان صدره يضيق بالحقد والكراهيّة تجاه الأنظمة، فالتحق بالثورة المسلّحة.

انتقل إلى «غواتيمالا» سنة ١٩٥٣، حيث الكولونيل التقدمي «آربنز كوسمان» يحضّر لتأميم الشركات الأميركية ومنها «شركة الفواله المتحدة». وسنة ١٩٥٤ التقى في «غواتيمالا» بعض الكوبيّين المنفيّين، أعضاء إحدى

التنظيمات المناهضة لنظام الرئيس «باتيستا». وعندما تدخّل الأميركيون عسكريّاً في «غواتيمالا» لحماية مصالحهم التحق بقوات الكولونل «آربنز»، لكنّه أجبر على اللجوء إلى السفارة الأرجنتينيّة، فاستقبل ببروده. وفي آب ١٩٥٤ شوهد في المكسيك، يعمل كمصور متجول في الشوارع، ثم كمساعد في أحد المختبرات. وفي ١٩٥٥ كان اللّقاء التاريخيّ بينه وبين «فيدل كاسترو» ورفاقه الهاربين من كوبا الذين يحضّرون للأخذ بالثأر من «باتيستا» ونظامه الجائر. فانغمس معهم حتى أذنيه، إذْ له هو أيضاً حساباً يسوّيه مع المجتمع. وقد صرّح في لقائه مع الكاتب الفرنسي في هافانا «جان ـ بول سارتر»، بأنّه جنديّ فقط. فالثورة هي هوايته الوحيدة. وقد توثّقت عرى الصداقة بينه وبين «كاسترو»، فتعاونا بكل صدق وإخلاص. تزعّم جيوش الثوّار وقادهم بشجاعة لا مثيل لها ضد جيش «باتيستا» النظاميّ. فطارت شهرته حتى وازت شهرة «فيدل كاسترو». وكانت تطلق عليه العديد من الصفات والتسميات: الطبيب الثائر، الخبير بحرب العصابات، والإختصاصيّ بالحروب الداخليّة، نصير الفلاّحين، وإلى آخره.

في الثاني من كانون الثاني سنة ١٩٥٩، دخل غيفارا بجانب «فيدل كاسترو» إلى «هافانا» دخول الفاتحين.

كان «غي غيفارا» خير منظّم لحروب العصابات، حتى أنّه يأتي بالمرتبة الأولى قبل «ماوتسي ـ تونغ»، إذ كان شديد الإخلاص مع نفسه ومع الآخرين. فكان لا يميّز نفسه بأيّ شيء عن رجاله. فكان يحمل خيمته على ظهره دون مساعدة ويتناول نصف علبة-سردين فقط كوجبة إسوة برجاله المقاتلين. وفي أحد المرّات، إذ كان يقطع أحد الأنهر، سقطت مؤونته من حبوب الذرة في الماء، فقضى مدّة أربع وعشرين ساعة دون طعام، ولم يرضَ بمشاركة أحد في طعامه.

كلّ من عرف «غيفارا» عن قرب يشهد ببساطته ولين عريكته، وبحبّه للحياة العائليّة. فقد تزوّج مرّتين وأنجب خمسة أولاد. وعندما نال منه الضجر بعد أن استتبت الحياة في كوبا، قرّر ترك «كوبا» للتفتيش عن ثورة ما

في العالم الفسيح. لكنّه قبل رحيله، عهد بعائلته إلى الحكومة الكوبيّة. وقد جعلت منه الشبيبة العالميّة «روبن» الغابات الاسطوري. فهو في حرب دائمة ضدّ الأشرار والمجرمين حيث كانوا.

وفي إحدى محاضراته في الثامن عشر من تشرين الأول ١٩٦٧، أي بعد تسعة أيام من موت رفيقه في السلاح، شدّد «فيدل كاسترو» على صفات «غي» كجندي، فشبّهه «بأشيل»، إذ كان لا يأبه بالمخاطر. فكان دائماً يقاتل من يفوقه عدّة وعدداً. ومن هنا أصبح مثلاً يحتذى في أميركا الجنوبية، بالبطولة والتضحية.

ويقال بأنّه انسحب من كوبا خوفاً من الدخول في حرب عقائديّة مع صديقه ورفيقه «فيدل كاسترو»، وهذا ما كتبه في إحدى رسائله إلى والدته سنة ١٩٦٥ . كان يجمع في شخصيته العديد من التناقضات. فتارة بطل، وأخرى ضد البطل، ومُنظِّر على طريقة «روبسبير» أحد زعماء الثورة الفرنسيّة. وهو مهاجم متعصّب كما قال عنه «كاسترو» ومتهوّر إلى حد الإنتحار. فهو لا يحبّ حياة الاستقرار والهدوء. فقد ترك زوجته وعائلته في عهدة الدولة الكوبيّة وذهب ليبحث عن ثورة شعب ضدّ ظلّامه فيساعدها، وعن ظالم متجبر ليقوِّض عرشه.

اهتم علماء النفس بتحليل هذه الشخصيّة الفذّة، الذي دخل التاريخ من بابه الواسع وهو في التاسعة والعشرين من العمر؛ فحاولوا تحليل تصرفاته. يقول البروفسور «ب غلور» أستاذ علم النفس في جامعة لوزان: إنّ غي غيفارا مصاب بإضطرابات في الهوية، فهو يمتهن الثوريّة، لا وطن له، ولا مكان له، وأخيراً لا عائلة له. وهذا ما أوصى به «لينين» للحركيين البولشفين، أن لا يكون لهم ارتباطات من أيّ نوع كانت. كما أنّ الكنائس بعد قرون من الجهود فرضت العزوبية والرهبنة على رجالها، كما أنّ بوذا، والسيد المسيح (دون تشبيه) لم يتزوجا، كذلك العديد من القادة والمصلحين لا يهتمون بأنفسهم إطلاقاً بل يعيشون ليومهم. وكان روبسبير يفضّل أن يدعى: «بالغير قابل للإصلاح». لكن المقصلة أصلحته.

«نيكولاي شاوشيسكو Nicolas Ceaucescu»

هل سيكون شهر تشرين الأول ١٩٨٨ شهراً قاسياً بالنسبة إلى ما تبقّى من مصير «نيكولاي شاوشيسكو» رئيس الجمهوريّة الرومانيّة؟

يوم الثلاثاء ٤ تشرين الأول، دُعي نيكولاي إلى الكرملن، حيث نصحه «ميكائيل غورباتشوف» بالتخفيف من غلوائه وتليين موقفه بالنسبة إلى «كارولي غروز» رئيس هنغاريا، المتعلق بمصير الأقليّة الهنغارية الموجودة في رومانيا. كما أنّ غورباتشوف، في نفس المقابلة، نصح القائد الرومانيّ، بإعادة النظر في مخطّطه الجريء، الذي يقضي بنقل ملايين السكان من محيطهم، وإعادة خريطة البلاد. وتعبيراً عن سخطه، لم يكلّف غورباتشوف نفسه عناء استقبال ضيفه الكبير على المطار كما يقضي البروتوكول في مثل هذه المناسبات، وكانت هذه إشارة واضحة إلى البرودة بين الرئيسين. ولدى عودته إلى بوخارست فوجىء «شاوشيسكو» بتنحية صديقه وسنده الوفيّ في اللجنة المركزية الشيوعيّة السوفياتيّة وإعفائه من مهمّاته مع غيره من رجالات الدولة، ولم يبقَ أمامهم سوى قضاء إجازاتهم الغير المحدّدة على ضفاف البحر الأسود.

خريف ساخن، دون شكّ، بالنسبة إلى «شاوشيسكو»، الذي أصبح شبه معزول. فالجميع يعرف بأنّ سياسة الانفتاح التي قرّرها غورباتشوف هي التي شجّعت المعارضة على الظهور، وهذا ما لا يرضي الحكم في رومانيا، وهذا ما عبّر عنه شاوشسكو بكلّ وضوح: «من غير المعقول أن يتمكن أيّ حزب ثوريّ بالتصريح للمؤسسات الاقتصادية والصناعيّة وغيرها بإدارة شؤونها بنفسها». ففي الوقت الذي دُعي «شاوشيسكو» إلى موسكو لإعطائه

التعليمات بإعطاء المزيد من الحريّات الديمقراطيّة وإشراك أكبر عدد ممكن من المواطنين في إدارة القضايا العامّة، كان غورباتشوف يسعى إلى تقوية سلطته في الاتحاد السوفياتي. وقد لاحظ المراقبون ذلك سواء في موسكو أو في بوخارست. إنّ هذه التعليمات لن تنفع، لأنّ «شاوشيسكو»، فور عودته إلى بلاده قال بأنّه قد حوّل رومانيا في هذا الاتّجاه منذ عشرين سنة، ممّا يعني أنّه غير قابل للنصح والتغيير. وهذا التشبّث يوحي بوضوح أنّه يعاني من متاعب صحيّة.

لم يكن شاوشيسكو يعاني من داء السكري المتقدّم منذ سنين عديدة فقط، بل كان يعاني أيضاً من السرطان في البروستات وكانت قد أُجريت له جراحة في هذا المجال في موسكو. وعلى أثرها، كان عليه أن يحمل «ميلاً» لمدى الحياة. كما أصيب بنشاف في أوعية دماغه الدمويّة، ممّا أفقده النطق لبعض الوقت، وعدم القدرة على التفكير السليم والتعبير عن أفكاره وعواطفه. وهذه الحالة أصيب بها العديد من زعماء الدول، ومنهم الرئيس «أيزنهاور» رئيس الولايات الأميركية المتحدة. كذلك أصيب شاوشيسكو بمرض «البارانويا» وهو مجموعة من الاضطرابات تترجم بنوع من التكبر والحذر والمغالاة، إلى جانب اتخاذ القرارات الخاطئة. كذلك تولّد لدى صاحبها انفعالات عدوانيّة، تترجم من وقت لآخر بثورات من الغضب الجنونيّ لأتفه الأسباب. كما أفقد «بوخارست» ماء وجهها بانتحاله أعمال البارون «هوسمان» الأدبية. ولم يكتفِ بكلّ هذا، بل أصدر أوامره بتدمير سبعة آلاف قرية ودسكرة مبعثره في طول البلاد وعرضها، «وكدّس» أصحابها، وجميعهم من المزارعين في خمسمائة وثمانية وخمسين مجمّع للتصنيع الزراعيّ.

عندما احتفل شاوشيسكو بميلاده السبعين في (٢٦) كانون الثاني ١٩٨٨، وصلته عشرات الآلاف من التهاني ومن بينها ثلاث برقيات من ملكة بريطانيا وملك بلجيكا ومن ملك السويد، هذا حسب زعمه، إذ سرعان ما صدر عن هذه الدوائر الملكيّة تكذيبات رسميّة قاطعة نشرت في جميع صحف العالم، مع بعض التلميحات بأنّ ذلك لا يعقل، إذ أنّ الملكة «أليزابت» والملك

«بودوان»، كذلك الملك «شارل السادس غوستاف» هم من ذوي الدّماء الزرقاء، مثل الملك السابق «ميشال رومانيا»، الذي تخلى عن العرش في ٣١ كانون الأول سنة ١٩٤٧ . وباختراعه لهذه البرقيّات أعطى شاوشيسكو الدليل القاطع على انفصام الشخصيّة لاعتقاده بأنّه الوريث الشرعيّ للتاج الروماني وبأنّه من مصف الملوك والامراء. وذلك بالرّغم من أسطورة حياته التي كانت تدرّس في المدارس الرومانية والتي تروي بأنّه عندما كان في الحادية عشرة من العمر، ألحق وإخوته الخمسة كعمّال متدربين في صناعة الأحذية، وهذا ما فرضه عليهم الفقر المدقع. كانوا يقيمون في قرية «سكورنيشتي» في منطقة «بيتستي»، وليس بعيداً عنهم «كائستي» حيث تقيم عائلة «بترسكو» التي تشبههم بالفقر والإملاق. وكان لهم ابنة من نفس العمر تدعى «إيلينا»، كانت تبيع حبوب دوّار الشمس في السوق المحليّة، والتي أصبحت زوجة «نيقولاي» فيما بعد، وأنجبت له ثلاثة أولاد، «ڤالنتين»، «زوي» و «نيكو». شاركته الحكم بكلّ معنى الكلمة وأصبحت أميرة عندما اعتلى السدّة دون أيّ مبالغة في الوصف، إذ أصبحت تصرّفاتها دونها تصرفات أيّ من أميرات البيوتات المالكة.

كانت المملكة الرومانيّة سنة ١٩٢٩ ما تزال بلد الرخاء والبحبوحة في أوروبا الوسطى فأصبحت عرضة لمختلف أنواع التغييرات، بعد أن تنازل مليكها «كارول الثاني» عن عرشه ليلحق بعشيقته المغامرة «إيلان لوبسكو» إلى باريس. وكان ابنه في السابعة من عمره عندما أصبح «ميشال الأول» ملك رومانيا. ومن الطبيعي، كان تحت وصاية مجلس النواب، الذي كان على رأسه فاشيستي متعصّب: «كورنليو زلييا كودرانو». لقد اخترع نظاماً شرفيّاً دعاه: كتيبة رئيس الملائكة ميخائيل. كما كان يُدعى أيضاً الحرس الحديدي، يلبس أفراده القمصان الخضر ويتجولون ليلاً في مقاطعات «مولدافيا»، و «بسرابيا»، و «ترانسيلفانيا» و «بوكوفينيا»، لطرد اليهود خارج البلاد، إذ كانوا بزعمهم سبب كلّ ما يصيب الناس من الشرّ. كلّ ذلك بتغاضٍ، لا بل بتشجيع سرّي من قبل وزارة الداخليّة. ومن قبل «مالكسا» صاحب مصانع الصلب

والحديد، التي كانت تسمى في حينه «مصانع كروب الرومانية»، وذلك تشبيهاً بمصانع «كروب» الألمانية الشهيرة، وكان «مالكسا» من أقرب أصدقاء القصر الملكيّ.

وكانت مهمّة «كودريانو» الذي مرّ ذكره، تقضي بنشر الفساد في البلقان والإستيلاء على السلطة بالطرق السلمية، وعند الضرورة بالقوّة. كما أنّه في ألمانيا، كانت تجري تحرّكات مماثلة، ولكن بشكل أوسع وأعنف وعلى رأسها هتلر (السعيد الذكر) للوصول إلى السلطة اغتصاباً. أما الماركسيّون الرومان فكانوا ضدّ هذه التصرّفات التعسفيّة، ولكن دون التفكير بالوصول إلى الحكم. أمّا الملك كارول، «وبعد أن تخلّص من عشيقته في باريس»، فقد عاد إلى عرشه.

سنة ١٩٣٣ وبعد نجاح هتلر المذهل، ساءت الأحوال في رومانيا، التي كانت حتى تلك الساعة، تعتمد بشكل كبير على ألمانيا، إذ كانت تبيعها أكثر منتوجاتها من البترول والقمح والذرة، وتستورد منها المواد الصناعية التي كانت بأمسّ الحاجة إليها.

وفي هذه الأثناء كانت رومانيا غارقة في التشنّجات التي تقوم بها منظمة الحرس الحديدي، فألهمت الفتى الصغير على الإلتحاق بالشبيبة الشيوعيّة. وهكذا سنة ١٩٣٦، أصبح «نيقولاي شاوشيسكو» في الثامنة عشرة من عمره، عندما انتسب إلى الحزب الشيوعيّ الرومانيّ.

في انتخابات ١٩٣٧، نال «كورنيليو كودريانو» اثنين وسبعين نائباً، وأصبح جيشه يناهز المئتي ألف من المنتسبين، ممّا استرعى انتباه رئيس الوزراء «أرمان كالينسكو»، وأثار مخاوفه من هذه القوّة المتناميّة، فاعتقله وزجّ به في السجن، خصوصاً بعد أن أطلق لزبانيته الحرّية المطلقة دون رادع. فكانوا يستعملون سكاكينهم ومسدساتهم في كل المناسبات، وقد حكم على «كورنيليو» بالسجن لمدّة ستة أشهر، ممّا لم يرضِ رئيس الوزراء فأحاله إلى محاكمة ثانية، بتهمة التجسّس لمصلحة ألمانيا الهتلريّة في هذه المرّة، فحكم عليه بعشر سنوات من الأشغال الشاقّة في مناجم الملح، ممّا يوازي الحكم بالإعدام.

لأن «كورنيليو» مصابٌ بالسلّ. ولم يكن من حرسه الحديدي سوى إطلاق عنان الإرهاب والتخريب، ففجّروا مصانع الغاز وأحرقوا حقول النّفط. كما عمدوا إلى إلقاء القنابل في المسارح والمقاهي، فَعِيل صبر الملك «كارول»، وأوعز بخنق «كورديانو في زنزانته. فتصاعدت المواجهات الدمويّة. وكان أوّل الضحايا رئيس الوزراء «كالينسكو» إذ اغتيل في «بوخارست». وفي حملة انتقامية أعدم الملك «كارول» ستة آلاف رجل من الحرس الحديديّ، في ثلاثين «وجبة»، ممّا حمل من بقي منهم إلى الإلتفاف حول من هو أسوأ من «كورديانو»: وهو «هريا سيما» استاذ معهد، نازيّ متعصب، توصل بالإرهاب خلال سنتين إلى ما لم يتوصل إليه سلفه بالطرق المشروعة. فتقاسم الحكم الذي توصل إليه، مع المرشال «إيون إنتطونسكو»، الذي كان يلقّب بالكلب الأحمر بالنظر إلى لون شعره وميله إلى ضرب أعدائه في الظهر. وكان أن أجبر الملك «كارول» في هذه المرّة، على التخلي عن العرش في السادس من أيلول سنة ١٩٤٠ . فخلفه على العرش ابنه اليافع «ميشال». وفي هذه المرّة، أصبح الشيوعيّون هدف الحرس الحديديّ بالإضافة إلى اليهود، فلجأوا إلى المقاومة السريّة ومن بينهم «نيكولاي شاوشيسكو».

كما هو معروف تاريخيّاً انضمت رومانيا إلى الحلف الثلاثي الذي يضم منذ سنة ١٩٤٠، إلمانيا وإيطاليا واليابان المعروفة في حينه، بدول المحور. فهاجمت الاتحاد السوفياتي سنة ١٩٤١ في نفس الوقت مع جيوش الرايخ الثالث، وتوغّلت معه في الأراضي المتاخمه لها، حتى عادت فجرفتها القوات الروسية سنة ١٩٤٤ وحوّلتها إلى جمهورية رومانيا الشعبيّة بعد استقالة «ميشال الأول». فاستلم زمام الأمر فيها، المناضل الوطني الشيوعيّ الأول: «جورج جيوركيو ـ دج». أمّا وزارة الخارجية فقد أسندت إلى السيدة «أنا بوكر»، التي ولدت في «روبنسون» وهي ابنة عامل بسيط في كنيس يهودي في بوخارست، وأرملة أحد التروتسكيين، الذي اختفى في أحد معتقلات «سيبريا». وكانت تحلم بإزاحة «جيوركيو ـ دج» وأخذ محلّه. وكان بين النواب الشيوعيّين نيكولاي شاوشيسكو، وقد أصبح أحد أعضاء اللجنة المركزيّة للعمّال الرومان

سنة ١٩٥٢ . وكان قد لفت أنظار موسكو بنشاطه وحزمه بطرد (أعداءِ) الثورة إلى خارج البلاد. كما حصل من التهجير الكثيف في كافّة «مخازن وبرّادات» الاتحاد السوفياتي في أوروبا وهي: ألمانيا الشرقية، بولونيا، تشكوسلوفاكيا، بالإضافة إلى رومانيا وهنغاريا وبلغاريا. فالموجة الأولى من التهجير تمّت على أيدي الحرس الحديديّ وأنصار المرشال «أنطونيسكو»، ثم تبعتها جماهير الأحرار التي تضم البورجوازيين، وأصحاب الأراضي، إلى جانب أصحاب المهن الحرّة والصناعيّين. أمّا الموجة الثانية فكانت تتألف من الملكيين الذين تبعوا ملكهم «ميشال». وفي سنة ١٩٤٧، كان الهرب الفردي من هنغاريا ويوغسلافيا. أمّا في رومانيا فقد أصبح اليهود ينالون تأشيرات الدخول إلى فلسطين، ومن ثمّ إلى إسرائيل، بالمئات دون عناء يذكر. وخلال سنة ١٩٥١ رحل من رومانيا إلى إسرائيل (١٧٠) ألف يهودي. وبعد سنة استفاد من هذه التسهيلات (٢٣) ألف مهاجر. أمّا العدد النهائيّ للهاربين فغير معروف. وعدد المساجين يربو على (٨٠٠,٠٠٠) سجين، مات من بينهم (٢٠٠,٠٠٠) في المعتقلات وفي مخيّمات العمل المبعثرة في «دلتا» الدانوب، وذلك في عمليّة تطهير هائلة، وعند «شاوشيسكو» الخبر الصحيح.

حتى ١٩٥٨، بقي «شاوشيسكو» نائباً سعيداً، إذ كانت رومانيا قد ضمّدت جراحها بعد حرب خاسرة، وسنتين من الجفاف المرعب استنزف كلّ مخزوناتها. وقد عرف السكّان معنى المجاعة. ومن هنا استطاع المهيمنون وضع اليدّ على المناجم والبنوك وكذلك الزراعة. ومن ثمّ جلت الجيوش السوفياتيّة عن الأراضي الرومانية، ولاحظ «شاوشيسكو» أنّ «جورجيو ـ دج» ونظامه يضمران.

أخذت الصناعة الرومانيّة تنفض عن نفسها غبار الكسل، فأخذ النهار يبدأ باكراً. في السّاعة السّابعة يبدأ العمل في المصانع والمكاتب و ٤٨ ساعة من العمل اسبوعيّاً. وفي مدينة «بلويستي»، ارتفعت أجور العمّال ارتفاعاً ملحوظاً بسبب وجود البترول في هذه المدينة. وأصبحت دور السينما والمسارح تضيق بروّادها. وفي هذه الأثناء كان «شاوشيسكو» يراقب الأحوال عن كثب،

ويحيك المكائد ضدّ المسؤولين، ولكن بمنتهى الحذر، إذ من اكتشف أمره لا رحمة له ولا شفقة. فكلّ منهم مشحوذ المخالب مسنون الأنياب. وهنا لعب القدر دوره، فجرت الرياح بما تشتهي سفن «شاوشيسكو»، إذ انتقل «جورجيو ـ دج» إلى رحمة ربّه، وهذا ما كان ينتظره شاوشيسكو بفارغ الصبر، وبأيّ طريقة كانت. فاقتحم طريقه نحو العرش. أمّا الطريقة الفضلى التي أعطت ثمارها في جميع الأنظمة الشيوعيّة، تقضي بالسيطرة أوّلاً على اللجنة المركزيّة، وهذا ما قام به تلميذ صانع الأحذية السابق بمهارة وفعالية. فوصل إلى حيث يشتهي، وأصدر دستوراً جديداً للبلاد، وأصبحت رومانيا جمهوريّة إشتراكيّة تحت إدارة «شاوشيسكو» وأحد «المهرّجين» «شيفو ستوتكا». ولكن سرعان ما أطاح به، وقبض على زمام الأمور بكلتا يديه. وقد عرف بنشاطه المفرط، فهو يستفيق باكراً، ولا يترك مكتبهُ إلّا في ساعة متأخرة كان يختارها بنفسه ويغيّرها من يوم إلى آخر. وكان لا يسير في نفس الطريق مرتين على التوالي ويصحبه دائماً شرذمة كبيرة من الحرس المدجّجين بالسلاح، وهم على استعداد تام لإطلاق النار حتى على خيالهم. كما عرف بدقّته في جميع الحقول إلى درجة الهوس.

لم يرث «شاوشيسكو» عن سلفه سوى ما كان يُدعى الشيوعيّة الوطنيّة، وهذه إحدى المظاهر الاستقلاليّة عن الجبّار السوفياتي ومعاندته عند اللزوم. وعمل على أن تكون علاقات رومانيا الخارجيّة مع جميع الدول على أساس المساواة في الحقوق والإحترام المتبادل والاستقلال الوطنيّ وعدم التدخل في الشؤون الداخليّة لأيّ من الشعوب. وقد كان يقول: لا لستالين ولا لخروتشوف. ولكن في الحقيقة كان ينفّذ النظريّة الشيوعيّة بدقّة وحرص. ولا يختلف مع الزعماء السوفيات إلّا في ما يحتويه كأسه. فهم يعبّون «الفودكا»، أمّا هو فيرتشف «التسويكا». بالرغم من أنّ «شاوشيسكو» أبقى على السجون والمعتقلات، إلّا أنّه حاول التمويه بالنسبة إلى المعارضة والمعترضين. وعلى سنّة الأخ الأكبر، الاتحاد السوفياتي، كان كل غير مرغوب في آرائه السياسيّة، يُتّهم بمرض عقليّ فيدفن حيّاً في إحدى «المستشفيات ـ السجون»، حيث يبقى «تحت

المعالجة» مدى الحياة. وهذا ما أكّده الدكتور «إيون فيانو» رئيس قسم الأمراض العقليّة في كليّة الطبّ في «بوخارست»، الذي تمكن من الفرار إلى باريس في ٢١ تموز سنة ١٩٧٧. وممّا قاله: إنّ الطريقة المتّبعة في مؤسسة «سربسكي» في موسكو، أدخلت سرّاً إلى رومانيا. وهذه الطريقة تقضي بالقضاء على المعارضين تدريجيّاً بواسطة العقاقير والأدوية، تحت ستار المعالجة. وقد فرض قانون التقنين على جميع المواد الاستهلاكيّة والغذائيّة، وخصوصاً بالنسبة لما اعتبره من الكماليات. وما لم يشمله قانون التقنين هو الخبز والخمور الرخيصة، التي كانت في متناول حتى أفقر الطبقات، وذلك لجعل الشعب الرومانيّ مخموراً، فلا وقت لديه للتململ والمعارضة. ولكن الكراهيّة والحقد على «شاوشيسكو» ونظامه الجائر كانت تكوي صدور المواطنين.

كلّ هذا إلى جانب كبت الحرّيات على جميع الصعد، ومن جملتها الحريّات الدينيّة. وفي هذا المجال تحضرني حادثة جرت معي شخصياً، أرويها بكلّ صدق وأمانة: في أول زيارة لي لرومانيا في أيلول سنة ١٩٧٣، طلبت من منظمة السياحة الوطنية في بوخارست مترجماً يرافقني ويساعدني في تنقلاتي. فكان لي ذلك، وهو شاب يافع يتقن الفرنسيّة. وتلميذ في السنة الرابعة ـ طب، في جامعة بوخارسبت، ويدعى «دان»، ويتحدر من عائلة بورجوازيّة، صادرت السلطات الشيوعيّة أملاكها، ومن جملتها قصر منيف في أرقى شوارع بوخارست. أشارت والدة «دان» إليه بعيون مغرورقة بالدموع قائلة: هذا بيتي الذي أخرجوني منه، بعد أن قتلوا زوجي فرموني في الشارع أنا وأطفالي في ليلة مثلجة، ونحن بثياب النوم فقط شبه عراة. وقد توطّدت عرى الصداقة بيني وبين هذه العائلة الكريمة. وفي صبيحة يوم أحد، طلبت من «دان» أو غيره من أفراد العائلة مرافقتي إلى إحدى الكنائس لاكتشاف مدى حريّة العبادة في تلك البلاد. وعند طلبي هذا، وجم الجميع وتغيرت ملامحهم، وأخذوا يتهامسون بالرومانية التي كنت أجهلها في ذلك الحين، بالرغم من أنهم يتقنون الفرنسيّة ويحرصون على التكلّم بها أثناء وجودي تأدباً. وهذا ما يشهد على أصالتهم، إذ أنّ اللغة الفرنسية، كانت لغة الصالونات والعائلات الكريمة قبل

الحرب والنظام الشيوعيّ يوم كانت رومانيا تدعى: شقيقة فرنسا الصغرى. ولدى إلحاحي على معرفة سبب وجومهم وتهامسهم أجابتني الوالدة الوقور بكلّ حياء وخفر، كأنّها تعتذر عن ذنب لم تقترفه فقالت: كل منا يتمنى الذهاب إلى الكنيسة التي حرمنا منها منذ سنين عديدة. ولكنّ ذلك غير ممكن بالنسبة إلينا، إذ أنّ الوشاة والمراقبين كثر أمام دور العبادة، فمن يرتَدْها يَنَلْهُ أذى بليغ، خصوصاً إذا كان موظّفاً أو تلميذاً. فعلى الأقل يُطرد من عمله أو مدرسته. إنَّ الكنيسة بمثابة فخ أو مصيدة للشعب الرومانيّ المغلوب على أمره.

وهكذا بالنسبة إلى التعسّف واستغلال موارد الدولة ومظاهر الأبّهة والعظمة فحدّث ولا حرج. وفي هذا المجال كان لا يتورع عن إرساله كلب حراسته «الدوبرمان» في نزهة بالسيارة الرئاسية محاطاً بالعديد من رجال أمنِ الدولة الأشاوس. كما حملته مخاوفه على إحاطة نفسه بفرقة كاملة من أشرس الرجال، وقد درّبوا على أحدث وأسرع وسائل القمع والقتل. أمّا في مجال الإستئثار بالحكم، فقد جعل من عائلته عائلة مالكة، دونها «البوربون»، «ورومانوف» «وهو هنزلر». فزوجته «إيلينا»، بائعة بذور دوّار الشمس سابقاً، لم تكتفِ بوزارة الزراعة، بل أسندت إليها أربع عشرة مهمّة رسميّة أيضاً. كما أنّ أشقّاءه وأشقاء زوجته، أُسندت إليهم مناصب حكوميّة هامّة. كذلك أحد أولاده «نيكو» وله من العمر ٣٨ سنة كان وزيراً للشباب، وكان يُعتبر وليّ عهد والده وخليفته على عرش آبائه وأجداده. وهنا لا بدّ من ذكر إنجازاته ومآثره على صعيد الشباب، وبشكل خاص على الشابّات الجميلات. كان يقوم بزيارات تفقديّة للكليّات والجامعات، وأثناء ذلك يختار أجمل الطالبات ويدعوها إلى السهرة والعشاء...

وفي إحدى زياراته لمدينة «ياشي» الجامعيّة، لفتت أنظاره صبيّة بارعة الجمال. ولمّا كان لا يحبّ الوحدة، أرسل إليها كعادته كبير قوّاده الميامين. فرفضت بكبرياء وشمم، إذ كانت تعرف مسبقاً ما ينتظرها من كرم و... حسن ضيافة. ولما ألحّ عليها ولجأ إلى الوعيد والتهديد، أسمعته كلاماً لاذعاً

إن بالنسبة إليه أو بالنسبة إلى سيّده المضياف. فما كان من وزير الشباب والثقافة والرياضة وإلى آخره... إلّا أن انتظرها خارج الجامعة بسيارته الضخمة المصفّحة. ولدى خروجها اقتحم الرصيف، فدهسها وجعل من جسدها أشلاءً منثورة، فسقطت شهيدة العفّة والشرف. وقد أصبحت هذه الحادثة حديث الخاصّة والعامّة، ولكن من فم إلى أذن دون أن تجرؤ الصحف المحليّة على ذكرها. ولا غرابة، فهي تحتَ رقابة الدولة. أمّا الصحف في البلاد الغربيّة، فقد طبّلت وزمّرت في حينه. ولكن ما همّ الدانوب من نقيق الضفادع؟ (مثل روماني). ومن هنا، وبعد تصاعد الإجراءات التعسفيّة، وارتفاع أسعار المواد الرئيسيّة، عمّت الفوضى في المصانع والمؤسسات، فكثرت الإضرابات والاعتصامات في جميع المدن الرومانية وعلى الطريقة «البولونية»، التي تقضي بأن يجلس العمّال في مراكز عملهم، ولكن مكتوفي الأيدي.

وفي تلك الأيام كان الشعب الروماني ولا سيّما المثقفين منهم، يراقبون التغيرات الجسديّة لدى شاوشيسكو. فقد ضمر جسمه بشكل يلفت الأنظار، وذلك نتيجة مرض السكّري وتفاقمه لديه. وأصبح يعاني من متاعب في الأوعية الدموية، وفي مجاريه البوليّة، وعادت إلى الظهور بعض الأورام السرطانيّة في البروستات، ممّا يعني أنّها لم تُستأصل جذرياً، عندما أجريت له الجراحة في موسكو. وأصبح يتجنّب الظهور على شاشة التلفزيون. وإذا ظهر فمتستراً برفاقه. وفي حزيران ١٩٨٨، وخلال إحدى المحاضرات، توقّف عن الكلام وغاب عن القاعة لأكثر من عشرين دقيقة، وقد بدّل ثيابه، وهذه الإشارة لم تخفَ على السوفياتيّين، فتأكّدوا أنّ حالته لا يحسد عليها. ومن هنا، وعلى سبيل المؤاساة، أنعم عليه في منتصف أيار ١٩٨٨، بوشاح «لينين»، قلّده إيّاه صديقه «أندريه غروميكو» الذي لم يعد بعدها عضواً في المكتب السياسيّ للحزب الشيوعيّ السوفياتي، ولا أيّ شيء آخر. وكأن مظاهر التكريم في الأنظمة الشيوعيّة هي دعوة إلى التخلي عن المركز، وإخلاء المكان لسواه من الطامحين. أو ليس لكل دوره في الحياة؟؟؟

المراجع

1) Bernard Jean: le sang des hommes, Éd Buchet-Chastel, Paris 1981

2) Pierre Accocce: Ces nouveaux malades, Éd, Stock, Paris 1989.

3) Cartwright: Ces maladies qui ont changé l'histoire Éd Elsevier Paris 1974.

4) Treue Wilhelm: les hommes célèbres et leurs médecins, Éd Buchet-Chastel, Paris 1958.

الفهرس